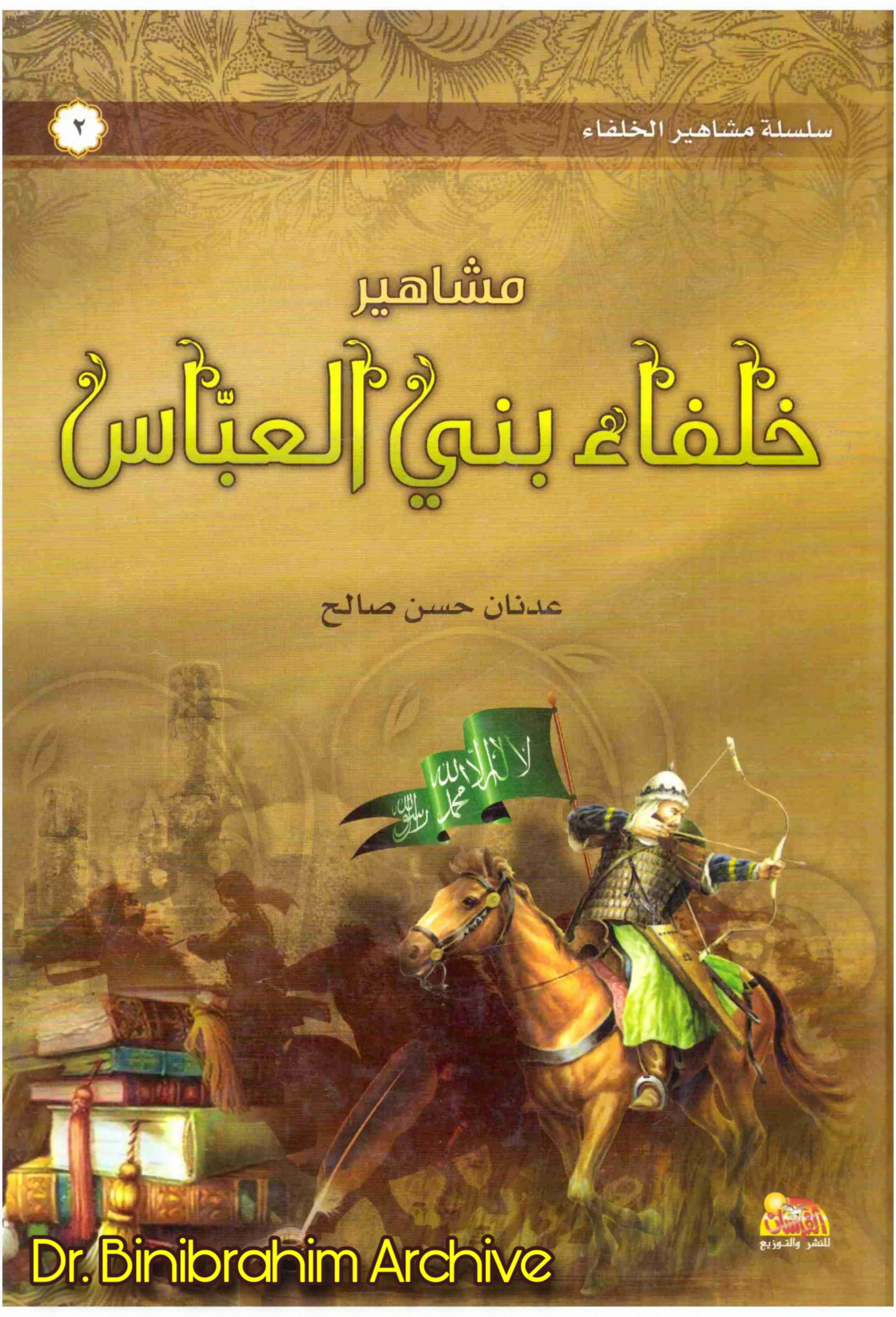

سلسلة مشاهير الخلفاء
٢
مشاهير
خلفاء بني العبّاس
عدنان حسن صالح
لا إله إلا الله محمد رسول الله
الفرسان للنشر والتوزيع
Dr. Binibrahim Archive

مشاهير خلفاء
بنـي العبـاس

عدنان حسن صالح



الطبعة الأولى

٢٠١١م /١٤٣٢هـ

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – العبدلي

هاتف ٥٦٠٧٣٨٦ ٦ ٠٠٩٦٢

فاكس ٥٦٥٣٤٧٠ ٦ ٠٠٩٦٢

صندوق بريد ٢٤٠٦٦٤ عمان ١١١٢٤ الأردن

Al Fursan Est.
For Publishing & Distributing
Jordan – Amman – Abdaly
Tel: 00962 6 5607386
Fax: 00962 6 5653470
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan
E-mail: alfursan@cyberia.jo
alfursan111@yahoo.com



مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

ISBN: 978-9957-441-28-9 ردمك

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: ٢٠١٠/٩/٣٥٤٩

مشاهير خلفاء
بنـــي العبـــاس

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠١٠/٩/٣٥٤٩)

٩٥٦,٠٥

صالح، عدنان حسن

مشاهير خلفاء بني عباس ودورهم في ازدهار الحضارة الإسلامية وقوة الدولة/ عدنان حسن صالح - عمان: مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

(   ) ص

ر. إ. ٢٠١٠/٩/٣٥٤٩

الواصفات: الخلفاء العباسيون / العباسيون ٧٥٠-١٢٥٨ / التاريخ الإسلامي / الحضارة العربية

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

الإهداء

إلى شباب الإسلام وبناة الغد، إلى من ترنو إليهم الأمة ليكونوا نبراساً للتغيير والإصلاح وبناء مجتمع مسلم متكامل ومتكافل ليكون لبنة صالحة في بناء دولة الإسلام وإعادة كيان الدولة لإعادة مجد الإسلام وارتقائه ليعود لقيادة العالم وتغييره للأفضل.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المسلمين محمد بن عبدالله ﷺ وأصحابه ومن تبعوه وحافظوا على بيضة الإسلام ونشروه للعالمين؟

سبق أن كتبنا في كتابنا السابق عن دولة الأمويين في المشرق والأندلس وما قاموا به من فتوحات ونشر للإسلام، فكانت دولة بني أمية بحق دولة الفتوحات الكبرى في المشرق والمغرب والشمال وحافظت على كيان الدولة وتماسكها حتى ضعفت وانهارت وقام على أنقاضها دولة بني العباس التي حافظت على كيان دولة الإسلام ومجده وعزته وإن كانت دولة بني أمية دولة الفتوحات فإن دولة بني العباس هي دولة العلم والحضارة وبناء الإنسان فشهدت نهضة علمية راقية وقامت بدور الترجمة على أحسن وجه فكانت دار الحكمة في عهد الخليفة المأمون.

عاصر دولة بني العباس دولة البيزنطيين التي خضعت وسالمت الدولة الإسلامية ودفعت الجزية حتى إنها أرغمت إمبراطور البيزنطيين نقفور على دفع الجزية عن دولته وعن شخص الإمبراطور وحاشيته في عهد الخليفة العباس الشاب هارون الرشيد الذي خاطب السحابة في كبد السماء قائلاً: امطري حيث شئت فإن خراجك سيأتيني.

شهد العصر العباسي ظهور عدد من خيرة علماء المسلمين في الفقه والحديث وشتى العلوم من الفلك والطب والفلسفة وغيرها من أمثال الأئمة: الشافعي، أبو حنيفة مالك بن أنس وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي

والطبيب الفيلسوف ابن سينا والفارابي وبروز عدد من كبار الشعراء مثل البحتري وأبو تمام والمعري والمتنبي وأبو العتاهية وغيرهم الكثير.

حكمت الدولة العباسية أكثر من خمسة قرون ويعتبر القرن الأول عصرها الذهبي الذي شهد خلفاء عِظام من أمثال: أبو جعفر المنصور، هارون الرشيد، المأمون، المعتصم.

كما شهدت الدولة العباسية أسراً عظيمة ساهمت في بناء الدولة، لكنها لما انحرفت تعرضت للأذى والانهيار مثل أسرة البرامكة الفارسية الأصل التي بلغت شأواً كبيراً ولأسباب ورد ذكرها في الكتاب قضى عليها هارون الرشيد وأعدم من أعلامها جعفر البرمكي وسجن أفراد أسرة البرامكة في جلّهم.

وفي نهاية القرن الأول من حكم العباسيين ظهر العنصر التركي وعدداً من القادة الأتراك الذين صالوا وجالوا لينتهي العصر الذهبي للدولة العباسية ولتصبح السلطة للقادة الأتراك منذ خلافة المعتصم الذي بنى لهم مدينة سامراء، فأمه تركية الأصل، خضعت سلطة الخلفاء لهم وبدأ الضعف في جسم الدولة العباسية وظهور الدول المستقلة استقلالاً ذاتياً مع الولاء للدولة العباسية، يذكروا اسم الخليفة في خطبة الجمعة ويرسلوا له بعض الأموال ومن هذه الدول المستقلة: الدولة البويهية، الدولة السامانية، الدولة الغزنوية، الدولة الحمدانية، الدولة الطولونية، الدولة الإخشيدية وأخيراً دولة السلاجقة، وبعد حكم استمر خمسة قرون ونيّف انهارت الدولة العباسية على يد المغول التتار سنة ٦٥٦هـ، ١٢٥٨م.

وهكذا خبا ضوء دولة بني العباس دولة الرشيد والمأمون والمعتصم وسطع ضوء دولة بني أمية في الأندلس ثم ظهرت بعض القوى الإسلامية التي تصدت للصليبيين والمغول من أمثال الدولة الزنكية والدولة الأيوبية ثم دولة المماليك. هذا وقد تعرضت في هذا الكتاب لعِظام خلفاء بني العباس في القرن الأول المعروف بالعصر الذهبي ومطلع القرن الثاني، فتحدثنا عن باني ومؤسس الدولة العباسية

«أبو جعفر المنصور»، وعن الخليفة الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً «هارون الرشيد»، وعن «أبو العلم والحكمة» في دولة بني العباس الخليفة المأمون، وعن بطل وفارس الدولة العباسية الذي هبّ لنصرة امرأة هاشمية من المسلمين استنجدت به قائلة «وا معتصماه»، فهبّ لنصرتها قائلاً لبيك يا أخت الإسلام وجهز جيشاً عرمرماً قاده بنفسه وهزم البيزنطيين في معركة «عمورية». فهل من معتصم جديد لنصرة الأقصى واستعادته من أيدي اليهود الغاصبين كما استعاده من قبل صلاح الدين «يوسف بن أيوب» من أيدي الصليبيين، نرجو ذلك ولينصرنّ الله من ينصره.

عدنان صالح



مشاهير خلفاء بني العباس

- كيفية قيام الدولة العباسية.
- الخليفة أبو جعفر المنصور.
- الخليفة هارون الرشيد.
- الخليفة المأمون.
- الخليفة المعتصم.
- الخليفة المتوكل.
- الخليفة المعتمد.
- الخليفة المعتضد.

كيفية قيام الدولة العباسية

يُنسب اسم الدولة العباسية إلى العباس بن عبدالمطلب، عم رسول الله ﷺ، من سادات بني هاشم وعقلائهم، كان صديقاً وفياً لأبي سفيان صخر بن حرب والد معاوية بن أبي سفيان، وكان العباس قد حضر مع رسول الله ﷺ بيعة أهل المدينة له ولم يكن قد أسلم وقتها، وقال لهم: يا معشر الخزرج إنكم قد وعدتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمدٌ من أعز الناس في عشيرته يمنعه من الله من كان منا على قوله ومن لم يكن على قوله منعة للحسب والشرف، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة، فإنها سترميكم عن قوس واحدة، فارتؤوا رأيكم واتمروا أمركم، ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه، فردّ عبدالله بن عمرو بن حزام والبراء بن معرور، بأنهم أهل حرب ويريدون الوفاء والصدق وبذل المهج والأرواح دون رسول الله ﷺ، فقرأ ﷺ عليهم القرآن، ثم دعاهم إلى الله ورغّبهم في الإسلام فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق، فبايعهم ﷺ على ذلك، أخذ عمه العباس بيد ابن أخيه محمد ﷺ، يؤكد له البيعة على ما بايع على أهل المدينة.

هاجر العباس بن عبدالمطلب إلى المدينة قبيل فتح مكة، كما حضر مع الرسول ﷺ فتح مكة وكان سبباً في نجاة أبي سفيان وتشريف الرسول ﷺ بقوله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

كان رسول الله ﷺ يحب عمه ويكرمه وكذلك الخلفاء الراشدين من بعده، وتوفي العباس ﵁ في خلافة عثمان يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شهر رجب سنة ٣٢هـ، وكان له من العمر ٨٢ سنة ودُفن في البقيع وأكبر أولاده الفضل وأشهرهم عبدالله بن عباس، وقد وُلد قبل الهجرة بسنتين وكان عمره عند وفاة الرسول ﷺ ١٣ سنة وكان ﵇ يحبه حباً كثيراً ودعا له قائلاً: «اللهم علّمه التأويل» فكان عبدالله بن عباس أعلم الناس بآيات القرآن الكريم وتأويلها، كما كان فقيهاً في أمور الدين. وكان عمر ﵁ يحبه ويُدخله مع كبار الصحابة في مجلس شورته الخاص كما كان يستفتيه في الكثير من المسائل رغم صغر سنّه ببركة دعاء الرسول الأعظم له، هذا وقد ولاّه أمير المؤمنين عثمان بن عفان موسم الحج سنة ٣٥هـ وكان ﵁ عضداً ونصيراً لابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في حروبه كلها، هذا وقد ولاّه البصرة وأعمالها، وقيل إنه انحرف عنه في أواخر أيامه، كما ترك البصرة ورحل إلى مكة وأقام في الطائف، وقال البعض إن ذلك حصل بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب.

توفي عبدالله بن عباس «حبر الأمة» سنة ٦٨هـ في خلافة عبدالملك بن مروان، ومن أولاد عبدالله بن عباس علي الذي وُلد في الليلة نفسه التي قُتل فيها الإمام علي ابن أبي طالب سنة ٤٠هـ وأمه زرعة بنت مشرح بن معد يكرب من كندة، وعلي هذا من أصغر اولاد عبدالله بن عباس، وكان علي هذا سيداً شريفاً بليغاً، وهو أجمل وأوسم القرشيين، كان علي بن عبدالله بن عباس مفرطاً في الطول، أقطعه بنو أمية قرية في البلقاء بشرق الأردن اسمها الحميمة، ليكون قريباً منهم وتحت أنظارهم لمراقبته، وتوفي علي هذا سنة ١١٨هـ، وكان قد أنجب ولداً اسمه محمد، ويعتبر محمد ابن علي بن عبدالله بن العباس الشخصية القوية، والعباسي الحقيقي الذي أظهر طموحه ورغبته في الخلافة وسعى لتحقيقها بشكل سري.

ومحمد بن علي هو والد إبراهيم الإمام وأبي العباس «السفاح» وأبي جعفر المنصور وهما مؤسسا الخلافة العباسية.

وجد العباسيون على الساحة حزبين متعارضين هما: الأمويون والعلويون، وكان حزب العلويين أقرب إليهم بحكم قرابتهم للرسول ﷺ، لذا وجه العباسيون نشاطهم السياسي نحو هذا الحزب - حزب العلويين.

بعد وفاة «أبو هاشم» آخر إمام للشيعة الكيسانية، ويقال إن هاشم بن محمد ابن الحنفية سلم زمام الدعوة لهم - أي للعباسيين - قبل وفاته حيث لم يكن له عقب - أولاد - لذا استغل العباسيون هذا الوضع واندمجوا في الشيعة الكيسانية.

وعليه فقد بدأت الدعوة العباسية شيعية في الأصل، ثم تحولت بعد نجاحها إلى خلافة سنية ومحمد بن علي بن عبدالله بن العباس هو العباسي الحقيقي الذي سعى لنيل الخلافة، لذا أخذ محمد بن عبدالله ينظم الدعوة والدعاية تنظيماً سرياً دقيقاً من بلده الحميمة وبدأ بإرسال الدعاة والنقباء إلى المناطق الملائمة لدعوتهم ومن أهم هذه المناطق خراسان والتي تجمع فيها كل العناصر المعارضة للأمويين والساخطة على سياستهم، ومن أشهر الدعاة سليمان بن كثير الخزاعي، مالك بن الهيثم، طلحة بن زريق، عيسى بن أعين، موسى بن كعب خالد بن إبراهيم الشيباني، عمران بن إسماعيل المعيطي. وكان هؤلاء الدعاة الـ ١٢ تحت إمرة محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج ويأتمر بأمرهم سبعون رجلاً وبدأ عملهم مطلع القرن ٢ هـ حتى سنة ١٣٢ هـ، حيث نجحت الدعوة العباسية وبويع فيها لأبي العباس السفاح تنقسم الدعوة العباسية إلى قسمين:

أ- عصر الدعوة المحضة من ١٠٠ -١٢٧ هـ بدون استخدام القوة ومدتها ٢٧ سنة.

ب- عصر استخدام القوة مع الدعوة بزعامة «أبو مسلم الخراساني» الذي اتخذ من قرى مرو وخاصة قرية سفيذنج مقراً يبث منها دعاته بين الناس حتى يجتمع الناس إليه وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٩ هـ، لبس هؤلاء الدعاة لباس السواد، شعار الدولة العباسية.

كتب أبو مسلم الخراساني لوالي الأمويين على خراسان نصر بن سيار كتاباً يدعوه لمناصره دعوته فما كان من نصر بن سيار إلا أن وجّه إلى أبي مسلم مولاه يزيد في خيل عظيمة، فكان رد أبو مسلم أن وجّه إليه مالك بن الهيثم الخزاعي، التقى الطرفان عند قرية آلين، انتهت الموقعة بينهما بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند الوالي نصر بن سيار والذي جُرح في الموقعة وتمت مداواته ثم تخييره بين أن يقيم معه ويدخل في دعوته، أو أن يرجع إلى مولاه نصر سالماً على ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم ما رآه، اختار يزيد الرجوع لمولاه، وذكر له ما رآه من صلاتهم وقراءتهم للقرآن وذكرهم لله كثيراً وأن أمرهم سيعلو وينتصر.

لما رأت ربيعة شدة وقوة أمر أبي مسلم أرسلت إلى نصر بن سيار تطلب منه الموادعة فاستجاب لهم وتوادعوا لمدة سنة، تمكن أبو مسلم من استمالة ربيعة بعد أن فرق كلمة البلاد وبعدها تمكن أبو مسلم من دخول دار الإمارة في مرو فهرب واليها الأموي نصر بن سيار مستخفياً ثم أخذ أبو مسلم البيعة على أهلها ونص البيعة «أبايعكم على كتاب الله وسنّة نبيه محمد ﷺ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه» وبعد ذلك أرسل أبو مسلم إلى شيبان الحروري يدعوه على بيعته فرفض، فوجه إليه أبو مسلم جنداً، فدارتْ موقعة قُتل فيها شيبان ومعظم من معه، فخضعت خراسان كلها لأبي مسلم والذي بعث بعماله على جميع الولايات وأمر قائده قحطبة بن شبيب بمتابعة نصر بن سيار ومعه لواء عقده له إبراهيم الإمام، فساروا وراءه من بلد إلى بلد حتى مرض نصر بالري ومات فيها، فاستولى قحطبة على الري ثم على همذان فنهاوند ثم توغل قحطبة في بلاد العراق فقصده أمير العراق من قبل أمير المؤمنين مروان بن محمد ابن هبيرة على بُعد ٢٣ فرسخاً غرب الفرات من الكوفة وقبل قيام الموقعة الكبرى بينهما مات القائد قحطبة فخلفه ابنه الحسن والذين تمكن من هزم ابن هبيرة واستمر في تقدمه حتى وصل لواسط ومنها ارتحل إلى الكوفة ودخلها في محرم ١٣٢هـ، وسلّم الأمر حسب وصية والده قحطبة لأبي سلمة الخلال والذي وجه الحسن لقتال ابن هبيرة في واسط ووجه قواده إلى المدائن وعين التمر

والأهواز. عسكر القائد الحسن بن قحطبة عند حمام أعين على ثلاثة فراسخ من الكوفة، بعد مقتل إبراهيم بن محمد ذهب أهل بيته إلى الكوفة في صفر ١٣٢هـ عند الأمير «أبو سلمة الخلال» المعروف بوزير آل محمد والذي كتم أمرهم عن سائر قواده أربعين ليلة، ولما أحسّ القادة بأمر أبي سلمة الخلال ذهبوا إلى الكوفة وقابلوا «أبو العباس» وسلّموا عليه بالخلافة وعمل بذلك أيضاً أبو سلمة الخلال.

خرج أبو العباس يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول فصلّى بالناس وخطب فيهم بالكوفة وأثنى عليهم وقال «أنتم أسعدنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا وأنا السفاح المبيح والثائر المتيح» وبجملته هذه لقب بالسفاح.

عند اختيار السفاح ومبايعته أصيب بوعكة صحية، فجلس على المنبر عمه داود بن علي فخطب في الناس وكان داود هذا أفصح بني العباس، مدح أهل خراسان لما قاموا به من نصرة لأهل البيت وإعادة حقوقهم، ثم أعلن أمامهم أن عبدالله بن محمد (السفاح) هو أمير المؤمنين، بعدها خرج السفاح إلى القصر وأجلس أخاه «أبو جعفر المنصور» ليأخذ البيعة له على الناس في المسجد.

استخلف أبو العباس على الكوفة عمه داود بن علي، ولم يبق أمامهم إلا القضاء على آخر خلفاء الأمويين مروان بن محمد بالجزيرة وعلى ابن هبيرة في واسط.

اختار أبو العباس على قيادة الجيش عمه عبدالله بن علي لمحاربة مروان بن محمد، التقى الجيشان الأموي والعباس على نهر الزاب الأعلى أحد فروع نهر دجلة، انتهت المعركة بانتصار عبدالله بن علي وجنده وفرار مروان بن محمد وسيطرة عبدالله ابن علي على معسكر مروان كله في جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ واستمر عبدالله في متابعة مروان بن محمد حتى وصل إلى دمشق وقتل أميرها الأموي الوليد بن معاوية وفرار مروان بن محمد إلى مصر فأرسل السفاح لمتابعته عمه صالح بن علي وقتله لمروان بن محمد في بوصير لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ لتنهي بمقتله وهزيمته في معركة الزاب الدولة الأموية في المشرق.

أما والي الأمويين في واسط بالعراق «ابن هبيرة» فقد طلب الأمان بعد أن وصله خبر مقتل الخليفة مروان بن محمد، أُعطي الأمان، لكن قبل جفاف الحبر الذي كُتب به الأمان، أمر أبو جعفر المنصور شقيق السفاح بقتل ابن هبيرة وقتل معه وجوه من أصحابه.

أما مشاهير خلفاء بني العباس الذين سنتناولهم بالحديث الموسع:



يعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، الذي وطّد أركانها بفضل تجاربه وخبراته وبفضل حزمه ودهائه ومدة حكمه الطويلة حيث حكم قرابة ٢٢ عاماً.

النشأة والحياة:

اسمه عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، وأمه أم ولد اسمها سلامة البربرية وُلد عبدالله في الحميمة سنة ١٠١هـ - جنوب الأردن - انتقل مع أخيه الخليفة الأول أبو العباس السفاح من الحميمة إلى الكوفة، وكان ساعد أخيه الأيمن في تدبير أمور الخلافة، وفي السنة التي توفي فيها الخليفة السفاح كان «أبو جعفر» أميراً لموسم الحج، أخذ له البيعة في الأنبار العاصمة ابن أخيه عيسى بن موسى أمير الكوفة والذي كتب إليه يُعلمه بوفاة أخيه السفاح وأخذه البيعة له في اليوم نفسه الذي توفي فيه أخوه السفاح ٨ يونيو ٧٥٤هـ وكانت مدة خلافته حوالي ٢٢ سنة قمرية، وكان يعاصره في الأندلس الأمير عبدالرحمن الداخل وفي القسطنطينية الإمبراطور قسطنطين الخامس وفي فرنسا شارلمان.

كان مثلاً لبني العباس هيبة وشجاعة وحزماً، ورأياً، وجبروتاً، كان جمّاعاً للمال، تاركاً للهو واللعب، اتصف بكمال ورجاحة العقل، كان ذو فقه وأدب، جيد

المشاركة في العلم، فصيحاً وبليغاً ومفوهاً خليقاً بالأمارة ومن شدة حرصه على المال ومحاسبته لعماله لُقّب «أبو الدوانيق»، ومع ذلك كان جواداً بالمال في المهالك.

كان يعتبر نفسه من الملوك حيث قال: الملوك أربعة: معاوية وعبدالملك وهشام ابن عبدالملك وأنا (كما ورد في السير).

العقبات التي اعترضته وتمكن التخلص منها

اعترضته ثلاث عقبات، تمكن من التخلص منها، فاعتبره لذلك المؤرخون بالمؤسس الحقيقي للدولة العباسية. والعقبات التي اعترضته وتخلص منها فاستقرت له الأمور هي:

أولا: التخلص من عمه عبدالله بن علي:

عبدالله بن علي هو قائد جيش الخلافة الذي هزم جيش الخلافة الأموية في معركة الزاب، أراد عبدالله استخدام هذا الجيش في تحقيق أطماعه في تسلم الخلافة مدعياً أن الخليفة أبو العباس السفاح عيّنه ولياً لعهده عند تكليفه له بمقاتلة آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد.

بعد أن بلغ عبدالله حرّان اتجه إلى نصيبين، واتخذها معسكراً له وحصّنها، بينما طلب من قائده المحنك حميد بن قحطبة التوجه إلى حلب ومعه كتاب إلى حاكمها زفر بن عاصم، وفي الكتاب: إذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه، في الطريق فك حميد الكتاب وقرأ ما فيه وأخبر خاصته بما يحويه فغيّر طريقه إلى العراق فخسر بذلك عبدالله بن علي قائداً محنكاً مثل حميد.

يروي الطبري في تاريخه أن أبا مسلم الخراساني قال للخليفة المنصور الذي أبدى مخاوفه من عمه عبدالله بن علي «أنا أكفيك أمره إن شاء الله، إن عامة جنده من أهل خراسان وهم لا يعصونني» أرسل أبو مسلم للقائد عبدالله بن علي خطاباً يُخبره

بأن الخليفة قد ولاّه على الشام، لكن هذه الحيلة لم تنطل على عبدالله بن علي المتحصن في نصيبين شمال العراق.

ألّح جند الشام في جيش عبدالله بن علي عليه بالتوجه إلى الشام لخوفهم على أهليهم في الشام من أبي مسلم وجنوده الخراسانية فيترك نصيبين، حتى استجاب لهم، وما كان عبدالله يترك نصيبين حتى تحول أبو مسلم إلى المدينة واستولى عليها لأهميتها الحربية.

وخوفاً من انضمام الخراسانيين في جيش عبدالله بن علي إلى جيش أبي مسلم، أمر عبدالله بن علي بقتلهم جميعاً ونتج عن ذلك ضعف جيش عبدالله بن علي.

دامت الحرب بين أبي مسلم وعبدالله بن علي حوالي ستة أشهر، وكانت سجالاً، أما الموقعة الفاصلة بينهما فكانت يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٧هـ، استعمل أبو مسلم دهاءه الحربي في ترتيب جيشه لخلخلة جيش عبدالله بن علي فهاجم ميسرة أهل الشام وتمكن من تحطيمها، فكانت الهزيمة لجيش عبدالله بن علي الذي قال لأحد قواده ما ترى؟ فقال: أرى تصبر وتقاتل حتى تموت، فإن الفرار قبيح بمثلك، لكن هذا الرأي لم يعجبه فهرب عبدالله بن علي إلى أخيه سليمان بن علي والي البصرة سنة ١٣٧هـ، واختفى عنده متوارياً عن الأنظار، فلما علم المنصور بذلك، أرسل إلى سليمان بن علي يأمره بإحضاره، فسلّمه أخاه سليمان سنة ١٣٩هـ بعد أخذه الأمان من الخليفة، لكن المنصور أمر بحبسه ومن معه، كما أمر بقتل بعضهم واستمر عبدالله بن علي في سجنه حتى مات سنة ١٤٧هـ، وهكذا تخلص أبو جعفر المنصور من العقبة الأولى من عمه عبدالله المنافس له في الخلافة.

ثانيا: التخلص من أبي مسلم الخراساني:

بدأ الخليفة أبو جعفر المنصور يخشى قوة وجبروت أبو مسلم الخراساني بعد انتصاره على عبدالله بن علي وازدادت خشية المنصور من شوكة وسلطان أبي مسلم بعد أن وصله أن أبا مسلم لا يحترم كتب الخليفة، بل ويستهزأ بها إذا وصلت إليه.

قال المؤرخ الطبري «كان يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرأه ثم يلوي شدقه على سبيل السخرية منه».

أراد المنصور أن يُشعر أبا مسلم بأنه أحد عُمّاله فقط، فأرسل إليه رسولاً ليحصي عليه الغنائم التي غنمها في الحرب مع عم المنصور عبدالله بن علي، مما أغضب «أبو مسلم» فقال: «أؤتمن على الأرواح ولا أؤتمن على الأموال؟» وأراد قتل رسول الخليفة لولا تدخل أصحابه. بعد هذا الموقف خرج أبو مسلم من الجزيرة غاضباً وأراد التوجه إلى خراسان دون أن يمر على الخليفة ببغداد للاستئذان بالعودة كما جرت العادة، وفي نيته العصيان.

حاول المنصور صرفه عن الذهاب إلى خراسان، وكتب إليه أنه ولاّه على الشام ومصر فهما خيرٌ له من خراسان وطلب منه أن يقيم في الشام ويرسل لمصر من يريد ليكون قريباً من أمير المؤمنين، لما وصل كتاب الخليفة لأبي مسلم غضب وقال: يوليني الشام ومصر وخراسان لي، وصمم على المضي في الذهاب إلى خراسان.

رأى المنصور أنه لم يبقَ أمامه مع أبي مسلم إلا استعمال الدهاء وسياسة اللين، فأخذ يؤمنه ويستميله ويسترضيه، كما أرسل إليه من يخوفه من مغبة معصية الإمام والرجوع دون إذنه. استمر المنصور في استعمال سياسة الترغيب والتهديد حتى انخدع أبو مسلم وقرر الذهاب إلى بغداد للقاء الخليفة المنصور في مدينة المدائن فأحسن المنصور استقباله في أول الأمر، ثم واجهه بالتهم المنسوبة إليه، ومنها محاولة الوصول إلى الخلافة عن طريق ادعائه النسب العباسي، فقال له المنصور: «ألست الكاتب إليّ تبدأ بنفسك، والكاتب إليّ تخطب أمينة بنت علي وتزعم أنك ابن سليط ابن عبدالله بن عباس؟ لقد ارتقيت - لا أم لك - مرتقىً صعباً...».

ردّ أبو مسلم قائلاً: ليس هذا يقال لي بعد بلائي وما كان مني، فقال له المنصور: «والله لو كانت أمة مكانك لأجرت ناحيتها، إنما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا».

بعد أن أكمل المنصور من مواجهة خصمه بالتهم المنسوبة إليه، طلب من أبي مسلم أن يسلمه نصل عمه عبدالله ووضعه تحت فراشه خشية أن يفتك به أبو مسلم، إذا أحس بالشر، وسأله أخيراً عن سبب توجهه وقصده لخراسان رغماً عن الخليفة ودون استئذانه، ثم صفق المنصور بيديه، فخرج الحرس الأربعة من وراء الستور وقتلوا أبو مسلم في مجلسه سنة ١٣٧هـ وبمقتله تخلص أبو جعفر المنصور من أكبر خطر مباشر يهدد دولة الخلافة، وقدم الجوائز والهبات لمن جاء مع أبي مسلم، كما أرسل بجوائز سنية لقادة جيش أبي مسلم، كما أرضى جند أبي مسلم.

احتج على قتل أبي مسلم بهذه الطريقة ابن أخ المنصور عيسى بن موسى فقال له المنصور: «والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه، وهل كان لكم مُلك في حياته»[١].

اضطربت خراسان كلها لمقتل أبي مسلم وكان من نتائج مقتله ظهور فرق دينية غريبة عن الإسلام أظهر أصحابها الإسلام وأبطنوا المجوسية، ومن هذه الحركات فرقة المسلمية، نسبةً لأبي مسلم بزعامة سنباذ في نيسابور سنة ١٣٧هـ، والذي نادى بإمامة أبي مسلم وقال إنه لم يمت، أرسل إليه المنصور جيشاً كبيراً تمكن من هزيمته وقتله في نواحي طبرستان.

ثالثا: التغلب على ثورة العلويين:

المتشيعون لآل البيت كانوا فرقاً ثلاث:

١ - **الفرقة الأولى:** أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة ابنة محمد ﷺ وينتسبون إلى جعفر بن محمد المعروف بجعفر الصادق.

(١) الطبري، ج٦، ص١٣٨.

٢- الفرقة الثانية: ترى أن إمام المسلمين من بني فاطمة وهو معين بالوصف لا بالاسم وهم إمامية زيدية، ويشترطون في الإمام: العلم والجشاعة والورع وهم نصراء زيد بن علي وابنه يحيى.

٣- الفرقة الثالثة: ترى إمامية أهل البيت من غير تقييد بني فاطمة وهم الذين نصروا بني العباس.

الفرقتين الأولى والثانية انتشرت في كثير من الأقاليم العربية والأعجمية.

أما الدعوة العباسية كانت قبل ظهور أمرها مبهمة هدفها الرضا من أهل البيت، فلما وصلت السلطة العباسية للخلافة، أوصى إمام الإمامية جعفر الصادق الرضا بما تم ولم يحرك ساكناً، وأوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة، أما الزيديون فزعموا أن بني هاشم انتخبوا للخلافة محمد بن عبدالله بن الحسن بن زيد بن الحسن ابن علي بن أبي طالب، وبايعوه بها في أواخر عهد بني أمية في خلافة هشام بن عبدالملك، وقد بايعه أبو جعفر المنصور، فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايعوا لأبي العباس ولا لأبي جعفر، لما حجّ أبو جعفر في عهد أخيه السفاح حضر إليه في المدينة بنو هاشم جميعاً عدا محمد بن عبدالله وأخوه إبراهيم، فسأل عنهما فقال له أمير المدينة زياد بن عبدالله الحارثي، أنا آتيك بهما، لكنه لم يتمكن.

كان محمد بن عبدالله المعروف بالنفس الزكية، يرى أنه أحق بالخلافة من العباسيين استناداً إلى مبايعة الهاشميين له بالخلافة أواخر الدولة الأموية.

اهتم أبو جعفر المنصور في البحث عن محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم فعندما حج سنة ١٤٤هـ قبض على آل الحسن جميعاً وأرسلهم للعراق وسجنهم في الكوفة بسبب تسترهم على المكان الذي يختفي فيه محمد النفس الزكية.

استخدم أبو جعفر بأساليبه في الدهاء في التعجيل في ظهور محمد عن طريق دسّه العيون الذين تظاهروا بأنهم أتباع محمد النفس الزكية والإيهام بأن دعوته قد

عمّت الآفاق، كما طلب المنصور من قادته أن يكتبوا إلى محمد لإخباره بأنهم معه ويدعونه للظهور فانخدع محمد النفس الزكية بهذه الحيلة.

في أواخر رجب سنة ١٤٥هـ خرج محمد النفس الزكية من المكان الذي يختفي فيه وأعلن عن ثورته في المدينة المنورة واتفق مع أخيه إبراهيم أن يثور في الوقت نفسه في مدينة البصرة ليقع المنصور بين نارين، لكن مرض إبراهيم بالجدري أخّر ثورته مدة شهرين مما أفسح المجال أمام المنصور للقضاء على الأخوين محمداً وإبراهيم واحداً بعد الآخر.

هذا واتخذت الحرب بينهما في البداية الصفة الكلامية واستخدم أساليب الدعاية المختلفة، وشرح كل فريق وجهة نظره وحقّه في الخلافة والتفاخر بنسبه وحسبه، هذا وقد دوّن الطبري في كتابه نصوص هذه المراسلات بتفاصيلها.

دعا الخليفة المنصور محمد النفس الزكية لحل الخلاف بينهما حلاً سلمياً وأعطاه الأمان على نفسه وولده وإخوته ومن بايعه وأن ينزل حيث شاء في البلاد وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال، لكن محمد النفس الزكية ردّ على المنصور بأمان مثله، إن هو - أي المنصور - دخل في بيعته لأنه أحق منه بالخلافة متهماً المنصور بأنه رجلٌ لا أمان له حيث سبق أن غدر بعمه عبدالله بن علي وبأبي مسلم الخراساني وابن هبيرة.

أرسل المنصور بعد فشل المفاوضات مع محمد النفس الزكية بابن أخيه وولي عهده عيسى بن موسى على رأس جيش كبير إلى المدينة وكان وضع محمد النفس الزكية سيئاً من الناحية الاستراتيجية لأن الحجاز قطر قاحل وفقير في غلاته ورجاله وسلاحه حيث قطع المنصور عنهم الأقوات والمؤن الواردة إليهم من الشام ومصر كما عمل المنصور على طمر القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر لمنع وصول أي شيء إلى الحجاز.

لما وصل الجيش العباسي إلى المدينة، تخلّى عن محمد النفس الزكية الكثير من أتباعه مما أضعفه وأدى إلى هزيمته وقتله ثم أرسل عيسى بن موسى برأسه إلى

المنصور في منتصف رمضان سنة ١٤٥هـ، وبأمر من الخليفة المنصور تحرك عيسى ابن موسى من المدينة إلى جنوب العراق لقتال إبراهيم شقيق محمد النفس الزكية، والتقى الفريقان عند قرية باخمري قرب الكوفة، هُزم الجيش العلوي وقُتل إبراهيم في أواخر ذي القعدة سنة ١٤٥هـ وسمي إبراهيم بشهيد باخمري.

وبسبب إفتاء الإمام مالك بن أنس بمبايعة محمد النفس الزكية لحق به الأذى الكثير من العباسيين، إذ ضربوه بالسياط لأنه أفتى بأنه ليس على مُكره بيعة ولكره مالك للعباسيين جعل الأمويين في الأندلس يعتنقون المذهب المالكي ويجعلونه المذهب الرسمي لدولتهم، هذا وقد فرّ إلى المغرب الأقصى إدريس بن عبدالله شقيق محمد النفس الزكية وأسس هناك دولة الأدارسة.

الخلاصة:

وهكذا تمكن الخليفة المنصور مع نهاية سنة ١٤٥هـ القضاء على جميع الثورات وأصبح الخليفة دون منازع ولقب نفسه بالخليفة المنصور.

بناء المنصور لمدينة بغداد

لما كان العصر العباسي الأول فارسياً في تقاليده، ونظمه الإدارية، وحياته الاجتماعية، فلم تعد العواصم السابقة كالمدينة ودمشق تناسب هذه الدولة المتأثرة بالاتجاه الفارسي واعتماد العباسيين على الفرس وليس على العرب في قيام دولتهم.

هذا وإن مدينة الكوفة لا تتناسب لتكون عاصمة للعباسيين، لأنه يغلب عليه التشيع لعلي بن أبي طالب وأبنائه، والعباسيون لا يستطيعون الإقامة في بلد لا يميل أهله إليهم، لذا انتقل الخليفة العباسي الأول «السفاح» إلى هاشمية الكوفة ثم انتقل إلى هاشمية الأنبار.

لما استلم أبو جعفر المنصور للخلافة، أقام أول الأمر في هاشمية الكوفة ثم تركها إلى المدائن بعد حادثة الراوندية القائلة بتناسخ الأرواح، ثم عزم المنصور على

بناء مدينة جديدة كحاضرة لبني العباس الكبرى ومظهر فخرهم واختار أن يكون مكانها بعيداً عن الكوفة مركز التشيع، فخرج يبحث عن مسكن لنفسه وجنده وليبتني فيه مدينة جديدة حتى وصل به المقام إلى موضع بغداد وقال هذا موضع معسكر صالح على نهريْ دجلة والفرات، ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهي مدورة الشكل، وجعل لها سورين أحدهما داخلي وهو سور المدينة وسمكه في السماء ٣٥ ذراعاً وعليه مجموعة من الأبراج سمك كل منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور شرف. عرض السور من أسفله نحو ٢٠ ذراعاً في السور الأول وهو سور الفصيل والقسم الثاني هو باب المدينة وعليه السور الكبير ويدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص طوله ٢٠ ذراعاً وعرضه ١٢ ذراعاً وعلى كل أزج من آزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقي إليه منها، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمها ٥٠ ذراعاً مزخرفة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره (انظر الخريطة التي تمثل مدينة بغداد).

هذا وابتنى الخليفة قصره المسمى «الخلد» على نهر دجلة وراء باب خراسان، ومدّ إليها الماء في قنوات لا ينقطع ماؤها، وجرّ لأهل الكرخ أربعة أنهر، وبنى لأهل الأسواق مسجداً وفي سنة ١٥١هـ بنى الخليفة المنصور الرصافة لابنه المهدي، هذا وبنى المنصور قصره والجامع في وسط المدينة، وكان في صدر قصره إيوان طوله ٣٠ ذراعاً وعرضه ٢٠ ذراعاً وفي صدر الإيوان مجلس ٢٠ ذراعاً في ٢٠ وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوق القبة الخضراء والسمك من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ٨٠ ذراعاً وعلى رأس القبة تمثال لفرس عليه فارس بيده رمح (عنوان القوة والعظمة).

ذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان أن المنصور أنفق على بناء العاصمة بغداد ثمانية عشر ألف ألف دينار، وقيل إن المبلغ المنفق أقل من ذلك.

صفات بغداد:

١ - تقع على حدود الإقليمين العربي والفارسي على مقربة من البيئة الفارسية التي يعتز بها العباسيون.

٢ - لها أهمية اقتصادية كمركز تجاري بسبب وقوعها على الطرق من الممرات البرية والبحرية المتصلة بمختلف أنحاء دولة الخلافة.

٣- تمتاز بغداد بخصوبة أرضها لوقوعها بين نهري دجلة والفرات.

٤ - تمتاز بغداد من الناحية الحربية بحصانة موقعها، فقد قيل للمنصور عن أهميتها «أنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قُطعت الجسور وخُربت القناطر لم يصل إليك عدوك» ورد هذا القول في كتاب البلدان لليعقوبي.

٥ - كان يقام على أرضها أسواق موسمية، يجتمع فيها التجار واسمها فارسي يتكون من مقطعين: (بغ) ومعناها الله و(داد) ومعناها عطية أي عطية الله.

٦ - هي مدينة مدورة، فشكلها دائري، وسميت بمدينة السلام أو دار السلام تشبيهاً لها بالجنة، كما سميت أيضاً بالزوراء لأن مداخلها مزورة أو منحنية على شكل دهاليز أو منعطفات ملتوية لأغراض دفاعية[1]. وبناؤها ظاهرة معمارية جديدة في الفن المعماري الإسلامي، يُعرّض كل أجزاء المدينة للشمس والهواء.

٧- تقع بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة وهي مدرجة الارتفاع نحو الداخل وتحتوي على: خندق خارجي عرضه ستة أمتار تجري فيه المياه، وسور خارجي من الطوب كبير الحجم، طول الطوبة حوالي ذراع ووزنها ٢٠٠ رطلاً وبعد السور الخارجي فراغ كبير بعرض ٣١ متراً به المزارع والأشجار (الفصيل الأول) وبعد الفارغ المزروع يوجد سور آخر داخلي يمتاز عن السور الأول بالسمك

(١) ناجي معروف، تخطيط بغداد، ص١١، عن معجم البلدان للحموي.

والارتفاع وأبراج الحراسة والمراقبة، ارتفاعه حوالي ٩٠ ذراعاً وقاعدته ١١٥ أقدام ويقل سمكه بالتدريج إلى أن يصبح في أعلاه ٣٧ قدماً وبعد هذا السور يوجد فراغ آخر به السجن ومساكن الحاشية والقادة (الفصيل الثاني) وبعد هذا الفراغ يوجد سور ثالث يحيط بالميدان والميدان في الوسط ويوجد في قلب الميدان قصر الخليفة «قصر الذهب» (انظر الخريطة) وفوق القصر قبة خضراء عالية تُرى من أطراف بغداد ويوجد في أعلى القبة - كما سبق أن ذكرنا - فارس بيده رمح وبُني بجوار القصر المسجد الجامع، كما بُني على جوانب الميدان قصور الأمراء ودواوين الحكومة.

يوجد في كل سور من أسوار المدينة الثلاث أربعة أبواب حديدية مزدوجة وبينها دهليز ورحبة أما الأبواب الخارجية فمزورة كي تكون المداخل على المدينة منحنية، يسهل الدفاع عنها ولا يُغلق الباب أو يُفتح إلا بجماعة من الرجال، وتؤدي هذه الأبواب إلى الجهات الرئيسية الأربعة في العالم الإسلامي وهي:

أ- باب خراسان في الشمال الشرقي وبنى المنصور خارجه قصر الخُلد على نهر دجلة.

ب- باب الشام: في الشمال الغربي.

ج- باب البصرة: في الجنوب الشرقي.

د- باب الكوفة في الجنوبي الغربي[1].

هذا ولم يكتف المنصور ببناء بغداد سنة ١٤٥هـ، بل بنى مدينة الرصافة سنة ١٥١هـ وتسمى أيضاً بغداد الشرقية على الضفة الشرقية لنهر دجلة وربط بينهما بجسور ثلاثة على نهر دجلة وبنيت أصلاً كمعسكر للجيش الخراساني ثم نمت وازدهرت حتى فاقت بغداد حُسناً واتساعاً قال الشاعر:

---

(١) نقلاً عن كتاب البلدان لليعقوبي، ص٢٣٨-٢٣٩.

عيـون المهـا بـين الرصـافة والجـسر جلبْنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

هذا وامتد العمران بين بغداد الغربية والشرقية واختفى الخندق المحيط بها وامتدتْ على جانبي نهر دجلة شرقاً وغرباً، وتحولت من مدينة خاصة للخليفة وحاشيته إلى مدينة عامة لسكن الرعية.

سياسة أبو جعفر المنصور الخارجية

أولا: علاقته بالدولة البيزنطية:

استغل إمبراطور بيزنطة قسطنطين الخامس انشغال أمير المؤمنين المنصور في القضاء على مشاكله الداخلية والثورات الداخلية التي سبق الحديث عنها، فأغار على ثغور الدولة الإسلامية في أعالي الفرات شرقاً إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً؛ فدمّر الحصون وعاث في الأرض فساداً وتخريباً.

لذا كان أول أعمال المنصور بعد عودة الهدوء والاستقرار لربوع الدولة العباسية، فأعاد تحصين الثغور وترتيب وسائل الدفاع عنها وأشهر هذه الثغور:

أ- **منطقة الثغور الجزرية**: هدفها الدفاع عن الجزيرة وشمال العراق، وأهم حصونها: ملطية المصيصة، مرعش.

ب- **منطقة الثغور الشامية**: تقع غرب الثغور الجزرية، وهدف هذه الثغور الدفاع عن الشام وأهم حصونها: طرسوس، أطنه. قاد هذه الحملات في هذه المنطقة عم الخليفة صالح بن علي ومعه أختاه أم عيسى ولبابة.

ومن خطط المنصور في هذه المناطق أن حشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين ومنحهم الإقطاعات والمزارع وبنى لهم المساكن والاصطبلات، وأنفق عليهم بسعة، ونظّم عملية الإغارة على الأراضي البيزنطية حسب حملات الصوافي والشواتي، هذا وتمتاز حملات الثغور الشامية أنها برية وبحرية في آنٍ واحد وكان

لأساطيل الشام دور هام في هذه الحملات، مما وضع حداً لأطماع البيزنطيين في هذه المناطق وإجبارهم أيضاً على دفع الجزية للمسلمين.

ثانيا: سياسته نحو المغرب والأندلس:

حاول المنصور ضم المغرب والأندلس لدولة الخلافة في بغداد، كما كان الوضع أيام الدولة الأموية في الشام.

بانتهاء الحكم الأموي في معركة الزاب سنة ١٣٢هـ، سيطر على بلاد المغرب والأندلس دويلات وخلافات إسلامية مستقلة ومن أشهرها في خلافة المنصور دولتان للخوارج في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط هما:

أ- دولة بني مدرار الصفرية في منطقة سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ ومؤسسها سوداني أسود يدعى عيسى بن يزيد المكناسي الصفري.

ب- الدولة الرستمية الإباضية في الغرب الأوسط سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م ومؤسسها رجل فارسي الأصل اسمه: عبدالرحمن بن رستم وعاصمته تاهرت في ولاية وهران غرب الجزائر، هذا وانتشر مذهب الخوارج في المغرب من أيام الدولة الأموية في المشرق حيث لقي نجاحاً كبيراً بين البربر، لأنه يقوم على مبدأ عدم حصر الخلافة في بيت أو جنس معين، بل تُترك لاختيار الأمة، وهذا يناسب الوضع الاجتماعي والسياسي للبربر، فاتخذوه عنواناً للمعارضة ضد أي سيادة تفرض عليهم.

لم يقف المنصور أمام هذه الحركات مكتوف الأيدي، فأرسل عليهم حملات برية وبحرية لإعادتهم للخضوع للدولة العباسية فتمكن واليه على مصر محمد بن الأشعث من دخول القيروان والسيطرة على إفريقيا (المغرب الأدنى) ولم تتجاوز سيطرة المنصور المغرب الأدنى، وظل الغرب الأوسط يخضع للدولة الرستمية والمغرب الأقصى للمداريين.

أما بالنسبة للأندلس سيطر عليها الفار من العباسيين عبدالرحمن بن معاوية المعروف بالداخل والذي استقل في الأندلس بمساعدة القبائل اليمنية حيث انتصر على المضرية ثم انضم إليهم مما أغضب اليمنيين.

اتفق المنصور مع زعيم عربي من سكان مدينة باجة في غرب الأندلس اسمه العلاء بن مغيث الجذامي ووعده بإمارة الأندلس إن انتصر على عبدالرحمن الداخل.

أخذ العلاء يدعو الناس سراً لطاعة الخليفة المنصور وانضم إليه العناصر الساخطة على عبدالرحمن الداخل وخاصة القبائل اليمنية.

لما اشتد عود العلاء قام بثورته في باجة سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٤م فتوجه عبدالرحمن الداخل لمحاربته، لكن العلاء انتصر عليه وحاصره في مدينة قرمونة قرب إشبيلية، لكن عبدالرحمن لم ييأس وجمع قواته وصاح فيهم قائلاً: «أمامنا الآن طريقان، إما النصر أو الموت فاخرجوا معي خروج من لا يُحدث نفسه بالرجوع» وبعدها رمى بجفن سيفه في النار، مما أثار الحمية في نفوس جنوده وألقوا بجفان سيوفهم في النار ثم اندفعوا خلف قائدهم البطل الذي اخترق الحصار بهجوم جريء خاطف فشتت شمل جيش العلاء وقتل الكثير منهم ومن بينهم القائد العلاء حيث قطع رأسه وحشاه بالملح والكافور ثم وضعه في قفة مع السجل واللواء العباسي وأرسل بها مع إحدى قوافل الحج الأندلسية لوضعه أمام سرادق المنصور الذي حجّ في هذه السنة، فلما رأى المنصور رأس العلاء انزعج وقال «الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان - أي عبدالرحمن - بحراً» وأطلق عليه لقب صقر قريش.

صفات المنصور وأخلاقه

١ - يمتاز المنصور بطول القامة، أسمر اللون، نحيفاً وهو من أعظم آل العباس شدة وبأساً ويقظة وثباتاً، يمتاز سلوكياً بالجد والصرامة والبُعد عن اللهو

والترف، فقد كسر طنبوراً لخادمه وأخرجه من القصر بعد سماعه ضرب الطنبور للجواري وهنّ يضحكن.

٢- مباشرة الخليفة المنصور العمل بنفسه، فيدقق في الأمور المالية والاقتصاد في النفقات، لذلك وصفوه بالبخل ولقبوه «أبو الدوانيق» وترك خزائنه مليئة بالأموال لابنه من بعده المهدي مما جعل مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة، وكان يراقب أولاده حتى لا يميلوا إلى الإسراف فكتب إلى ابنه المهدي يلومه عندما دفع لأحد الشعراء مبلغ عشرين ألف درهم.

٣- كان عالي الهمة شديداً على المريب، كان فصيحاً في كلامه، وكانت سياسته الاقتصادية حكيمة، مكّنته من الإنفاق على مرافق الدولة الهامة مثل الحروب وبناء العاصمة بغداد، وقال لابنه المهدي: «إنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً».

٤- كان يقضي صدر نهاره في الأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور، وإذا صلّى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف، فإذا مضى ثلث الليل نام إلى فراشه وانصرف سمّاره فإذا مضى الثلث الثاني، قام من فراشه وتوضأ وذهب لمحرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

٥- قام في وجه معانديه ومخالفيه الكثر فتمكن من قهرهم جميعاً ثم وطّد دعائم المُلك، لكن يؤخذ عليه غدره مرات ثلاث لمن أعطاهم الأمان ثم قتلهم وهم: «ابن هبيرة، عمه عبدالله بن علي، قائده أبو مسلم الخراساني».

٦- يعتبر أول من عُني من الخلفاء بالعلوم وكان عرافاً بالفقه والأدب والفلك ومحباً للعلماء وفي عهده شرع المسلمون في طلب علوم اليونان والفرس فاهتم بالكتب السريانية والهندية وفي عهده تم صنع أول اسطرلاب في الإسلام وصنعه له العالِم محمد الفزاري المتوفى سنة ١٨٠هـ.

وفي عهده تم له ترجمة كتاب كليلة ودمنة وكتاب الأحول أو الأركان لإقليدس وفي أيامه أنشئت أول صيدلية عامة، وألحق بكل مستشفى صيدلية خاصة.

وفي عهده أمر باستخدام الورق العادي بدل ورق البردي.

٧- اتصف بالفطنة والدقة ومخافته أن يكون قد ظلم أحداً، قال لابنه المهدي لما أدركته الوفاة: «يا بني إن في بيت المال مالاً، أخذه العمال من أصحاب الجنايات على وجه المصادرة تأديباً لهم وزجراً وردعاً وقد أفردتها وكتبت على كل منها اسم صاحبها، فربما كان منهم من يوجب رده إليهم».

٨- ومن فرط شجاعته، كان مخاطراً، حتى قيل إنه أخطأ في ثلاث: قتل أبي مسلم وهو في جماعة قليلة وحين خرج من الشام ويوم الراوندية من أهل خراسان القائلين أمامه بتناسخ الأرواح فخرج إليهم ومعه معن بن زائدة فقاتلهم حتى أُطفئت الفتنة.

٩- وسّع المسجد الحرام مما يلي دار الندوة، وعندما كان يذهب للحج كان يخرج للطواف في آخر الليل، يطوف ويصلي ولا يعلم به أحد، بعيداً عن مظاهر القوة والصولجان، سمع في إحدى الليالي في وقت السحر وأثناء طوافه من يقول: «اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم، فأسرع ﷺ نحو مصدر الصوت فدعاه وسأله عن الذي سمعه فقال له: إنْ أمنْتني على نفسي أنبئك، فأمّنه وأدناه وسأله فقال: يا أمير المؤمنين ألا الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله، وما ظهر من البغي والفساد في الأرض، إنما هو أنت. قال: ويحك كيف يدخلني الطمع وكل ما أريده في قبضتي؟ قال: وهل دخل على أحد من الطمع ما دخل عليك يا أمير المؤمنين. إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد، وصحبة معهم السلاح،

واتخذت وزراء وأعواناً فجرة إن نسيت لم يذكروك، وإن أحسنت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والرجال والسلاح، وأمرت أن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف والجائع والعاري، وما أحد إلا وله من الأموال حق... وائتمروا على كتم أخبار الناس عنك إلا ما أرادوا، ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه وصانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على الظلم، ثم فعل ذوو الثروة والقوة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم، وامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، وإن جاء متكلم حيل بينه للدخول إليك».

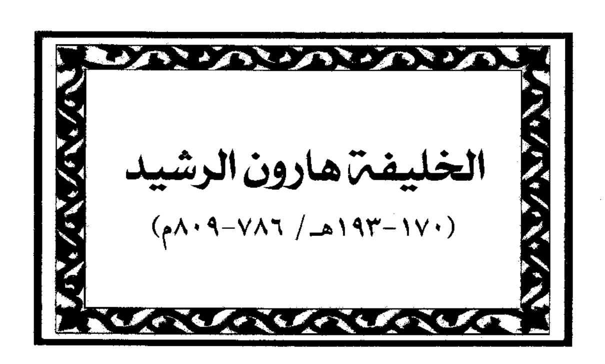
١٠- عاصر المنصور الكثير من الأئمة الأجلاء وعلى رأسهم الإمام «أبو حنيفة» والإمام مالك بن أنس.

١١- كان لطيفاً في تعامله مع الرعية ويظهر ذلك من لقاء المنصور بأبي دلامة الشاعر والذي دخل على المنصور معزياً بوفاة أخيه السفاح فأنشد قائلاً:

ويلي عليك وويل أهلي كلّهم ... ويلاً وعولاً في الحياة طويلاً
مات الندى إذ متّ يا ابن محمد ... فجعلته لك في الثراء عديلاً
إني سألت الناس بعدك كلهّم ... فوجدت أسمح من سألت بخيلاً

أبكى قوله الناس لكنه أغضب المنصور وقال له: لو سمعتك تنشد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانك فردّ أبو دلامة قائلاً: «يا أمير المؤمنين إن أبا العباس كان لي مكرماً وهو الذي جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوه يوسف إليه فقل كما قال يوسف لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢]» فسرّى بهذا القول عن المنصور وقال لأبي دلامة «قد أقلناك يا أبي دلامة فسلْ حاجتك» فقال: يا أمير المؤمنين، قد كان أبو العباس قد أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض ولم أقبضها. فقال المنصور: ومن يعرف هذا؟ فقال: هؤلاء، وأشار إلى جماعة ممن

حضر، فقال المنصور لأبي أيوب الخازن وهو مغيظ: يا سليمان ادفعها إليه وسيّره إلى هذا الطاغية (يعني عمه عبدالله بن علي) فوافق أبو دلامة لكنه قال للخليفة: أُعيذك بالله أن أخرج معهم فوالله إني لمشئوم، شهدت والله تسعة عشرة عسكراً كلها هُزمت وكنتُ سببها فإن أردت العشرين فافعل، فضحك المنصور كثيراً وأمره ألا يذهب ويتخلف في الكوفة وهذه من نوادر أبي دلامة وخفة ظله.



الخليفة هارون الرشيد

(١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م)

تمهيد:

من أشهر خلفاء بني العباس وأكثرهم ذكراً في المصادر الأجنبية كالحوليات الألمانية في عهد شارلمان وكذلك في الحوليات الهندية والصينية.

أما المصادر العربية، فقد توسعت في الحديث عنه وعن أخباره، حتى امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص.

بعض الكتب المشبوهة تصوره بالخليفة المسرف في الترف والملذات، لكنه في الحقيقة كان بعيداً عن اللهو والعبث كثير الجد والتفكر ورعاً متديناً، أمضى معظم حياته بين الحج والغزو فكان يحج عاماً ويغزو عاماً، وهو أول خليفة عباسي يقود الغزوة بنفسه، كان سريع التأثر بالموعظة فتسيل عبراته ولا يتمالك نفسه من شدة الأثر فهو شديد الإيمان مباشراً ومحتسباً، يحب الجهاد في سبيل الله لنصرة دينه ورفع راية التوحيد عالياً.

الاسم والنسب:

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبدالله «المنصور» بن محمد «السفاح» ابن علي «السجاد» بن عبدالله «حبر الأمة» بن العباس بن عبدالمطلب، فهو من ولد

أولاد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما الذي دعا له النبي محمد ﷺ قائلاً: «اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل».

كنيته: «أبو جعفر» والده الخليفة المهدي وأمه بربرية أو مغربية تسمى «الخيزران» وكانت ذات شخصية قوية فلها نفوذ كبير في الدولة.

هذا وقد أشرف على تربيته أسرة البرامكة الفارسية الأصل وكان في حاشية والده المهدي جارية جميلة تسمى الخيزران، أعتقها المهدي ثم تزوجها فولدت له ابنه البكر موسى الملقب بالهادي ثم ولدت له في شتاء ١٤٨هـ/ ٧٦٥م ولده الثاني هارون الملقب بالرشيد وكان ذلك في الري أواخر ذي الحجة سنة ١٤٥هـ وسبقه بسبعة أيام مولد الفضل بن يحيى البرمكي، هذا وأرضعت زوجة يحيى البرمكي الرشيد الفضل، كما أرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد، وكان وقت ولادة الرشيد والده المهدي أميراً على الري وخراسان من قِبَل والده المنصور.

جمع الرشيد جميع دواعي اللذائذ الدنيوية والفوائد الأخروية وقد اجتمع له في خلافته ما لم يجتمع لغيره فكان البرامكة وزراؤه وأبو يوسف قاضيه ومروان بن أبي حفصة شاعره والعباس بن محمد عم والده ندياً له وكان حاجبه الفضل البرمكي وهو من أنبه الناس وأفطنهم وأعظمهم فهو كما قيل:

إنّ المكارم والمعروف أودية ... أحلّه الله منها حيث تجتمع

يعتبر هارون الرشيد أمير الخلفاء، وأجلّ ملوك الدنيا، كثير الغزو والحج، يغزو سنة ويحج سنة وفي السنة التي يخرج فيه الرشيد للحج يحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وفي السنة التي يخرج فيها للغزو يرسل ثلاثمائة رجل للحج بالنفقة السابقة والكسوة الطاهرة، قال الشاعر:

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... ففي الحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدو على طمْرٍ ... وفي البلد الحرام فوق كور

من مزايا والدة الرشيد الخيزران:

١- تحب السيطرة على من حولها.

٢- كانت محبة لجمع المال.

٣- كانت سخية اليد، كثيرة البذل والعطاء.

٤- طاعة ومحبة ابنها الرشيد لها وتنفيذه لمطالبها.

٥- التدخل في شؤون الخلافة مدة حياتها وقد وقفت لجانب ابنها الرشيد حين حاول أخوه الهادي خلعه من ولاية العهد.

٦- كانت فقهية حازمة أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي(١).

٧- كانت الخيزران أديبة وشاعرة.

توفيت الخيزران سنة ١٧٣هـ وخرج ابنها الرشيد في جنازتها آخذاً بقائمة التابوت وحافياً يخب في الطين حتى أتى مقابر قريش فغسل رجليه وصلّى عليها ولحدها وتصدق عنها بمال كثير.

أسند الرشيد بعد وفاة الخيزران الخاتم والنفقات للفضل بن الربيع.

رضاعة الرشيد وطفولته وشبابه

رضاعته:

كان يربط والدته الخيزران روابط قوية مع أسرة يحيى بن خالد البرمكي حيث تمكنت نساء يحيى من التسلل إلى قلب الخيزران والفوز بالقسط الأكبر من مجالسها ومسامرتها، لذا لما ولدت ابنها الرشيد دفعته إليهنّ لإرضاعه والعناية به والسهر على راحته والمساهمة في تربيته وكان ليحيى وقتها ثلاث زوجات: زينب وعتابة وفاطمة.

---

(١) الإعلام للزركلي، ج٢، ص٣٢٨.

كان الفضل بن يحيى البرمكي (ابن زينب) أخاً للرشيد في الرضاعة، كما أرضعته أيضاً ضرتها فاطمة بنت محمد مع ابنها جعفر البرمكي فأصبحت أماً له وأصبح جعفر أخاً للرشيد في الرضاعة هذا وقد أرضعت الخيزران أولاد يحيى كذلك.

وهكذا صار يحيى أباً للرشيد وزوجاته أمهات له.

الطفولة:

بدأ الرشيد طفولته بين صدر أمه الخيزران وثدي زوجات يحيى البرمكي أمهاته في الرضاعة، أخذ الرشيد يتنقل في حدائق قصر الزينبدي في بلاد الري التي كان والده المهدي أميراً عليها مع خراسان، وهكذا نشأ الرشيد وترعرع في منطقة الري مع إخوته في الرضاعة الفضل وجعفر أبناء يحيى البرمكي.

بعد وفاة جعفر الابن الأكبر للخليفة المنصور سنة ١٥٠هـ طلب المنصور من ابنه المهدي أمير الري العودة وأسرته إلى بغداد ووقتها بكت الخيزران صويحباتها من نساء آل برمك.

وصل المهدي بغداد سنة ١٥١هـ، نزل قي قصر الذهب، جاء الأمراء والقادة للسلام عليه وتهنئته بما حققه من انتصارات ولعودته سالماً، سُرّ المنصور من جمال ابن المهدي هارون وتوسم فيه الخير وأنه سيلي أمر الخلافة لاحقاً مما أثار عجب المهدي الذي قال: «أتقول ذلك يا أبتي عن أمرٍ بان لك؟ فقال: لا، ولكن أتوسم ذلك».

انتقل هارون بعد سنة من وصوله بغداد مع أسرته إلى القصر الجديد قرب الرصافة التي بناها المنصور لابنه المهدي في الجانب الشرقي من بغداد، وظل هارون ينعم بالهدوء والحب والعطف في رحاب الرصافة بين أقرانه من أطفال الأمراء والقادة والعلماء وخاصة بين أبناء عمه المتوفى جعفر بن المنصور ومن وقتها ارتاح الرشيد لابنة عمه الجميلة زبيدة بنت جعفر.

عيّن المهدي لابنه هارون مدرساً لم يفارقه حتى مات هو العالِم النحوي المشهور علي بن حمزة الأسدي المعروف بالكسائي الكوفي وهو إمام في: اللغة والنحو والقراءة والذي قام بتأديب الرشيد وتعليمه مع ابنه الأمين.

قال الجاحظ في حق الكسائي «كان أثيراً عند الخليفة، حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين»[١].

ومن الذين ساهموا أيضاً في تأديب الرشيد وتعليمه «المفضل الضبي» الذي كتب للمهدي أمثال العرب وحروبها، لكنه لم يلازم الرشيد في صغره ملازمة الكسائي له.

كان لأمثال هؤلاء العلماء الأفذاذ أثر واضح في بناء شخصية الرشيد، حفظ الرشيد الكثير من الشعر والأدب والحِكَم والخطب وأصبح على معرفة شاملة بأيام العرب وأمثالهم.

لما بلغ الرشيد العاشرة من عمره، فجُع بوفاة جده المنصور وانتقال الخلافة لوالده المهدي سنة ١٥٨هـ ليبدأ التغيير في مجرى حياة الرشيد وأخيه الهادي.

فترة شباب الرشيد:

لما اشتد عود الرشيد، بدأ يتدرب على: الفروسية، ركوب الخيل، الرمي والطعن والجري لدرجة لم يتمكن أحد من أبناء الأمراء مجاراته.

يقول المؤرخ السيوطي في تاريخ الخلفاء «إن الرشيد أول خليفة لعب الصوالجة والكرة ورمي النشاب في البرحاس».

ولكي يعد الخليفة المهدي ابنه الرشيد الإعداد الجسمي والنفسي جعله على رأس الجيش الكبير الذي أعده لغزو بلاد الروم وفيه كبار الأمراء والقادة من أمثال:

---

(١) الإعلام للزركلي، ص٢٨٣.

الحسن بن قحطية، الربيع بن الحاجب، موسى بن عيسى، عبدالله بن صالح ولم يتجاوز عمره آنذاك الخامسة عشرة سنة، ورغم تغامز القادة على صغر سنه إلا أنه أثبت براعة وحسن تدبير منحه الفخر والتقدير. وكان مع الرشيد في هذا الجيش خالد بن برمك وأمير نفقات العسكر يحيى بن خالد بن برمك.

توغل الرشيد في هذه الحملة في حدود الروم ونزل قلعة سمالوا وأقام فيها ٣٨ يوماً، نصب خلالها المناجيق واستمر في حصارها حتى أصاب أهلها العطش والجوع ثم فتحها وصالح أهلها وعاد بجيشه غانماً وسالماً ومعه من الأموال الكثيرة والعطايا الجزيلة واستقبلهم الخليفة المهدي وأهل بغداد بالأهازيج والترحاب، وكافأ المهدي ولده الرشيد بتوليته بلاد المغرب وأرمينيا.

وفي سنة ١٦٥هـ أعدّ المهدي جيشاً قوامه حوالي ٩٥ ألفاً لغزو بلاد الروم ومعه من النفقة ١٩٤ ألف ديناراً عدا الفضة والدراهم وأسند قيادة الجيش لابنه الرشيد وكان وقتها قد زفّ لابنة عمه زبيدة، ترك الرشيد عرسه وفارقها للحرب والطعان، وبأمثال هؤلاء تتحقق الانتصارات وتُبنى الشخصيات القيادية. وكان معه في هذا الجيش الربيع بن الحاجب وعلى العسكر يزيد بن مزيد، توغل الرشيد في بلاد الروم وفتح ماجدة وبارز قائده يزيد بن مزيد قائد الروم نقيطاً وأثخنه بالجراح، فلما رأى الرومان ما أصاب قائدهم ولوا مدبرين فوصل الرشيد إلى خليج البحر على القسطنطينية، مما اضطر ملكتهم أغسطه لمراسلة الرشيد طالبة الصلح وإعطاء الفدية للمسلمين، وافق الرشيد الملكة على شرط الوفاء بما أعطت وأن ترسل إليه أدلاّء للطريق وتم بينهما كتابة كتاب الهدنة لمدة ثلاث سنين ودفعت الجزية وسلّمت الأسرى، وقُتل من الروم في هذه الغزوة ٥٤ ألفاً وقال فيه الشاعر مروان بن أبي حفصة:

أطقت بقسطنطينية الروم مسنداً　　إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها　　بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وبعد هذا النصر المؤزر عاد الرشيد إلى بغداد في محرم ١٦٦هـ في أبهة عظيمة وحفاوة بالغة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره، وكانت مكافأة المهدي لابنه الرشيد بعد تحقيقه النصر على الرومان بأن أخذ له البيعة بالخلافة بعد أخيه موسى الهادي وأطلق على هارون لقب «الرشيد».

هذا وقد أدّى الرشيد فريضة الحج مع والده سنة ١٦٠هـ متحملاً مشاق السفر وفي هذه السنة جدد الرشيد مع والده كسوة الكعبة وتقديم المساعدات لأهل الحرمين.

ونلاحظ هنا أن الرشيد قد قضى زهرة شبابه بين جهاد العبادة ومشاق الحج وبين جهاد العدو والحرب والطعان ضد الروم.

وقد حقق النصر على الروم وإجبارهم على دفع الجزية وتوقيع هدنة لمدة ثلاث سنين ولما ينبت الشعر في وجهه، فمن يكون هذا شبابه جهاد ونضال، فماذا ننتظر منه في شيخوخته وشيبته؟

صفات الرشيد الخاصة والعامة

الرشيد أبيض الوجه، طويلاً، مليحاً وفصيحاً، له نظر نافذ في العلم والأدب، يمتاز بكثرة الصلاة فكان يُصلي في اليوم مائة ركعة، لا يترك هذا الأداء اليومي إلا لعلة، هو كثير الصدقة ومن خالص ماله، اتصف بالتواضع وحب العلماء فكان يصب الماء على أيدي العلماء إجلالاً للعلم ورعاية لأهله.

كان رحمه الله مولعاً باحترام العلماء، ومما يُروى عنه أنه لما بلغه وفاة العالِم الجليل ابن المبارك، جلس ﷺ للعزاء فيه عن أهله، كما طلب من أمراء وأعيان الدولة لتقديم العزاء فيه.

كان رجلاً بكّاءً إذا وُعظ، وكان غزير الدمع عند سماعه للذكر، وعندما يسمع اسم النبي ﷺ كان يقول صلى الله على سيدي.

كان رجلاً شديد التأثر، دخل عليه ذات يوم ابن السماك واعظاً، وقتها استسقى الرشيد فأُتي له بالماء، فقال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين، لو مُنعت هذه الشربة بكم تشتريها! قال: بنصف ملكي، قال له: اشرب هنأك الله بها، فلما أنهى شربه قال له ابن السماك: لو مُنعت خروجها، بماذا كنت تشتري خروجها، فقال: بملكي، قال: إن ملكاً قيمته «كذا وكذا» لجدير أن لا ينافس فيه، فبكى الرشيد ﷺ، هذا ولا يزال ملوك الأمة بخير ما سمعوا الواعظ وتأثروا به ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سَطْوتهم.

هذا وقال الرشيد يوماً للعالِم الشيباني عظني. قال: من يقول لك: إنك مسؤول عن الرعية فاتق الله، أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم ﷺ.

كان رحمه الله يتصدق كل يوم بألف درهم من خالص ماله.

حج خلال خلافته تسع مرات في سنوات ١٧٠هـ، ١٧٣هـ، ١٧٣هـ، ١٧٧هـ، ١٨٠هـ، ١٨١هـ، ١٨٦هـ، ١٨٨هـ.

كان كجده المنصور هيبة وصلابة في الملك وجبروتاً وشدة مع الحق، كان كثير الكراهة للباطل، تتبع الزنادقة لمحاسبتهم.

شهد عصره وجود الكثير من العلماء الأعلام من أمثال: الإمام مالك بن أنس، الليث بن سعد، الكسائي أسد الكوفي ومحمد بن الحسن من كبار أصحاب أبي حنيفة.

زواج أمير المؤمنين هارون الرشيد:

أراد الخليفة المهدي أن يتوج شباب ولده هارون بالطهر والعفة، فخطب له ابنة أخيه جعفر بن المنصور رفيقته في طفولته اللذين تبادلا خلال حياة القصور مع بعضهما الحب البريء بين أولاد العمومة وبنات العم، اشتهرت خطيبته المساة «أمة

العزيز» بالجمال وبضاضة الجسم، لذا لقبها جدها المنصور بـ «زبيدة» وبهذا الاسم عُرفت في حياتها، كانت بارعة الجمال، رقيقة القسمات، في عيونها سحر، ذات شعر فاحم، هيفاء القامة، ناعمة البشرة بيضاء المحيا، طليقة الوجه.

استعد عمها المهدي لزواجها استعداداً لم يستعد لمثله من قبل، حمل إليها صناديق الحلي، وأكاليل الذهب ومصوغات الفضة وأنواع الكسوة وأطايب العطور.

هذا وحفل قصر محمد بن سليمان العباسي زوج العباسة ابنة المهدي بأجمل عروسين سنة ١٦٥هـ بعد تجديده وتأثيثه بأيدي أمهر الصنّاع.

هذا ولما تأخرت زبيدة في الإنجاب تزوج الرشيد من جارية فارسية تُدعى مراجل أنجبت له ابنه المأمون وبعد زواجه من مراجل حملت زبيدة وأنجبت للرشيد ابنه الأمين بعد المأمون بأربعة أشهر.

ولاية العهد:

عزم الخليفة المهدي على نقل ولاية العهد من ولده موسى الهادي إلى ولده هارون الرشيد بدافع من:

١- والدة الهادي الخيزران.

٢- من المهدي نفسه لما رآه في الرشيد من تقوى وبطولة في الحروب وذكاء ونبوغ والقدرة على حسن التصرف والحكمة في معالجة الأمور.

أرسل الخليفة المهدي لابنه الهادي كتاباً يطلب إليه الحضور، رفض الهادي الحضور والامتثال لأمر والده لعلمه المسبق بما يريده والده منه، أساء الهادي إلى رسل الخليفة وظل مقيماً في جرجان، لذا جهز المهدي نفسه للمسير إليه.

لما وصل المهدي على ماسبذان وكان معه ابنه هارون توفي الخليفة المهدي بسبب فرسه التي دخلت بيتاً خرباً، أصابه حائطه فوقع عن فرسه ولم يبقَ طويلاً

حتى مات، فصلّى عليه ولده الرشيد ثم دفنه وبعدها أرسل الرشيد الخاتم والقضيب لأخيه الهادي وعزاه بوفاة والدهما، وهنأه بالخلافة وأخذ له البيعة من أمراء بني هاشم ومن القواد والناس، وكتب للأقاليم بذلك.

لما وصل الخبر إلى الهادي توجه لبغداد وأخذ البيعة لنفسه، وتسلم زمام الأمور وقام بالناس بالعدل والرفق والإحسان.

تسلم الخلافة في المحرم من أول سنة ١٦٩هـ واستمر في الحكم سنة وثلاثة أشهر فقط حيث توفي ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠هـ.

هذا وحاول الهادي قبل وفاته نقل الخلافة من بعده لابنه جعفر بدل أخيه هارون الرشيد رغم العهود والمواثيق والإيمان التي وثق بها المهدي ولاية العهد لابنه الرشيد بعد أخيه الهادي.

لم يكن هارون راغباً في فتح الصراع مع أخيه الهادي وأراد التنازل عن حقه في ولاية العهد لابن أخيه رغبةً في السلام والهدوء لكن يحيى البرمكي وقف إلى جانب هارون وحرضه على عدم الاستسلام لرغبة أخيه الهادي ورفض ما يريده منه الهادي وشجعته على ذلك أيضاً والدته الخيزران على رفض طلب أخيه الهادي في ولاية العهد لابنه جعفر. ويُظهر البعض أن موسى الهادي أظهر عدم اهتمام بأخيه الرشيد وكان يتعرض له في المجالس ويبدي ازدرائه له لكن الرشيد انصرف لشؤونه الخاصة، هذا وتعرض يحيى البرمكي لبعض المضايقات من الخليفة الهادي لصلته بهارون وأرسل إليه قائلاً: «يا يحيى ما لي ولك!! قال يحيى: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، قال الهادي: فلِمَ تدخل بيني وبين أخي وتُفسده عليّ، فردّ قائلاً: يا أمير المؤمنين مَنْ أنا حتى أدخل بينكما!! إنما صَيَّرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، فقمت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فانتهيتُ إلى أمرك قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده قال: فسكن غضبه»[1].

---

(١) الطبري، ج٣، ص٢٠٨.

لكن عاد الهادي يتهدد يحيى ثانيةً ثم ألقى به في السجن، وبلغ الأمر من الهادي أن عرّض بأخيه هارون أمام الناس في مجلس الخلافة وقال الهادي لأخيه هارون في إحدى لقاءاته: إن تأملك بالخلافة دون ذلك خَرْط القتاد، فبرك هارون على ركبتيه وقال: يا موسى، إنك إن تجبّرت وُضعت وإنْ تواضعت رُفعت، وإن ظلمْتَ خُتلت أي قُتلتْ وإني لأرجو أن يقضي الأمر إليّ، فأنصفُ من ظلمتَ، وأصلُ من قطعت، وأُصيّر أولادك أعلى من أولادي وأزوجهم بناتي. فردّ موسى قائلاً: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، أدنُ مني، فدنا منه فقبّل يديه، ثم ذهب يعود إلى مجلسه فقال له: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل (أعني أباك المنصور) لا جلست إلا معي وأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال: يا حرّاني، احمل إلى أخي ألف ألف دينار، وإذا افتتح الخراج فاحملْ إليه النصف منه، فاعرض عليه ما في الخزائن من مالنا فيأخذ جميع ما أراد، وانصرف الرشيد على الرضا والمحبة بينه وبين أخيه، لكن الأمر لم يطل إذ عادت الدسائس بينهما من أهل السوء، ووصل الأمر من السوء بينهما مداه إذ أعلن الهادي أخذ البيعة لولده جعفر أمام قواده وكبار رجال دولته وأنصاره، لكن الرشيد ذو العقل الراجح والقادر على تدبير الأمور ووضعها في مكانها الصحيح، رفض التنازل عن ولاية العهد لابن أخيه الهادي (جعفر) فما كان من الهادي إلا أن أمر بحبس الرشيد في بيت خاص وتحت إشراف سلامة الأبرش (السجان المعروف من عهد الخليفة المنصور) وكان الهدف أن يقتل الهادي يحيى البرمكي ومعه هارون إلا أن المرض المفاجئ عاجل الهادي ومات قبل أن يأمر بقتلهما. وكانت وفاته ليلة النصف من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠هـ كما مرّ سابقاً، فأرسلت والدته الخيزران من أخرج يحيى البرمكي من سجنه والذي ذهب بدوره إلى البيت الذي يقيم فيه هارون مسجوناً فوجده نائماً فأيقظه قائلاً له «قم يا أمير المؤمنين»، وأخبره بوفاة أخيه الهادي، فنهض واستلم الخاتم واتجه لقصر الهادي حيث تم تغسيله وصلى عليه الرشيد ودفنه في بستان قصره وعندها أخذ القائد خزيمة بن حازم جعفر بن الهادي وصعد به مكاناً عالياً ليعلن فيه خلع نفسه من البيعة التي أُعطيت له من بعض

الناس في حياة والده فخلع نفسه وبايع بالخلافة لعمه هارون الرشيد، ثم أُرسلت الكتب للأقاليم لأخذ البيعة للرشيد، ليتسلم هارون الرشيد زمام الخلافة صبيحة الرابع عشر من ربيع الأول سنة ١٧٠هـ الموافق ١٢ أيلول سنة ٧٨٦هـ وله من العمر ٢٢ سنة وقيل ٢٥ سنة كما ذكر الطبري في تاريخه وكذلك ابن الأثير، سميت ليلة مبايعة الرشيد ليلة الخلفاء حيث توفي الخليفة الهادي وبويع لهارون بالخلافة وفي هذه الليلة أيضاً وُلد ابن الرشيد المأمون.

خلافة هارون الرشيد

تكلمنا سابقاً عن ولادة وطفولة وشباب هارون الرشيد والأيام الصعبة التي عاشها حتى توفي أخوه الخليفة موسى الهادي وتنحية ابن أخيه عن ولاية العهد ومبايعته بالخلافة صبيحة الرابع عشر من ربيع الأول سنة ١٧٠هـ بجهود من والدته الخيزران ومن تربى في كنفه يحيى بن خالد البرمكي. لما تولى الرشيد الخلافة اختار يحيى بن خالد البرمكي وزير تفويض له وخاطبه قائلاً: «يا أبت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويُمنك وحسن إدارتك، لذا اخترتك وزيراً مفوضاً عني» ثم دفع إليه بالخاتم، وفي هذا قال الشاعر الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة   فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذو الندى   فهارون واليها ويحيى وزيرها

كما ولى الرشيد يوسف بن القاسم بن صبيح كتابة الإنشاء الذي قام خطيباً بين يديه لأخذ البيعة له ومما قاله: «... فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم، بما جدد لكم من رأي أمير المؤمنين وتفضل به عليكم، فادعوا إلى الله له في البقاء ولكم به في إدامة النعماء، لعلكم ترحمون، وأعطوا صفقة إيمانكم وقوموا إلى بيعتكم، صالحكم الله وصالحه عليكم، وأصلح بكم وعلى أيديكم، وتولاكم ولاية عبادة الصالحين».

بعد خروجه من قصر الخلد، استقبلته الجماهير بالهتاف والتهليل والتكبير، كما علت زغاريد النسوة من على الأسطح والشرفات ابتهاجاً برؤيته.

لما اقترب موكب الخلافة من الجسر، تتقدمه كتيبة أبناء الأنصار بسيوفهم وجيادهم وألبستهم السوداء المزركشة ومعهم عدد من كبار شخصيات بني العباس يتوسطهم أمير المؤمنين هارون في حلة سوداء، يركب على فرس أبيض مُطهم بلجام وسرج فاخر وسيف مرصع بالجواهر، استقبل هارون جمهور الناس بابتسامة رقيقة ووجه وسيم الطلعة وشباب ينبع حيوية وخلفه القواد والفقهاء والقضاة والعلماء ورجال الحاشية[1].

هذا وكان ﷺ قد تحرك من قصر الخلد إلى المسجد عند اقتراب صلاة الجمعة، خطب بالناس خطبة الجمعة ثم صلى بهم إماماً، وبعد الصلاة جلس في صحن المسجد على أريكته حيث بايعه بالخلافة من لم يبايعه من قبل، وظل جمهور المسلمين طيلة يومهم في هناء وفرح وسرور بهذا الخليفة الشاب المجاهد.

هذا وقد بدأ هارون خلافته بالعفو عن المحكومين، والأمان للهاربين والمختبئين ومن الذين شملهم عفوه يعقوب بن داود الذي سجنه والده المهدي بسبب ميله للعلويين، كما أطلق سراح من سجنهم أو نفاهم الخليفة الهادي أيام خلافته، كما وفّى لأبناء عمومته فقسّم سهم ذوي القربى بالتساوي بين بني هاشم.

من أعماله الخارجية والداخلية:

١ - جعل من أنطاكية وما حولها من الحصون وحدة إدارية سماها «العواصم» وجعل من منبج مركزاً لها وعيّن عمه عبدالملك بن صالح والياً عليها، كما قام بتحصين مدينة طرسوس كثغر جهادي سكنه الناس. ولم ينته العام الذي تولى فيه

---

(١) هارون الرشيد الخليفة المظلوم، أحمد القطان ومحمد الزين، ص٤٧.

حتى رزقه الله بولده الثاني «محمد الأمين» من زوجته زبيدة يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شوال ١٧٠هـ.

٢- لما قام الروم ببعض الاعتداءات على المسلمين عيّن موسى بن عيسى على إمارة الحج لهذا العام وقام بنفسه بغزو الروم وتأديبهم وبعد عودته عزم على الحج، فلما وصل الحرمين أعطى أهلها الأموال الكثيرة وختم عامه الأول من الخلافة بغزوة وحجة، فكان ﷺ أول خليفة يغزو ويحج في العام نفسه بفضل وتوفيق من الله العلي القدير وكان في ذلك بشرى خير لعهده الميمون، قال الشاعر داود بن رزين:

بهارون لاح النور في كل بلدة وقام به في عدل سيرته النهجُ

أمام بذات الله أصبح شغله وأكثر ما يُعنى به الغزو والحج

وأن أمين الله هارون ذا الندى يُنيل الذي يرجوه أضعاف ما يرجو

٣- دفع بخاتم ديوان الخلافة إلى أبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي وبعد وفاة الطوسي دفعه إلى يحيى البرمكلي كما مر سابقاً واجتمع بذلك ليحيى الوزارتان (التفويض والتنفيذ) وأخذ يحيى يقضي في أمور الخلافة حسب ما يراه بمساعدة من والدة الرشيد الخيزران ذات السطوة والصولجان. قال الرشيد ليحيى البرمكي: «قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عُنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من أردت واعزل من أردت وامض الأمور على ما ترى» ثم دفع إليه بخاتم بالخلافة، قام يحيى بإدارة شؤون الدولة خير قيام وساعده في ذلك ولداه الفضل وجعفر.

وهكذا ظل يحيى البرمكي يدير أمور الدولة تحت سمع وبصر الرشيد، ويساعده في هذه الإدارة أولاد الأربعة: الفضل، جعفر، محمد وموسى.

وفاة والدة الرشيد الخيزران:

فجع الرشيد بوفاة والدته الخيزران سنة ١٧٣هـ إثر مرض مفاجئ لم يمهلها طويلاً ولها من العمر حوالي خمسين عاماً، حزن عليها الرشيد حزناً شديداً وخرج في

جنازتها كما مر معنا سابقاً، حافياً يغوص في الطين حتى أتى مقابر قريش فغسل رجليه وصلى عليها ولحدها كما ورد في تاريخ الطبري، كما تصدق عنها بمال كثير، لم يسبق أن تصدق بمثله.

كما فُجع الرشيد أيضاً بوفاة صهره وزوج أخته العباسة في البصرة محمد بن سليمان وعودة أخته العباسة إلى دار أخيها الرشيد وظلت عنده حتى زواجها من موسى بن عيسى العباسي، أخذ الرشيد أموال صهره محمد بن سليمان لأنه لم يكن له أولاد واستعاد الرشيد بهذه الأموال في حروبه وعلى مصالح المسلمين.

أهم الأحداث والثورات في خلافة هارون الرشيد

يعتبر عهد الرشيد من أكثر عهود الدولة العباسية استقراراً وأمناً وحضارة ورخاءً ومن أحسنها عدلاً وأعظمها جهاداً في سبيل الله ورغم هذا الأمن والهدوء والاستقرار فقد شهد عهده بعض المنغصات كالصراع بين القيسية واليمينة وظهور بعض المارقين على الدين ومن أهم الأحداث في خلافة الرشيد:

أولا: خروج الطالبيين:

ابتدأ الرشيد خلافته بالعفو عمن سُجن من أحفاد علي بن أبي طالب ﵁ في خلافة والده المهدي، كما عمل على تأمين الهارب والمستخفي منهم، فأخرج العباس ابن الحسن بن عبدالله بن علي، ورغم معاملته الحسنى معهم خرج عليه من الطالبيين يحيى بن عبدالله بن الحسن الذي نجى من موقعة فخ سنة ١٦٩هـ في عهد الهادي والذي ذهب لبلاد الديلم التي اشتد فيها عوده وقويت شوكته وهو الذي ربّاه في المدينة جعفر الصادق الذي تفقه في الدين وروى الحديث.

توجه الكثير من أهالي الأمصار نحو يحيى بن عبدالله في بلاد الديلم، مما اضطر الخليفة الرشيد الذي اغتم لذلك أن ينتدب لقتالهم الفضل بن يحيى البرمكي سنة

١٧٥هـ في خمسين ألفاً ومعه الخيرة من القواد وطلب منه السرعة في القضاء على ثورة يحيى.

بدأ الفضل البرمكي بمكاتبة يحيى والتعامل برفق معه وتحذيره مما يقوم به، كما كاتب الفضل صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يُسهِّل له خروج يحيى أو حمله على طلب الصلح، فلما شعر يحيى أنه بين فكيّ كماشة استجاب للصلح، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخط يده، فرح الرشيد بما توصل إليه الفضل وكتب ليحيى الأمان، وأشهد على ذلك الفقهاء والقضاة وعظماء بني هاشم، كما أرسل الفضل بالجوائز والهدايا ليحيى ودعاه للقدوم إليه، وذهبا سوية إلى دار الخلافة ببغداد، لقيه الرشيد بكل ما أحب وأغدق عليه المال الكثير، وأقام يحيى أول الأمر في منزل يحيى البرمكي وسمح للناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى، كثر زواره، ووصل للخليفة الرشيد الأخبار بأن يحيى الطالبي يدعو لنفسه، فاستدعاه وسأله عمّن يزوره فذكر له أنهم ممن كانوا معه والذين شملهم كتاب العفو، فسأله الرشيد عن أسمائهم رفض قائلاً، فكيف أشي بهم فحبسه الرشيد بعد استشارته الفقهاء في نقض كتاب الأمان ورغم حبسه، كثيراً ما كان الرشيد يخرجه من حبسه ويناظره وقال له يحيى ذات مرة: «إن لنا قرابة ورحماً وحقاً، فعلام تعذبني وتحبسني؟» فرقّ له قلب الرشيد، فاعترض على ذلك بكّار بن ثابت بن عبدالله بن الزبير الذي كان يكره آل طالب وقال للرشيد: «يا أمير المؤمنين لا يغرنك هذا الكلام من هذا، فإنه عاصٍ شاق، وإنما هذا منه مكر وخبث، وقد أفسد علينا مدينتنا، وأظهر فيها العصيان»، فقال له يحيى: «ومن أنتم عافاكم الله؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بآبائي وآباء هذا ثم قال: يا أمير المؤمنين، لقد جاءني هذا حين قُتل أخي محمد بن عبدالله فقال لي: لعن الله قاتله وأنشدني فيه نحواً من عشرين بيتاً وقال لي: إنْ تحركت لهذا الأمر فأنا أول من يبايعك، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك؟ قال فتغير وجه الرشيد ووجه الزبيري، وأنكر وشرع يحلف بالأيمان

المغلظة، أنه لكاذب في ذلك، وتحير الرشيد، ثم قال ليحيى: أتحفظ شيئاً من المرثية؟ قال نعم: وأنشده بعضها، فازداد الزبيري في الإنكار فقال له يحيى بن عبدالله: فقل: إن كنت كاذباً فقد برئت من حول الله وقوته، ووكلني الله إلى حولي وقوتي، فامتنع الزبيري من الحلف بذلك، فعزم عليه الرشيد وغيظ عليه، فحلف بذلك، فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد فرماه الله بالفالج فمات من ساعته، ويقال أن امرأته غمّت وجهه بمخدة فقتله الله».

بعد هذه المشاهد الحاضرة من الرشيد، أطلق الرشيد يحيى بن عبدالله وأطلق له مائة ألف دينار وعاش يحيى بعد ذلك شهراً واحداً ثم مات رحمه الله وورد هذا القول في البداية والنهاية للمؤرخ ابن الأثير.

أما موسى بن جعفر الصادق الملقب بـ «الكاظم» فخاف الرشيد من خروجه عليه أمر بإحضاره فحُمل إلى البصرة وحُبس عند واليها عيسى بن جعفر، ثم نُقل إلى بغداد حيث توفي في السجن سنة ١٨٣هـ.

أما إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي، فقد هرب بعد معركة فخ في عهد الهادي ووصل إلى المغرب سنة ١٧٢هـ نزل قرب مكناس وأسس هناك دولة نسبت إليه باسم دولة الأدارسة، هذا وقد كلّف الخليفة الرشيد رجل داهية لقتل إدريس اسمه سليمان بن جرير (الشماخ) والذي تظاهر لإدريس بكرهه للعباسيين، قربه إدريس منه وأعجب بحديثه، تمكن الشامخ من سمّ إدريس ثم فرّ هارباً ومات إدريس سنة ١٧٧هـ ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملاً فولدت له ولداً ذكراً اسمه إدريس على اسم والده، بايعه البربر بالخلافة واستمرت الدولة بالمغرب رغماً عن الخليفة الرشيد، وتم خروج الأدارسة كلياً عن سلطة الرشيد في المغرب الأقصى وكذلك في الأندلس، استمر الرشيد يخاف من الطالبيين ومعاقبة من يميل إليهم بشدة، استمر العلويون بمكافئة الرشيد بتكريمه لهم ولإغداق المال عليهم حتى لا يخرجوا عليه، العلة لم تكن في آل علي، بل بمن حولهم من المنتفعين

والمنافقين الذين يعدون آل علي بالنصرة ثم يتخلون عنهم ويخذلونهم وهذا ديدنهم على مرّ العصور.

كان الرشيد يقول «بلغني أن العامة يظنون بأي أبغض علي بن أبي طالب، والله ما أحب أحداً حبي له».

ثانيا: الحركات والثورات الصغيرة:

لم يكن اضطراب دولة بني العباس وزعزعة الأمن في أجزاء من ربوعها نابعاً من الطالبيين فقط، ظهرت مجموعات أخرى ادّعت أن بني العباس استبدوا وخرجوا عن بعض توجيهات الأوامر الشرعية من الكتاب والسنّة، كان الأمويون قد أعدوا الجيوش الجرارة لحربهم بقيادة أمهر القادة من أمثال المهلب بن أبي صفرة وغيره، لكن الأمويين لم يستطيعوا إطفاء هذه الروح الثورية خاصة عند من كان عندهم القدرة والكفاءة ومن أشهر هذه الحركات:

أ - الخوارج:

مثل حركة الفضل بن سعيد الحروري سنة ١٧١هـ، قُتل في عهد الرشيد ثم خرج على الرشيد الصحْصيح الخارجي في منطقة الجزيرة سنة ١٧١هـ، قاومه واليها أبو هريرة محمد بن فروخ، انهزم الوالي أمام الصَحْصح وتقدم الصحصح إلى الموصل فقاتله عسكرها وقتلوا ممن معه الكثير فتراجع إلى الجزيرة فأرسل إليه الرشيد جيشاً تمكن من القضاء عليه وقتله.

في سنة ١٧٥هـ خرج في خراسان حصين الخارجي الذي حقق بعض الانتصارات لكنه قُتل أخيراً في خراسان سنة ١٧٧هـ ثم خرج على الرشيد في منطقة الجزيرة الوليد بن طريف الشيباني التغلبي في وادي نصيبين، كان الوليد بطلاً مغواراً الذي انتصر على إبراهيم بن حازم فقويت شوكته حيث قضى إلى أرمينيا ثم عاد للجزيرة سنة ١٧٩هـ وكثر أتباعه وعاث في الأرض فساداً فأرسل إليه الرشيد يزيد ابن مزيد بن زائدة الشيباني ابن أخ معن بن زائدة فقال له الوليد:

ستعلم يا يزيد إذا التقينا | بشط الزاب أي فتى يكون

ادعى البرامكة للرشيد ضد يزيد بأنه أخذ يخاتل الوليد ويماكره بسبب الرحم والقرابة بينهما، لذا كتب الرشيد ليزيد مغضباً قائلاً له لو وجهت أحد لخدم له لقام بأكثر مما تقوم به، لكنك مداهن متعصب وأقسم الرشيد ليزيد أنك إنْ أخرتَ مناجزته لأوجهّن إليك من يحمل رأسك، وكان لهذا الغضب والشدة من الرشيد أن اضطر يزيد لملاقاة الوليد، وقال له يزيد ما حاجتك إلى التستر بالرجال أبرز لي فبرز الوليد وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري | قسورة لا يصطلي بناري

جوركم أخرجني من داري

تطارد يزيد والوليد ساعة وكُلٌّ منهما لا يقدر على صاحبه، مضت ساعات من النهار حتى لاحت الفرصة ليزيد فضرب رجل الوليد فسقط وصاح يزيد بخيله فسقطوا عليه واجتزوا رأسه، كان ذلك في الحديثة على فراسخ من الأنبار سنة ١٧٩هـ، ثم أرسل يزيد برأس الوليد إلى الرشيد ومعه كتاب الفتح. رثت أخت الوليد أخاها بقصيدة منها واسم أخته الفارعة:

بتل نهائي رسم قبر كأنه | على خيل فوق الجبال منيف

تضمن مجداً عد ملياً وسؤدداً | وهمة مقدام ورأس حصيف

فيا شجر الخابور ما لك مورقاً | كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى | ولا المال إلا من قنا وسيوف

فعليك سلام الله وقفاً فإنني | أرى الموت وقاعاً بكل شريف

وبعد مقتل الوليد من الخوارج اعتمر الرشيد في شهر رمضان سنة ١٧٩هـ شكراً لله على مقتله ثم عاد إلى المدينة وأقام بها إلى وقت موسم الحج، حيث حج الرشيد بالناس ومشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات وشهد المشاعر كلها ماشياً[١].

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ص١٤٧.

بأمثال هؤلاء الصالحين من الحكام يستتب الأمن وتستقر الأحوال ويعيش الناس حياة هادئة مستقرة.

كما قامت حركات خارجية صغيرة تمكن قادة الرشيد من القضاء عليها وقتل القائمين فيها، فقد قُتل خراشة الشيباني سنة ١٨٠هـ، كما قُتل أبو عمرو الشاري في منطقة الجزيرة سنة ١٨٤هـ وأخيراً تم القضاء سنة ١٨٥هـ في مرج القلعة على عبدالرحمن الأنباري.

وفي سنة ١٩١هـ قاتل القائد طوق بن مالك الخارجي ثروان بن سيف في سواد العراق وتمكن من هزيمته وقتل معظم أصحابه وفرّ ثروان هارباً وانتهى دوره العدائي ولم يعد له ذكر.

ب - الفتن المحلية:

قامت في خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد حركات وثورات صغيرة، مصدرها أشخاص أصابهم العُجب والغرور، لذلك تم القضاء عليهم بسهولة ومن هذه الفتن:

- فتنة في الشام بين قبائل المضرية واليمانية، قُتل بسببها الكثير بزعامة رأس المضرية أبو الهيدام والذي قضى عليه السندي بن سهل بمؤازرة جند موسى ابن عيسى سنة ١٧٧هـ.
- ثورة طائفة من قيس وقضاعة على عامل مصر إسحاق بن سليمان، أرسل إليهم الرشيد من حاربهم حتى عادوا لطاعة الخليفة الرشيد وتأييده ودفع ما عليهم من خراج، قاد الحملة عليهم عامل الرشيد في فلسطين هرثمة بن أعين سنة ١٧٨هـ، هذا وتمكن هرثمة من إخماد فتنة في إفريقيا بقيادة عبدوية الأنباري الذي منحه يحيى البرمكي الأمان إن استجاب له وتم له ذلك.
- القضاء على فتنة زندقية في جرجان بقيادة عمرو بن محمد العمركي (طائفة المحمرة)، أرسل الرشيد من أمر بقتله والتخلص من شره وتم ذلك سنة ١٨٠هـ.

- قيام ثورة الخزر سنة ١٨٣هـ والتي عاثت فاسداً في الأرض وهرب نائب أرمينيا سعيد بن مسلم، أرسل إليهم الرشيد حازم بن خزيمة ويزيد بن مزيد في جيش كبير وتمكنوا من القضاء على هذه الثورة وإصلاح ما أفسدوه.

- ثورة أبو الخصيب وهيب بن عبدالله النسائي في طوس ونيسابور سنة ١٨٥هـ، أرسل إليه الرشيد علي بن عيسى بن ماهان فأنهى أمره سنة ١٨٦هـ.

- ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيّار في سمرقند في بلاد ما وراء النهر لسبب تافه هو الزواج من امرأة بحيلة طلقها رافع من زوجها وابن عمها المقيم في بغداد وأمره أن يشرك بالله طمعاً في مالها وجمالها، أمر الرشيد واليه على خراسان علي بن عيسى أن يُفرق بينهما وأن يجلد رافعاً وتعزيزه بالطواف به في أسواق سمرقند ثم سجنه. هرب رافع من سجنه ولحق بعلي بن عيسى ببلخ وطلب منه الأمان، فلم يستجب له وسمح له بالعودة إلى سمرقند، عاد رافع لسمرقند وقتل عاملها سليمان بن حميد فأرسل إليه علي بن عيسى ولده عيسى لكن هزمه رافع فذهب الأب علي بنفسه سنة ١٩٠هـ، لكن رافع علت مكانته وعظم أمره سنة ١٩١هـ حيث أطاعه أهل نسف ودعمه الأتراك وقتلوا عيسى بن علي فولّى الرشيد هرثمة بن أعين على خراسان وعزل علي بن عيسى عنها لسوء سيرته وظلمه للناس ودفه ابنه عيسى للأموال، لما قرأ هرثمة كتاب الرشيد لعلي بن عيسى أُسقط في يده ثم قبض عليه وقيده وأولاده وعُمّاله ثم ذهب هرثمة للمسجد وخطب الناس وأخبرهم بأن أمير المؤمنين الرشيد ولاّه ثغورهم بعد أن ثبت للرشيد ظلم وفسق علي بن عيسى وظلمه لأهالي البلاد.

- تمكن هرثمة من دخول بخارى وأسر بشير بن الليث شقيق رافع وأرسل به إلى الرشيد الموجود وقتها في طوس والتوجه لقتال رافع، قتل الرشيد بشير، لكن صولجان وهيبة رافع استمرت إلى ما بعد وفاة الرشيد في طوس، لكنه وقع في طاعة ابنه الخليفة المأمون.

- في سنة ١٩٢هـ ثارت طائفة الخرمية بالجبل وأذربيجان فأرسل إليهم الرشيد عبدالله بن مالك بن الخيثم الخزاعي في عشرة آلاف فارس، قتل منهم الكثير وأسر وسبى الذراري وجاء بهم إلى بغداد، أمر أمير المؤمنين الرشيد بقتل الرجال وبيع الذرية.

ثالثا: أهم الأحداث

القضاء على أسرة البرامكة

شهد عهد الخليفة هارون الرشيد حدثاً جللاً وهو انقلابه على أسرة البرامكة التي ولد وترعرع في أكنافها ورضع من حليب أمهاتها، قضى عليها وحاول استئصال هذه الأسرة من جذورها رغم ما قاموا به من أعمال جليلة، حيث عاونوا الرشيد وقضوا على الكثير من الثورات في عهده، هل في عمله هذا إنكاراً لمن وقف إلى جانبه أم أن هناك أعمالاً جللاً اقتضت منه هذا التصرف.

وقبل حديثنا عن أسباب هذه النقمة التي انتهت بالقضاء عليهم، إليك أخي القارئ هذه اللمحة التاريخية عن أسرة البرامكة قبيل القضاء عليها.

من هم البرامكة؟

البرامكة أسرة فارسية عريقة وقديمة، كلمة برامكة مشتقة من كلمة برمك وهي ليست اسماً لشخص وإنما هي لقب أطلق على سادان أو كاهن معبد قديم في مدينة بلخ قاعدة طخارستان عند نهر جيجون[1].

هذا المعبد بوذي تقام فيه العبادة البوذية في موسم عظيمة، يحج إليه البوذيون من مختلف الجهات وخاصة الهند والصين وفارس، انتشرت هذه الديانة بكثرة في هذه المناطق، يُطلق على هذا المعبد العظيم اسم النويهار وهي كلمة هندية بمعنى

---

(١) في التاريخ العباسي والأندلسي، د. أحمد مختار العبادي، ص٨١.

المعبد الجديد، كانت أسرة البرامكة تتولى شؤون هذا المعبد، ولا يتولى هذا الأمر إلا من يكون عريق النسب.

نسبهم:

ينتسبون إلى خالد بن برمك بن جاماس بن بشتاسف وهم مجوس من أشراف الفرس، حيث كان جدهم برمك المسؤول عن خدمة النوبهار (اسم المعبد) في مدينة بلخ وكان برمك يقوم بخدمة النار المقدسة، وإلى المسؤول عن المعبد (برمك) تنتسب الأسرة البرمكية، وتقول بعض الروايات أن برمك هذا قد أسلم في خلافة عبدالملك بن مروان، وكان برمك هذا عالِماً في الطب والتنجيم وأنه هو الذي عالج الأمير الأموي مسلمة بن عبدالملك وشفاه من مرضه الذي أصيب به بقدرة من الله تعالى.

هذا وقد اعتنق أفراد أسرة البرامكة المذهب الشيعي في عهد الدولة الأموية، يذكر ابن كثير في كتابه البداية والنهاية رواية لا يُدرى مدى صحتها تقول: إن قتيبة ابن مسلم الباهلي عند فتحه لبلاد ما وراء النهر، قد سبى الكثير من أهل هذه المناطق وكان من جملة السبايا زوجة برمك والدة خالد البرمكي سنة ٨٦هـ عن فتحه لمرو وخراسان، يقول ابن كثير: إن قتيبة قد أعطى أخاه عبدالله بن مسلم زوجة برمك فتزوجها وحملت منه ولداً فلما ردّهم قتيبة ورجعت زوجة برمك لزوجها أنجبت من عبدالله هذا ولداً تربى في ديارهم إلى أن أسلموا أيام الدولة العباسية فردوه منهم إلى أهله.

صلة البرامكة بالعباسيين:

أول من أسلم من أسرة البرامكة هو خالد بن برمك والذي كان أحد الدعاة للدولة العباسية والعاملين على بنائها.

توجه خالد بن برمك وبأمر من الداعية الكبير للعباسيين أبو مسلم الخراسان، توجه سنة ١٣٠هـ لقتال نصر بن سيّار في نيسابور، ثم عُيِّن خالد وزيراً مالياً للقائد

قحطبة بن شبيب في حروبه ضد أعداء العباسيين في خراسان، حيث قام خالد بخبرته المالية بدور بارز في تقسيم الغنائم في جيش قحطبة.

لما دخل خالد بن برمك على (أبو عبدالله السفاح) لمبايعته ظنّه السفاح بأنه من العرب لفصاحته، فأقرّه على الغنائم وبعدها أصبح والياً على ديواني الخراج والجند وبعدها ولاّه السفاح على إمارة الموصل سنة ١٥٨هـ.

يقال إنه هو الذي أشار على المنصور في بناء بغداد في مكانها الحالي، كما وكّله المنصور في الإشراف على العُمّال والصنّاع لإتمام البناء.

بعد مقتل الملقب بوزير آل محمد (أبو سلمة الخلال) استوزر الخليفة أبو عبدالله السفاح خالد بن برمك ما استوزره الخليفة أبو جعفر المنصور لكنه رفض أن يتلقب بلقب وزير لأنه شؤم على صاحبه حيث يُعرض هذا اللقب لبطش الملوك، قال الشاعر:

أسوأ العالمين حالاً لديهم ... من تسمى بكاتب أو وزير

ونجا خالد بن برمك منها ... إذ دعوه من بعدها بالأمير

تولى خالد بن برمك في خلافة المنصور ولاية طبرستان والري ودنباوند ثم عزله المنصور، رضي عنه المهدي وولاه إمارة فارس وأعدّه مع ابنه هارون سنة ١٦٣هـ لغزو بلاد الروم وكان معهما يحيى بن خالد بن برمك مسؤولاً عن النفقات، أعاد المنصور لخالد بن برمك ولاية الموصل، وظل والياً عليها حتى مات الخليفة المنصور.

توفي خالد بن برمك في أوائل خلافة المهدي وعلى الأرجح سنة ١٦٣هـ وكان قد أنجب واسطة عقد هذه الأسرة البرمكية وهو يحيى بن خالد بن برمك، ويحيى هذا أشهر شخصية في أسرة البرامكة لما تميز به من قدرات مهارية وإدارية.

عهد الخليفة المهدي إلى يحيى بن خالد في تأديب وتربية ولده هارون، فربّاه أحسن تربية وزوّده بنصحه وإرشاده حتى ضمن له الخلافة بدلاً من ابن أخيه

موسى الهادي معرضاً حياته للخطر، كان هارون لا ينادي يحيى بن خالد بن برمك إلا بقول «يا أبتي» وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل، كما أرضعت الخيزران والدة هارون الفضل بلبان ابنها هارون.

وصف المؤرخ المسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر خالد بن برمك فقال: «لم يبلغ مبلغ خالد بن يحيى بن برمك أحد من ولده في جدة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه ووقور عقله، ولا الفضل في جوده وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروره وبُعد همته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه»[1].

ازدادت الصلة وتوطدت العلاقات بين أسرتي يحيى بن خالد البرمكي وأسرة المهدي، عندما كان المهدي ولياً للعهد ووالياً من قبل والده المنصور على بلاد الري، حيث قرّب المهدي إليه يحيى بن خالد ودفع إليه ولده هارون ترضعه نساء يحيى مع أطفالهن.

ظلت صلة يحيى وأسرته قوية متينة بالرشيد وأمه الخيزران ووالده المهدي الذي ولاّه خراسان واختاره سنة ١٦٣هـ ليشرف على النفقات في جيش هارون الرشيد المتوجه لغزو بلاد الروم.

لما ولّى المهدي ابنه هارون على المغرب سنة ١٦٤هـ، أمر الرشيد يحيى بن خالد أن يتولى ذلك فكانت إليه أعماله ودواوينه وظل على رعايته لهارون ووقوفه إلى جانبه حتى ما الخليفة المهدي.

سبق أن ذكرنا آنفاً أن الخلاف احتدّ بين الهادي ويحيى بن خالد بن برمك عندما أراد الهادي من أخيه هارون أن يتنازل عن ولاية العهد من بعده، ويحيى هذا يثبت الرشيد ويشد من أزره ويحرضه على عدم التنازل عن ولاية العهد لابن أخيه

---

(١) مروج الذهب،ج٣، المسعودي، ص٣٩٨.

الهادي، مما عرّض يحيى للحبس، وتهديد الهادي له بالقتل، وكاد يحدث ذلـك إلا أن الموت عاجل الهادي ولم يُنفذ قتله ليحيى.

لما مات الهادي أخرجت والدته الخيزران يحيى بن خالد البرمكي مـن الـسجن والذي قام بدوره بالذهاب لهارون المفروضة عليه الإقامة الجبرية في القصر فأعلمـه بموت أخيه الهادي وناداه بقول يا أمير المؤمنين وساهم في اخذ البيعة له وتنازل ابـن الهادي عن ولاية العهد.

أول عمل قام به الرشيد بعد تسلمه للخلافة أن استوزر يحيى بن خالد وفوضه في تصريف أمور الدولة كما سبق أن ذكرنا سابقاً.

بعد وفاة الخيزران والدة هـارون بـدأ بعـض التغـير عـلى أسرة البرامكـة مـن هارون الرشيد، لكن حكمة يحيى وحُسْن تديره كانا يقضيان على كل جفاء يحسّ بـه من الرشيد نحوهم.

مكانة البرامكة عند العباسيين:

تبوأ البرامكة منزلة سياسية عاليـة في ظـل الخلافـة العباسـية، زادت منـزلتهم رفعة وعلواً في عهد الخليفة هارون الرشيد، كان يحيـى بـن خالـد بـن برمـك يـدير الدولة كما يريد، ويثبت ما يريد، حيث عهد إليه الخليفة الرشيد بأمور الخلافة كلها، إضافة إلى الإشراف على شـؤون الرشـيد العائليـة، ورعايـة مـصالح بيـت الخلافـة لنفسه.

حظي ابن يحيى البرمكي (جعفـر) بمنزلـة مميـزة عنـد الرشـيد فهـو أخـوه في الرضاعة، وصاحبه في خلواته وأنيسه في وحشته، وكذلك كان للفضل بن يحيى مثل ما كان لجعفر من المكانة وكذلك أخوهم الثالث موسى، كـان لـه مـن المكانـة عنـد الرشيد فقد تولى قيادة جيوش الرشيد عدة مرات وكان لمحمد بن خالد بـن برمـك شقيق يحيى مركز الحجوبية.

الخلاصة أن الرحال تحط عند أبواب البرامكة لقضاء الحوائج وإنفاذ أمور الخلافة وقضاء المظالم، قال الشاعر:

لـــيهن الرشـــيد خلافتـــهُ وأمـــر الـــذي قـــد وهـــي عقـــده
أضـــاف إلى بيعـــة ببيعـــة فقـــام بهـــا جعفـــر وحـــده
بنـــو برمـــك أســـسوا ملكـــه وشـــدوا لوارثـــه عهـــده

كذلك كان للبرامكة منزلة في عالم الأدب إضافة لعالم السياسة، وقد عُرفوا بالكرم واشتهروا بالسخاء، ونالوا مكانة راقية دونها أبناء العباسيين وقواد الجيوش وأمراء بني هاشم.

لكن هل استمرت نعمة الفضل والعز للبرامكة، لقد كان لهم اليد الطولى في كل أمور الدولة، لكن بين ليلة وضحاها فقد البرامكة كل شيء، وأصبحوا في خبر كان، ما أسباب هذا التغير السريع والوضع السيئ الذي أحاط بأسرة البرامكة؟

أسباب نكبة أسرة البرامكة

يروي الطبري في تاريخه أنه في المحرم سنة ١٨٧هـ، بعد أن عاد الخليفة الرشيد من أدائه لفريضة الحج ووصوله إلى الأنبار، دخل الرشيد على غير عادته مبكراً إلى فراشه بعد انصراف جعفر البرمكي من مجلسه أرسل إليه الرشيد كبير خدمه (مسرور) لإحضاره وبعد حضوره أمر الرشيد مسرور بضرب عنق جعفر، وقبل انقضاء هذه الليلة أمر الرشيد بالقبض على يحيى البرمكي وأبنائه وجميع أفراد أسرته وأمر بحبسهم كما صادر أموالهم ، كما أرسل الرشيد بكتبه إلى ولاة الأقاليم وطلب منهم القبض على أنصار أسرة البرامكة وحذر الناس من إيواء أحد منهم، ويستشف من هذا التصرف أن الرشيد كان عنده خطة مبيتة لما قام به ولم تكن مفاجئة.

اهتم المؤرخون بما حدث لضخامته ومفاجئته، إلا أن الأسباب والدوافع لما حدث ظلّت غامضة ومجهولة، وخاصة أن العلاقة بين الرشيد ووالده من قبل كانت علاقة ممتازة مع هذه الأسرة وأفرادها.

هذا وقال المؤرخ الطبري إن سبب غضب الرشيد على البرامكة فإنه مختلف فيه، كما يقول اليعقوبي «والناس في أسباب السخط عليهم مختلفين» ويقول المؤرخ (أبو الفدا) «وقد اختلف الناس في سبب ذلك اختلافاً كثيراً».

قال المؤرخ المسعودي صاحب كتاب (مروج الذهب) «واختلف في سبب ذلك». ومن هنا نرى اختلاف المؤرخين في تعليلهم لأسباب نكبة البرامكة وما حلّ بهم بعد أن كانوا الكل في الكل مما جعلهم يتخبطون في ذكر أسباب هذه النكبة الضخمة.

هذا ويرى بعض المؤرخين أن ما حدث هو شيء متوقع للحكم الفردي، فالسلطان يحب أن يكون هو المتحكم الوحيد وصاحب اليد الطولى في كل شيء، ولما وصل البرامكة لدرجة أن كل شيء في أيديهم تحركت النفس البشرية بحكم التسلط، فكان ما كان، وكان للحاسدين والواشين دور في هذا المجال، خاصة وأن يد البرامكة قد علت فبدت الغيرة على الحكم تدخل في قلوب الخلفاء والشعور بعيوب الغير والخشية من أن ينقلب سيفهم عليه ويأخذوا المُلك منه الذي دونه كل شيء.

كان يحيى بن خالد البرمكي هو القائم بأمر ورعاية الرشيد أيام والده المهدي حتى أن الرشيد كان ينادي يحيى «يا أبتي» حيث كانت أم الفضل بن يحيى مرضعة للرشيد، كما أن والدة الرشيد الخيزران أرضعت الفضل بن يحيى كما سبق ذكره.

كان سلطان وجبروت جعفر بن يحيى البرمكي أيام الرشيد عظيماً جداً، حتى كان يقضي عظائم الأمور، لا يرد له الرشيد قضاءً لدرجة أن والده يحيى قال للرشيد «يا أمير المؤمنين أنّا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك، فلو أعطيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك، كان ذلك واقعاً بموافقتي وآمن لك علي». قال الرشيد: «يا أبت ليس بك هذا ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه أخوه الفضل».

اختلاف رأي المؤرخين في أسباب نكبة البراكمة

ذكر المؤرخون أسباباً عدة أدت إلى إيقاع الرشيد بالبرامكة والقضاء عليهم ومن الأسباب:

السبب الأول:

استبدادهم على الدولة وسيطرتهم على الأموال، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وأسندوا مناصب الدولة الرئيسية لأولادهم وصنائعهم، كم احْتازوا عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم، قيل إنه كان في دار الرشيد من ولد يحيى البرمكي خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة ودفعوهم عنها ولمكانتهم وتربيتهم للرشيد توجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدولة منهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وضعفت لهم الرقاب، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسربت إليهم لجاههم ومكانتهم أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة والأقارب العطاء، لدرجة أنهم مُدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، كما استولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، مما عرّضهم للحسد والمنافسة، ودبّت إلى مهادهم الوثير في الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، لما وقر في نفوسهم من الحسد، كما ظهرت عند مخدوميهم نواشي الغيرة. وهذا السبب الذي ذكرناه تطرق إليه كل من: ابن خلدون في مقدمته والمسعودي في مروج الذهب وفي رواية لابن كثير قوله: «ويقال إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل له إن هذه لجعفر»[1].

---

(١) البداية والنهاية لابن الأثير، ج١٠، ص١٩٦.

كما ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ في ج٦ ص١٨٧: «وقد بنى جعفر داراً كلفته عشرين ألف درهم، فرفع ذلك إلى الرشيد وقيل: هذه غرامته على دار فما ظنك بنفقاته وصلاته وغير ذلك» فاستعظم الرشيد ذلك.

هذا وبلغ من جرأة يحيى بن خالد أن منع زبيدة زوجة الرشيد من الخدم وكان يُقفل عليها الأبواب ويذهب بالمفاتيح إلى بيته، فما كان من زبيدة إلا أن شكته للرشيد الذي قال له «يا أبت، ما بال أم جعفر (زبيدة) تشكوك؟ فقال: يا أمير المؤمنين أمتّهمٌ أنا في حرمك وتدبير قصرك عندك؟ فقال: لا والله، فقال: لا تقبل قولها!!! فقال الرشيد: فلست أعاودك، فازداد يحيى لها منعاً وعاملها في غلظة فكان يُقفل أبواب الحرم بالليل ويمضي بالمفاتيح إلى منزله، مما زاد من غضب زبيدة، وصل به الأمر أن يتحكم وبعنجهية كبيرة في زوج سيده أمير المؤمنين».

أما أخبار عطاياهم وكرمهم فلا ينكره أحد ويصعب وصفه، وهذا دليل على احتجابهم الأموال دون الخليفة والأمراء وتصرفهم في أموال الدولة بما يشاؤون وكما يحبون. وبلغ البذخ والترف عند البرامكة حتى أن والدة جعفر بن يحيى قالت بعد نكبتهم: «لقد أتى عليّ عبد مثل هذا، وأنا على رأسي أربعمائة وصيفة وأني لأعُدّ ابني عاقاً»[1]. فتعتبر والدة جعفر ابنها عاقاً لأنه وضع لها أربعمائة جارية فقط والراجح أن في هذا القول من المؤرخ المسعودي المتشيع بعض المغالاة والمبالغة.

يقول الجهشياري أنه بلغ من جعفر أنه كان يتحكم فيما يُصرف للخليفة الرشيد من أموال.

ونرى من هذه السطوة من البرامكة أن الخليفة يعجز عن قليل من المال يقدمه لطبيبه بختيشوع لشراء داراً له بينما يبيح يحيى بن برمك لنفسه وأولاده بيوت المال يأخذون منها ما يريدون ليوزعوها على أتباعهم. ومن هذا الوضع الذي عاش فيه

---

(١) مروج الذهب للمسعودي، ج٣، ص٣٨٣.

الرشيد ردٌ على من ادعى أن الرشيد كان يعيش حياة البذخ والترف وإنفاق المال الكثير على القيان وعلى اللهو الغناء.

هذا السبب في نكبتهم على أهميته، لكن دافعه ضعيف لأن الرشيد كخليفة كان في إمكانه أن يصادر أموالهم دون أن يوقع بهم ويقتل من يقتل ويحبس من يحبس.

السبب الثاني:

تعاطف البرامكة مع العلويين أعداء الدولة العباسية، ولعله من أهم الأسباب، حيث أطلق أقرب المقربين للرشيد ومن خاصته وهو جعفر بن يحيى البرمكي، أطلق العلوي يحيى بن عبدالله بن حسن الذي حبسه الخليفة الرشيد في دار جعفر البرمكي.

قال أبو محمد اليزيدي - أعلم الناس بأخبار القوم - «إن الرشيد قتل جعفر ابن يحيى بغير سبب يحيى بن عبدالله بن حسن - الذي أطلق سراحه دون إذن من الرشيد - فلا تصدقه» فقد كان البرامكة يُضمرون نقل الخلافة إلى العلويين بدليل إطلاقهم سراح يحيى بن عبدالله العلوي من حبسه دون علم أو استئذان الخليفة الرشيد، وعلى أهمية هذا الرأي فإن البعض يُضعفه قائلاً: لو نجح البرامكة في تحقيق نقل الخلافة إلى العلويين هل ينالوا مجداً أو نفوذاً أكبر مما في أيديهم فعلاً في عهد الرشيد.

ومن الآراء المؤيدة لقبول هذا السبب لنكبتهم قولٌ للخليفة الرشيد عن جعفر البرمكي: «وقتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك!» فكان من أمره ما كان ورد هذا القول في تاريخ الطبري، عندما علم الفضل بن الربيع واستوثق من خبر إطلاق جعفر بن يحيى ليحيى بن عبدالله من حبسه من عين كانت له عليه من خاص خدم جعفر البرمكي، حيث دخل على الرشيد وأخبره الخبر، فأراه الرشيد أنه لا يعبأ بخبره وقال: وما أنت وهذا لا أمّ لك! فلعل ذلك عن أمري، فانكسر الفضل.

لما حضر جعفر عند الرشيد، دعا الرشيد بالغداء، فأكلا وجعل يُلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال له الرشيد: ما فعل يحيى بن عبدالله؟ قال جعفر للرشيد: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال، قال: بحياتي، فأحجم جعفر وكان جعفر من الفطنة والنباهة معرفة ما عناه الرشيد، وهجس في نفس جعفر أن الرشيد قد علم بشيء من أمره فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمتُ أن لا حياة به، ولا مكروه عنده. قال الرشيد: نِعْمَ ما فعلت، ما عددت ما كان في نفسي، فلما خرج جعفر أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجه ثم قال الرشيد قولته «قتلني الله بسيف الهدى....»، وكان جعفر قد أطلق سراح يحيى بن عبدالله وصحبه وأعطاه كتاب أمان موقع منه، يأمن به على نفسه ومن معه من أصحابه إذا عُرض له. وقال له جعفر: اذهب حيث شئت من بلاد الله وبعث معه من أوصله إلى مأمنه.

هذا وكان يحيى بن خالد البرمكي قد خدم وأولاده يحيى بن عبدالله، كما خدمه آل برمك خدمة عظيمة لأنه من آل البيت وهذا يدل على مدى حب البرامكة وولائهم ليحيى العلوي، لكنهم كعادة الشيعة من التقية يُظهرون غير ما يُبطنون.

يُنسب إلى الفضل بن يحيى شقيق جعفر لمّا أصبح والياً على المشرق (بلاد خراسان) أنه بلغه مكان يحيى بن عبدالله فكتب إليه قائلاً: «إني أحب أن أُحدث بك عهداً، وأخشى أن تبتلي به وأبتلي بك، فكاتِبْ صاحب الديلم، فإني قد كاتبته لك لتدخل في بلاده فتمتنع به»[1].

يظهر من الأحداث التي ذكرناها أن الفضل بن الربيع كان يُحرك سعاته وجواسيسه لينال من يحيى بن عبدالله عند الرشيد، فالفضل بن الربيع كان يحاول أن ينال عند الرشيد مركز البرامكة فينال الحظوة عند الرشيد.

---

(١) مقاتل الطالبين، الأصفهاني، ص٤٦٧.

توفر عند الرشيد وقرّ في نفسه أن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته، وبدأت تظهر للعيان وللرشيد مثالب البرامكة وأثرتهم وما صار إليهم من عظيم الأموال وجلائل المدح والتقدير له بدل الخليفة فبدأت تظهر على الرشيد آثار النفرة والريب بهم وظن كل منهم في الآخر الظنون.

يروي طبيب الرشيد بختيشوع عن أبيه جبريل قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا استئذان، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وردّ السلام، ردّ عليه الرشيد رداً ضعيفاً، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير عند الرشيد، ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك، فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك، قال: فما بالنا يدخل علينا بلا إذن، فقام يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، قدمني الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري، حتى إنْ كنت لأدخل عليه وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يُحب، وإذا علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك، قال: فاستحيا الرشيد، وكان من أرق الخلفاء وجهاً وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه ثم قال: ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون... قال جبريل فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى.

بلغ من كُره الرشيد للبرامكة ما حدّث به محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر قال: دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان إليه، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مُر الخدم ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار، قال فدخل يحيى فلم يقم إليه أحد فتغير لون وجهه (اربدّ) بل إن الغلمان والحجاب إذا رأوه أعْرضوا عنه، قال فكان ربما إذا استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه، ولا يسقونه إلا بعد أن يدعو إليه مراراً.

هذا وقد عاش البرامكة حياة الرخاء والرفاه حتى أن جعفر بن يحيى شقيق الرشيد في الرضاعة قد أنفق نحواً من عشرين ألف ألف درهم على بناء قصره.

حدّث زيد بن علي عن إبراهيم بن المهدي أنّ جعفر بن يحيى قال له يوماً - وكان جعفر صاحبه عند الرشيد - أنّي قد اشتريت بأمر هذا الرجل (يعني الرشيد) وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق لي منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيري فكنت أنت فارمق ذلك في يومك هذا وأعلمني ما ترى منه. قال إبراهيم: ففعلت ذلك في يومي.

وهكذا يتبين أن النفور والريبة وقعت في قلب كل من الطرفين للآخر وأخذ الخليفة الرشيد يتحين الفرصة للإيقاع بالبرامكة وخاصة (جعفر بن يحيى البرمكي) لما كان منه من إطلاق يحيى بن عبدالله من حبسه، في هذا دليل على عدم إخلاصه للرشيد وللبيت العباسي وقام الفضل بن الربيع وزبيدة زوجة الرشيد التي انحرفت عن جعفر بعد تحيزه للمأمون فهو الذي عمل جاهداً على تولية المأمون للعهد بعد أخيه الأمين لأن أمه فارسية، لذا تخوف الفضل وزبيدة من جعفر أن يكون سبباً في الإيقاع بين الأمين والمأمون عند وفاة والدهما الرشيد، لذا كانت زبيدة توغر قلب زوجها الرشيد على جعفر البرمكي كلما سنحت لها الفرصة.

لذا لما سيطر البرامكة على: الوزارة، الكتابة، القيادة، الحجابة، السيف والقلم ووصول الهدايا لهم من أقصى التخوم والمهالك كما استجابوا للضعفاء وأجاروا المذنبين مما أهاج كامن الغيرة والانتقام من جماعة الحسّاد ومن طائفة العرب ضد العجم.

السبب الثالث:

اشتطاطهم في الدالة على الخليفة والجرأة على الأمراء وعملهم ما يريدون في الدولة دون تحفظ وإمضاء إرادتهم حتى على الخليفة ونسائه.

وبلغ من سطوة جعفر البرمكي وسلطته أن قال لعبدالملك بن صالح (من أعمام الرشيد) عندما طلب لابنه إبراهيم مصاهرة أمير المؤمنين ومنحه ولاية مصر،

فقال له جعفر ودون استئذان من الخليفة، قد زوجه أمير المؤمنين ابنته عائشة الغالية عنده، كما ولاّه أمير المؤمنين مصر.

قال ابن عبد به والذهبي، ثم انصرف عبدالملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير استئذان، فلما كان الغد وقفنا على باب أمير المؤمنين، ثم دخل جعفر ولم يلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي وبمحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبدالملك فعقد له النكاح وكتب سجل إبراهيم على مصر، ثم خرج جعفر، فلما وصل منزله ونحن خلفه، نزل ونزلنا بنزوله، ثم التفت إلينا وقال: تعلقت قلوبكم بأول أمر عبدالملك فأحببتم أن تعرفوا آخره، وإني لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه سألني عن أمسي (قصة الحجامة مع إبراهيم المهدي) فابتدأ أحدّثه بالقصة من أولها إلى آخرها، فجعل يقول أحسن والله! ثم قال: فما أجبته؟ فجعلت أخبره وهو يقول في كل شيء: أحسنت وخرج إبراهيم والياً على مصر. وهذا دليل على مدى تبجح جعفر ودالته على الرشيد بأمور لا تكون لأحد أبداً، فقد زوّج جعفر إبراهيم من ابنة الخليفة كما ولاّه على مصر، وهذا كله من اختصاص الخليفة وحده لا يشاركه فيها أحد، لكن جعفر وبحكم مكانة أسرة البرامكة عند الرشيد تطاول قدره وتجاوز حده ففعل ما فعل، وما كان لذلك مستقبلاً من نتائج عكسية على جعفر البرمكي.

وعبدالملك بن صالح هو عم الخليفة الرشيد وأحد قواده المشهود لهم بالحكمة والمقدرة والشجاعة، عبدالملك هذا الذي غضب عليه الرشيد يوماً، فأحضره مقيداً وحدّثه غاضباً، فردّ عبدالملك مستعطفاً مُنكراً ما نُسب إليه من رغبته في الخلافة، والتحريض ضد الرشيد، وما عمله جعفر البرمكي هدفه أن يضع من مقام عبدالملك عند الرشيد فقال له: يا عبدالملك، بلغني أنك حقود، فقال: أصلح الله الوزير إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي أنهما لباقيان في قلبي، فهذا الوزير الفارسي يضع من قدر الأمير الهاشمي أما الرشيد الهاشمي!!! وهذا يدل على مدى مكانة جعفر وسطوته ودالته على الخليفة الرشيد.

هذا وقد حاول الفضل بن يحيى البرمكي شقيق جعفر التعالي وبعنجهية على الخليفة الرشيد، ومحاولته دائماً النيل ما يمت للعرب، وحدث هذا أما الأديب الأصمعي،حيث قال الرشيد لخادمه عندما أراد أن يلبس نعله: ارفق ويحك، حسبك قد عقرتني فاغتنم الفضل قول الرشيد فقال: «لله درّ العجم ما أحكم صنعتهم، لو كانت سندية ما احتجت إلى هذه الكلفة» فقال الرشيد: «هذه نعلي ونعل آبائي رحمة الله عليهم، وتلك نعلك، ونعل آبائك، لا تزال تعارضني في الشيء ولا أدعك بغير جواب يمضك»[1].

يتجلى من هذه القصة مدى اعتزاز الفضل البرمكي بفارسيته، مما ضايق الرشيد واضطر للرد عليه بردّ مؤلم، لذلك كان هذا العالي والعنجهية من ضمن الأسباب التي بيّتها الرشيد للإيقاع بهم.

السبب الرابع:

تململ الشعب من حكم البرامكة الفرس، واستشعاره بمدى خطرهم على الأمن الداخلي، واتضح ذلك من رسالة محمد بن الليث رفعه إلى الخليفة الرشيد يعظه فيها يقول فيها:

«إن يحيى بن خالد لا يُغنى عنه من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت يا رب إني استكفيت يحيى أمورَ عبادك؟».

استدعى الرشيد يحيى وقد علم بالرسالة فقال ليحيى: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأي الرجال هو؟ قال: متهم على الإسلام، فأمر به وضع في المطبق دهراً، فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، فأُحضر، فقال له بعد مخاطبة طويلة، يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: تقول هذا؟! قال: نعم،

---

(١) العقد الفريد، ج٦، ص١٥٩، نقلاً عن كتاب هارون الرشيد الخليفة المظلوم، ص٧٦-٧٧.

وضعت في رجلي الأكبال، وحُلْتَ بيني وبين العيال بلا ذنبٍ أتيت، ولا حدث أحدثت، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله، ويحب الإلحاد لأهله، فكيف أُحبك؟ قال له الرشيد: صدقت، وأمر بإطلاقه ثم قال: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب ما في قلبي، فأمر الرشيد أن يُعطى مائة ألف درهم، فأحضرت، قال: يا محمد: أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم، قد أنعمت عليّ، وأحسنت إليّ، قال: انتقم الله من ظلمك، وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك، قال: فقال الناس في البرامكة فأكثر وكان ذلك أول ما ظهر من تغير حالهم[1].

قال الشاعر يحث الرشيد على الفتك بالبرامكة بعد مقتل جعفر البرمكي، قال:

قــــلْ للخليفــــة باكتفائـــــه ... دون الأنــــام بحـــسن رائــــهْ
أمّـــــا بـــــدأت بجعفـــــرٍ ... فاســـق البرامـــك مـــن أنائـــهْ
مـــــا برمكــــي بعـــــده ... تقـــف الظنـــونُ عـــلى وفائـــهْ

هذا وقد دسّ للرشيد من بطانته هذه الأبيات لإثارته ضد البرامكة:

ليــت هنــداً أنجزتنــا مــا تعــد ... وشــــقتْ أنفــسنا ممــا تجـــد
واســـــتبدّت مـــــرةً واحـــــدةً ... إنـــما العـــاجز مـــن لا يـــستبد

فقال الرشيد بعد سماعه هذه الأبيات «أيْ والله إني عاجز»[2].

وما رآه الرشيد من سلوكيات البرامكة الشاذة حدا به أن يُنكل بهم بعد أخذه العهد عند أستار الكعبة أثناء حجه، لابنه الأمين ومن بعده المأمون، وأشهد على ذلك الأمر القادة وأعيان الناس، وعلق ذلك على أستار الكعبة ليشهده الجميع وبعد أخذه العهد لولديه ورجوعه إلى بغداد من الحج قام بالتنكيل بالبرامكة بعد قتله لجعفر البرمكي.

---

(١) تاريخ الطبري، ج٨، ص٢٨٨.

(٢) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن، ج٢، ص١٦٨.

أقدم الرشيد على نكبته للبرامكة لأنه أصبح يخشاهم على نفسه، وعلى أولاده، لذا عجّل الرشيد بالتنكيل بهم، هذا وازدادت خشيته منهم بعد تشكيل الفضل بن يحيى البرمكي لجيش كبير في خراسان سمّاه العباسية والذي بلغ تعداده خمسون ألفاً، قدم بعشرين ألف منهم إلى بغداد، أفلا يخشاهم الرشيد بعد ذلك ويتخلص منهم.

السبب الخامس:

العداوة والكراهية التي بدت تظهر بين زوجة الرشيد زبيدة وبين من بيده الكثير من السلطات يحيى البرمكي وخاصة بعد أن أخذ يضيق على عيال الرشيد في النفقة بل منعها من خدمها وإغلاقه الأبواب عليها وأخذه للمفاتيح وبلغ بها الضيق أن زبيدة شكت يحيى البرمكي لزوجها الرشيد.

ومن أسباب الكراهية أيضاً أن جعفر البرمكي اهتم برعاية المأمون بن الرشيد أكثر من الأمين لأن والدة المأمون مراجل فارسية الأصل، كما أن جعفر ووالده يحيى استمرا في محاولتهم بأن يعهد الرشيد بالخلافة من بعده لولده المأمون، مما أثار زبيدة والدة الأمين وأزعجها وتحريضها لزوجها الرشيد ضد البرامكة.

وكذلك كانت هناك كراهية بين الفضل بن الربيع العربي وبين البرامكة الفرس، فكان يحيى البرمكي يكيد للفضل بن الربيع باستمرار ويمنع عنه كل ما يستطيع من مناصب عليا، ولأن الرشيد بعد وفاة والدته الخيزران أعطى الخاتم للفضل بن الربيع ثم أخذه منه بعد مدة قصيرة بكيد وتدبير من يحيى البرمكي لذا أوشى بهم الفضل عند الرشيد كما نشر عيونه بينهم وحولهم مما ساعد في الإسراع في نكبتهم.

كما كانت هناك عداوة مستحكمة بين قواد الرشيد من العرب وبين البرامكة، فقد حاول يحيى البرمكي منع الرشيد من تولية قيادة الجيش المتوجهة لقتال الخارجي الوليد بن طريف إلى القائد العربي يزيد بن مزيد الشيباني، كما تولدت العداوة الواضحة بين أمراء بني هاشم والأمراء العرب وبين البرامكة، الذين سعوا

باستمرار لإبعاد القادة العرب عن القيادة وتقريبهم للقادة الفرس ومحاولتهم إعادة الكسروية إلى عروش المسلمين، قال الشاعر:

قُلْ لأمين الله في أرضه ... ومن إليه الحلُّ والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا ملكاً ... مثلك ما بينكما حدُّ
أمرك مردود إلى أمره ... وأمره ليس له رِدُّ
ونحن نخشى أنه وارث ... مُلكك إنْ غيبكَ اللحد

وفي النهاية انتصر العرب على العجم فبعد قتل الرشيد لجعفر البرمكي أسند الوزارة للعربي الفضل بن الربيع نصير الحزب العربي، كما بدأ الرشيد يُشرف على الحكم بنفسه فأصبح يتنقل بين أجزاء مملكته متفقداً لها وأصبح يقود الجيوش بنفسه ضد الدولة البيزنطية وضد الثائرين عليه.

السبب السادس:

عبادتهم للنيران (عبادة المجوس) ذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه (تاريخ الإسلام) نقلاً عن البغدادي في تاريخه (ج١٠ ص٨٢) عندما تكلم عن الباطنية قال: «ولم يُمكنهم إظهار عبادة النيران وهي عبادة المجوس، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين: ينبغي أن تُجمّر المساجد كلها، وأن تكون في كل مسجد مجمرةٌ يوضع عليها الند (الطيب) والعود في كل حال، ويرميهم بالزندقة والميل لمذهب المجوس، وقد زيّنوا للرشيد أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة وأن تصير بيت نار»[١].

وذكر ابن النديم في الفهرست (ص٤٧٣) أن أسرة البرامكة بأسرها عدا محمد ابن خالد بن برمك كانت من الزنادقة، لذا لم ينل محمد أي أذى من الرشيد كما حدث لأقاربه من أسرة البرامكة، ومن دلائل اتهامهم بالزندقة أن يحيى البرمكي

---

(١) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم، ج٢، ص١٧٢.

كان يجمع في داره العلماء من أهل النحل والأديان المختلفة ويجعلهم يتناظرون مع العلماء المسلمين في بحوث فلسفية (الكون، القدم، الحدوث، الحياة، العدم، الإمامة)، لكن يبدو أن هذه المهمة كسبب من أسباب القضاء عليهم تعتبر ضعيفة ولو كانت صحيحة لاتخذها الرشيد من أحد الأسباب الرئيسية للقضاء عليهم.

يذكر الخطيب البغدادي: أن البرامكة آووا الكثير ممن اتهموا بالزندقة مثل هشام بن الحكم الرافضي وغيره.

يروي الكاتب الأديب (الجاحظ) عن ثمامة قال: «كان أصحابنا يقولون: لم يكن يرى بجليس خالد البرمكي دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمّه إن كانت أمة، أو أدى مهرها إن كانت حُرة، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها، أما من نتاجه أو غير نتاجه»[1].

قال الأديب الأصمعي في البرامكة:

إذا ذُكر الشرك في مجلس ... أنارتْ وجوه بني برمك
وإنْ تُليت عندهم آية ... أتوْا بالأحاديث على مزدك

كما نُقل عن ابن كثير «ويقال عن البرامكة كانوا يريدون خلافة الرشيد وإظهار الزندقة»[2]، هذه الروايات تتهم البرامكة بالكفر وهذا يحتاج إلى أدلة قوية وعلم يقيني، لكن من دراستنا لتاريخ البرامكة ومشاهداتنا لأعمالهم نرى أنهم يعملون سراً لعودة الفرس للحكم وإعادة مجد الدولة الفارسية.

السبب السابع:

وخلاصة السبب السادس خوف الرشيد من البرامكة على نفسه وعلى ولده الأمين وزوجه زبيدة وينضم لما سبق خوف الرشيد على نفسه من عمه عبدالملك بن

---

(١) الجهيشاري، ص١٧٣.

(٢) البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٦.

صالح لعباسي فقبض عليه بعد اتهامه له بالتآمر عليه فأرسل الرشيد ليحيى البركي يسأله عن صلته بعمه عبدالملك، أنكر يحيى أي صلة له به ضد الرشيد، بينما شهد على عبدالملك ولده إبراهيم وكاتبه أنه كان يريد الخلافة لنفسه وأنه يسعى للخروج على الرشيد، لذا اشتد الرشيد على يحيى البرمكي بالأذى وضيّق عليه بالحبس بعد قبضه على عبدالملك.

عندما ذهب الرشيد للحج سنة ١٨٧هـ أخذ البيعة لولديه الأمين ثم المأمون وأخذ عليهما أوثق الأيْمان وأغلظها لتنفيذ ما أوصى به وفي هذا الموسم عرض أثناء ذلك ولثلاث مرات بمن أسماهم أعداء النعم، لذا فبعد عودة الرشيد من الحج ووصوله إلى الأنبار قرب بغداد ولخوفه على ولديه قبض على جعفر البرمكي ثم قتله وسجن باقي أفراد أسرة البرامكة عدا محمد البرمكي كما سبق ذكره، كما سجن من يمت لأسرة البرامكة بصلة من أهل وخدم، وبعمله هذا فهم أنه كان يقصد بقوله في موسم الحج بدفع كيد أعداء النعم أي البرامكة.

يقول المؤرخ الأستاذ محمد كرد علي في كتابه (الإسلام والحضارة) نقلاً عن كتاب (نظام الوزارة): «ولما رأى الرشيد أن ملكه في خطر محقق، من نفوذ وجبروت آل برمك ووزرائه وخاصته، لانصراف الوجوه إليهم، لكثرة ما أحسنوا إلى الناس، ولإجماع القاصي والداني على حبهم، حتى ساووا الخليفة وأربوْا عليه في المكانة، أمر بالقبض عليهم، ومصادرتهم وقتلهم، وذلك لأنه خافهم على ملكه، وهم فرس لهم نفوذ قديم، والفرس يحاولون منذ القرن الأول، أن يعيدوا المُلك فيهم فارسياً ويخرجونه عن صبغته العربية».

مما سبق ذكره من أسباب أدت لنكبة البرامكة، نرى أن الرشيد لم ينقلب فجأة على البرامكة، وإنما بعد أن تجمعت عدة عوامل سبق التطرق إليها، كان إحداها الذي قصم ظهر البعير، ولم يكن الرشيد كما يدعي البعض أنه متقلب العاطفة يحب بسرعة ويكره بسرعة، لكن الحقيقة أنه ذو شخصية متزنة وهادئة، تحس بالحب

وتشعر بالكره، لا يأخذ أحـداً دون ذنـب، ولا يُقـرب عاصـياً لقرابـة أو جـاه، ولا يعاقب إلا بعد الإدانة.

من دراستنا للأسباب السابقة التي ذكرها عدد من المؤرخين، نرى أن هـارون الرشيد لم ينقلب فجأة على البرامكة المقربين منه، وأن إيقاعه بهم لم يكن عن عاطفـة أو هوى هذا وقد حُكي عن قثم بن جعفر بن سليمان الذي كان عاملاً على المدينة ثم أميراً على البصرة قال: «حدثني حسن الخادم قال: أشهد بـالله، لكنـت مـع الرشـيد وهو متعلق بأستار الكعبة، ثوبي يمس ثوبه، ويدي تمس يده وهـو يقـول في مناجـاة ربه (اللهم إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى» ثم قتله بعد ذلك بخمـس أو سـت سنين[1]، فكان الرشيد قد بيّت النية للإيقاع بالبرامكة بعد جمعه الكثير من الأسباب للإيقاع بهم ولم ينقلب عليهم فجأة.

ومن دراستي للأسباب السابقة أميل إلى أن السبب الرئيس للإيقـاع بهـم هـو خوفه منهم على نفسه وولده بعد أن أصبح لهم من القوة والنفوذ بما زاد عـن مكانـة الخليفة وعبادتهم للنار سراً (المجوسية) وتخطيطهم للقـضاء عـلى الخلافـة العباسـية وإحياء مجد دولة فارس التي قضى عليها المسلمون.

وبالإضافة لما سبق ذكره مـن أسـباب فهنـاك أسـباب أخـرى أوردهـا بعـض المؤرخين ويمكن أن تكون طرفاً من الأسباب السابقة ومنها:

١ – قصة العباسة أخت الرشيد التي أورده بعـض المـؤرخين ومـنهم الطـبري وملخصها:

العباسة أخت الرشيد كانت أديبـة مثقفـة، يحـب الرشـيد مجالـستها ومجالـسة صديقه ورفيق طفولته (جعفر بن يحيى البرمكي) وهو أخ للرشيد في الرضاعة.

---

(١) نصيحة الملوك للإمام الماوردي، ص٢٧٦.

كانت العباسة متزوجة من الأمير العباسي محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله ابن عباس، كانا يعيشان في البصرة، لما توفي زوجها انتقلت للمعيشة في القصر مع أخيها الرشيد، ولما كان الرشيد يحب مجالسة أخته الأديبة وصديقه جعفر، يقال إن الرشيد عقد لأخته العباسة عقداً صورياً على جعفر ليجتمع الثلاثة مع بعض، وطلب الرشيد من جعفر عدم اللقاء بأخته لقاء الأزواج، لكن جعفر اتصل بالعباسة اتصال الأزواج وحملت منه وأنجبت طفلاً دون معرفة الرشيد، وظل الأمر مستوراً حتى حدث خلاف بين العباسة وبعض جواريها فأخبرت الجارية الرشيد بما حدث وأخبرته بمكان الصبي ومن معه من الجواري، ولما حجّ الرشيد طلب الصبي ومن معه من حواضنه، وأراد قتل الصبي ثم عدل عن ذلك، ولما عاد من الحج سنة ١٨٧هـ انتقم من البرامكة وقتل جعفر البرمكي، لكن يظهر في هذه القصة الخيال والاختراع فكيف لا يعرف الرشيد بحمل أخته وإخفاء حملها وولادتها، لكن القصد من إخراجها الحط من مكانة الرشيد والطعن في شرفه وكرامته والأرجح أن هذه القصة من وضع الحركة الشعوبية الفارسية التي أرادت الانتقام من الخليفة الهاشمي العربي بعد نكبته للبرامكة، فكيف بالخليفة الورع التقي الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً ويلتقي بخيرة العلماء، أن يجمع بين أخته العباسة وجعفر البرمكي في زواج صوري، هذا وقد هاجم ابن خلدون في مقدمته هذه القصة وأوضح زيفها، كما أن الأصفهاني لم يذكرها في كتابه الأغاني.

ولو افترضنا جدلاً صحة هذه القصة، لاقتصر الرشيد في انتقامه على معاقبة المجرم فقط جعفر البرمكي وليس كل أسرة البرامكة.

٢- يُرجع بعض المؤرخين أن نكبة البرامكة، ترجع إلى حدٍّ كبير للصراع الخفي القائم بين حزبيْ العرب والعجم والذي استمر في عهد الأمين والمأمون ولما وصل المعتصم للحكم اضطر لاستخدام عنصر جديد في الإدارة والجيش من أخواله من العنصر التركي، وقد ظهر هذا الصراع جلياً فيما سبق أن ذكرناه، خاصة

الدور الذي قام به الفضل بن الربيع ضد البرامكة في خلافة الرشيد. تجلى هذا الصراع بوضوح بين العرب والعجم في خلافة الرشيد الذي عهد لولاية العهد لابنه الأمين ابن زبيدة الهاشمية وبتأثير من الحزب العربي وكان على رأسه زوجة الرشيد زبيدة وحاجبه الفضل بن الربيع وتمت البيعة للأمين، لكن ذلك لم يُرض العنصر الفارسي واستمر ضغطهم على الرشيد حتى أخذ ولاية العهد من بعد الأمين لأخيه المأمون سنة ١٨٢هـ ووثق ذلك عند حجه عند أستار الكعبة وقام الرشيد بتعيين المأمون ولاية المشرق، ووالدة المأمون من أصل فارسي واسمها مراجل، وقد أيده البرامكة ودعموه، لذا لما حج الرشيد سنة ١٨٦هـ أخذ معه ولديه الأمين والمأمون وهناك وعند البيت الحرام وعند أستار الكعبة أخذ الرشيد المواثيق المؤكدة على ولديه بأن يُخلص كل منهما لأخيه وأن يترك الأمين لأخيه المأمون ولاته بلاد المشرق وعلّق الرشيد هذه لمواثيق على شكل مراسيم وتعليقها في الكعبة.

ومن خلال هذا الصراع الخفي ضمن العرب الخلافة للأمين العربي النسب وضمن العجم بزعامة البرامكة للمأمون ولايته للمشرق بتأييد من أخواله من العجم ومن علائم هذا الصراع بدأ حاجب الرشيد الفضل بن الربيع العربي تأليب الرشيد ضد البرامكة حتى تم الإيقاع بهم حيث حذره من استبدادهم بالأمر وكان الرشيد قد تلقى رقاعاً شعرية تصور خطورة الحالة وسطوة البرامكة على أمور الدولة سبق ذكرها ومنها:

قـــلْ لأمـــين الله في أرضـــه   ومـــن إليـــه الحـــل والعقـــد
هـــذا ابـــن يحيـــى غـــدا ملكـــاً   مثلـــك مـــا بيـــنكم حـــد

مقتل جعفر البرمكي ونكبة أهله:

سبق أن ذكرنا أن أمير المؤمنين هارون الرشيد عند حجه سنة ١٨٦هـ كتب ووثق ولاية العهد لولديه الأمين ثم المأمون وإعلام أمصار دولته بذلك.

بعد أداء الرشيد لمناسك الحج عاد للعراق ونزل العُمْـر بناحيـة الأنبـار حيـث يقيم جعفر بن يحيى البرمكي وكان الرشيد وجعفر لا يفترقان إلا عند النوم.

لما كانت ليلة السبت من شـهر المحـرم سـنة ١٨٧ هـ أرسـل الرشـيد خادمـه (السياف) مسرور ومعه حماد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند، طـافوا بجعفـر وأخرجوه إلى دار الرشيد وهو مقيد بالـسلاسل وأعلمـوا الرشـيد بحـضوره، أمـر الرشيد السياف مسرور بضرب عنق جعفر وقبلها لم يسمح الرشيد لجعفـر بمقابلتـه أو رؤيته حتى لا يستحي منه فلا يقتله. بعد مقتل جعفر، كتب الرشيد من العُمْر إلى السند بن شاهك صاحب الشرطة قائلاً له: «بسم الله الرحمن الرحيم. يا سـنديّ، إذا نظرت في كتابي هذا، فإن كنت قاعداً فقُم، وإنْ كنت قائماً فلا تقعد حتى تصير إليّ».

ركب السندي وابنه وأصحابه إلى الرشيد في العُمْر، قال الـسندي نزلـت عـن دابتي ووقفت، فأرسل إليّ الرشيد، فصرت إليه، ووقفت ساعة بين يديه، فقـال لمـن كان عنده من الخدم، قوموا، فقاموا فلم يبق إلا العباس بن الفضل بن الربيـع وأنـا، مكثت ساعة ثم قال للعباس: اخرج ومُر برفع النخانج المطروحة على الزوْ (نوع من السفن) ففعل ذلك، فقال لي: ادن مني، فدنوت منه، فقال لي: تـدري فـيما أرسـلت إليك؟ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين. قال: قد بعثـت إليـك في أمـر لـو علـم بـه زُرْ قميصي رميت به في الفرات، يا سندي من أوثق قوادي عندي؟ قلت: هرثمة، قـال: صدقت، قال: فمن أوثق خدمي عندي؟ قلت: مسرور الكبير، قال: صدقت، أمـضي من ساعتك هذه وجدّ في سيرك، حتى توافي مدينة السلام، فاجمع ثقـات أصـحابك وأرباعك، ومُرْهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبة، فإذا انقطعت الرُجل (جماعـة مـن الناس) فصرْ إلى دور البرامكة، فوكلْ في كل باب من أبوابهم صاحب ربع، ومُره أن يمنع من يدخل ويخرج - عدا باب محمد بن خالد - حتى يأتيك أمري.

قام صاحب الشرطة السندي بتنفيذ ما أمره به الخليفة، حتى قـدم إليـه القائـد هرثمة بن أعين، ومعه جعفر بن يحيى عـلى بغـل بـلا أكـاف مـضروب العنـق، وإذا

كتاب أمير المؤمنين يأمرني أن أشطره باثنين وأن أصلبه على ثلاثة جسور. قال ففعلت ما أمرني به.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل جعفر مصلوباً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خراسان، فقال: ينبغي أن يُحرق هذا، فلما مضى، جمع السندي له شوكاً وحطباً وأحرقه[1].

نفذ السندي ما طُلب منه فلم يفلت من البرامكة أحد وحُبسوا واستُلبت أموالهم، وأُخذت ضياعهم، وكتب هارون بما حدث لولاة الأقاليم، لكن الرشيد لم يضيق عليهم في حبسهم، حتى غضب الرشيد على عبدالملك بن صالح فعمّهم سخطه وضيّق عليهم من جديد، عدا محمد بن خالد بن برمك وأهله فلم ينلهم أي أذى لبراءتهم ولنصيحته للخليفة بأخبار البرامكة.

يتضح من الأسباب التي سبق الكلام عنها لما أصاب البرامكة أصحاب الجولة والكلمة الأولى والصولة من نكبات والسيطرة على أموالهم وضياعهم أن أقوى الأسباب لهلاكهم هو تآمرهم على الخليفة ومحاولتهم السيطرة عليه وازداد سخط الخليفة عليهم بعد تآمرهم عليه مع عمه عبدالملك بن صالح.

هذا ولم يندم الرشيد على نكبة البرامكة وضربه لعنق أخاه في الرضاعة جعفر ابن يحيى وسجنه لوالده يحيى البرمكي وإخوانه الفضل وموسى ومحمد وحبسه معهم كل معارضيه وظل بعضهم في السجن حتى وفاته، ولا صحة لقول ابن كثير ما نُسب إلى الرشيد في قوله: «لعن الله من أغراني بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رجاء، ووددت والله أني شطرت نصف عمري ومُلكي وأني تركتهم على حالهم»[2].

---

(١) تاريخ الطبري، ج٨، ص١٩٨.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج١٠، ص٢٠٠.

ورد في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه قول سهل بن هارون «فتبرأ منهم الحميم واستبعد عن نسبهم القريب، وجحد ولاءهم المولى، فلا لسان يخطر بذكرهم ولا طرف ناظر يشير إليهم».

ردّ الرشيد على رسالة من ابنه الأمين وزوجته زبيدة بعد محاولتهم الاستشفاع لهم لما قرأ الرشيد الرسالة وُقع في أسفلها: عِظَمُ ذنبك أمات خواطر العفو عنك ورمى بها إلى زبيدة.

هذا وقد كتب مُربي الرشيد الذي كان يناديه الرشيد «يا أبتِ» بيحيى بن خالد البرمكي كتب للرشيد «وإنْ كان الذنب يا أمير المؤمنين خاصاً فلا تعمم بالعقوبة، فإن لي سلامة البريء ومودة الولي» فوقع الرشيد راداً على رسالة يحيى «قُضِي الأمرُ الذي فيه تستفتيان».

وما سبق ذكره يتبين ويتضح لنا عدم ندم الرشيد عما أوقعه في البرامكة من نكبة ويتضح عظم الذنب الذي أخذهم به، والذي لم يُصرح به، أو يُفصح عنه، بل نُقل عنه أنه قال «لو عَلِم به زر قميصي لرميته في النهر».

علاقات الخليفة الرشيد الخارجية

عاصر الرشيد خلال خلافته عدة قوى خارجية أهمها: الدولة البيزنطية، دولة شارلمان، الدولة الأموية في الأندلس، دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وإليك أخي القارئ التفاصيل:

أولا: علاقة الرشيد بالدولة البيزنطية في القسطنطينية:

كانت علاقة العباسيين بدولة الروم (البيزنطية) سيئة منذ كان الرشيد صبياً في عهد والده الخليفة المهدي، الذي جهّز جيشاً كبيراً سنة ١٦٣هـ لحرب الروم بقيادة ابنه هارون الرشيد وكان معه كبار القواد والأمراء والأعيان وسبق ذكر ذلك آنفاً، وقد خرج الخليفة المهدي في وداعهم لمسافة بعيدة، فتح الله في هذه الحرب على يد

الرشيد بعض الحصون، ثم عُقد الصلح بين الطرفين على أن يدفع الروم الجزية للمسلمين، هذا وقاد الرشيد في عهد والده أيضاً حملة أخرى سنة ١٦٥هـ توغل خلالها في بلاد الروم ثم عقد صلحاً مع إمبراطورة الروم إيريني على أن تدفع للدولة العباسية جزية مقدارها تسعون ألف ديناراً عنها وعن شعوب مملكتها، وبعدها عاد الرشيد للعاصمة بغداد حيث استُقبل بالترحاب والمهرجانات لما حققه من انتصارات على الروم.

أما بعد استلام الرشيد للخلافة فالمشهور عند ثقات المؤرخين أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً وكان الغزو يتم في فصل الصيف (الصوافي) من كل عام.

بدأ الرشيد خلافته بغزوة سريعة لبلاد الروم، ثم عاد منها إلى الحج، قام الرشيد بعزل الثغور كلها عن منطقة الجزيرة وقنسرين وجعل من منبج في شمال الشام قاعدة لها وسمّاها بمنطقة العواصم وأقام فيها جيشاً كبيراً بشكل دائم، هذا واهتم الرشيد أيضاً بمنطقة الثغور الشامية بين آسيا الصغرى وسوريا، فقام بتعمير طرسوس وأضنة وعين زربة كما أقام حصوناً جديدة بين مرعش وعين زربة ولأهمية الثغور ومن شدة حرصه عليها عيّن عليها ابنه الثالث (أبو القاسم) الملقب بالمؤتمن وأعطى رعاية فائقة للجيش العباسي حتى أصبح من أقوى جيوش العالم في ذلك الوقت.

هذا وفي عهد الرشيد وفي سنة ١٧٢هـ قام إسحاق بن سليمان بن علي بغزو الصائفة (بلاد الروم) وقام سنة ١٧٤هـ بالصائفة الثانية عمه عبدالملك بن صالح حيث دخل بلاد الروم وفتح بلاداً كثيراً وفي سنة ١٧٥هـ دفع عبدالملك بن صالح بالصائفة الثالثة بقيادة ولده الذي فتح أقريطة وبعض الحصون سنة ١٧٦هـ وفي سنة ١٧٧هـ كانت الصائفة بقيادة عبدالرزاق بن عبدالحميد التغلبي، وفي سنة ١٧٨هـ كانت الصائفة بقيادة معاوية بن زُفر وفي سنة ١٨٠هـ بقيادة ابن معاوية محمد وفي سنة ١٨١هـ كانت الصائفة بقيادة الرشيد نفسه حيث فتح حصن الصفصاف فمدحه الشاعر مروان بن أبي حفصة قائلاً:

أنّ أمـــير المـــؤمنين المنـــصفا قـد تـرك الصفـصافة قاعـاً صفـصفاً

وفي هذه السنة أيضاً ١٨١هـ وصل عمه عبدالملك بـن صـالح إلى أنقـرة وقـام سنة ١٨٢هـ بالصائفة عبدالرحمن بن عبدالملك بن صالح الذي وصل في العمق على مدينة أفسوس (مدينة أهل الكهف) وانهزم القائد البيزنطي نقفـور في هراقليـا، ممـا اضطر إمبراطورة الروم إيريني أن توقع الصلح مع الرشيد ودفع الجزية كما سبق أن ذكرنا.

وفي سنة ١٨٧هـ قام الروم بخلع ملكتهم إيريني وسمل عيونها واستلم الحكم أحد قادتها المسمى نقفور سنة ٨٠٢م والذي نقض صلحه مع المسلمين وأرسـل إلى الرشيد يطالبه برد ما أخذه من الجزية من الملكة إيريني والرسالة التي بعث بها نقفور على أمير المؤمنين هارون الرشيد والتي أغضبته قال فيها:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة إيريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُخ، وأقامت نفسها مقـام البيـدق، فحملـت إليـك مـن أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النـساء وحُمقهـنّ، فـإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وآفند نفسك مما تقع به المـصادرة لك، وإلا فالسيفُ بيني وبينك».

لما قرأ الرشيد كتاب نقفور استفزه الغضب، حتى لم يقـدر أحـد أن ينظـر إليـه دون أن يخاطبه، وتفرق جلساؤه، ثم دعا بدواة وكتب على ظهر كتاب نقفور «بـسم الله الرحمن الرحيم. من هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى نقفـور كلـب الـروم، لقـد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام».

وهنا تظهر هيبة المسلم وقوة دولة الإسلام بالفعل والعمل لا بالقول واللسان فسار الرشـيد مـن يومـه في ١٣٥ ألفـاً سـوى الأتبـاع والمتطوعـة وتوغـل في آسـيا الصغرى حتى وصل مدينة هرقلة (أركلي اليوم) سنة ٨٠٦م ففـتح وغـنم واحـرق

وخرّب، حتى اضطر إمبراطور الروم نقفور إلى طلب الصلح على خراج يؤديه كل سنة فأجابه لما طلب، وبعدها رجع هارون من غزوته، فلما صار بالرقة، نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان وقتها الطقس بارداً بل شديد البرودة فلما وصل خبر نقض العهد إلى الرشيد عن طريق أبيات من الشعر منها:

نقض الذي أعطيتهُ نقفورُ ... وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... فتح أتاك به الله كبير
ورحبت يمينك أن تعجل غزوةً ... تشفي النفوس مكانها مذكور

بعد سماع الرشيد للأبيات كرّ راجعاً حتى بلغ بلاد نقفور وأقام فيها حتى شفى نفسه منهم ورضخوا لما أراد.

تمكنوا من قتله وخمسون من أصحابه وسلم الباقون بعون الله ورعايته، وبعدها ولّى الرشيد قيادة الصائفة لهرثمة بن أعين وضم إليه ثلاثون ألفاً من جند خراسان ومضى الخليفة الرشيد بنفسه إلى ثغر الحدث ليكون قريباً من أرض المعركة مع الروم.

لما أغار الروم على حصن مرعش وأصابوا عدداً من المسلمين، أمر الخليفة الرشيد بهدم الأديرة والكنائس من الثغور التي يقيم فيها مجاهدو الإسلام وأمر الرشيد بتغيير ملابس النصارى وركوبهم، نكالاً بما ترتكبه أيدي نصار الروم ثم اتفق مع الروم على تبادل الأسرى. وفي سنة ١٩٢هـ ولّى أمير المؤمنين الرشيد على الثغور ثابت بن نصر بن مالك الذي دخل بلاد الروم وفادى ما بأيديهم من أسرى المسلمين وعددهم ألفين وخمسمائة أسير.

هذا وكان يلبس أمير المؤمنين في تحركاته قلنسوة كُتب عليها غاز حاج.

وخلاصة القول أن المسلمين في خلافة الرشيد عاشوا في ثغورهم مع الروم في أمن وطمأنينة نظراً لما كان يقوم به أمير المؤمنين بنفسه من الغزو المتتالي والمتوالي ومعه عظام القادة وكبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية.

ثانيا: علاقة الرشيد مع أوروبا وملك الدولة الرومانية شارلمان (٧٦٩-٨١٢):

برزت شخصية الرشيد على المستوى الأوروبي نتيجة للعلاقة الودية والمتميزة بين وبين إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة شارلمان.

قامت بين الرجلين صلات ود وصداقة في الفترة بين (٧٩٧-٨٠٦م)، تبودلت بينهما السفارات وتقديم الهدايا.

بالنسبة للإمبراطور شارلمان فقد شمل حكمه فرنسا ولمبارديا وألمانيا وإيتاليا، قاد طوائف السكون في جرمانيا إلى الدين العيسوي، بعد أن كانت وثنية وهدفه من ذلك أن يكون له اسم كبير في الديار الشرقية لتعلو مكانته على مكانة إمبراطور القسطنطينية نقفور لرغبته أن يكون حامياً للعيسويين في البلاد الإسلامية وخاصة لزائري بيت المقدس.

أما الأغراض والأهداف لتطور هذه العلاقة وتميزها بين الرشيد وشارلمان:

١- إضعاف الدولة الأموية في الأندلس المنافسة للعباسيين في المشرق.

٢- إضعاف نفوذ منافسة إمبراطور الدول البيزنطية في القسطنطينية.

٣- أن يفيد شارلمان وشعبه من النهضة العلمية عند المسلمين في بغداد وقرطبة.

ومن الهدايا التي أرسلها الرشيد لشارلمان ساعة ظن شارلمان أنها من الأمور السحرية وهمّ بكسرها كما أرسل إليه بعض الأقمشة النفيسة.

المعلومات المتوفرة عن السفارات المتبادلة بين الرشيد وشارلمان مستمدة من المراجع الأوروبية فقط وللأسف فإن المراجع العربية لم تُشر لها، بينما أشار ابن عبد ربه في كتابه المشهور المعروف باسم العقد الفريد إلى قيام سفارة من ملك الهند على هارون الرشيد والتي حملت الهدايا الثمينة وقد استقبلت هذه السفارة في بغداد استقبالاً رائعاً.

هذا وقد استبعد ثقات المؤرخين الرأي القائل بأن الرشيد أراد من تحالفه مع شارلمان القضاء على دولة الأمويين في الأندلس، وبُعد هذا الرأي عن الواقع أن العلاقة بين الرشيد والأمويين في الأندلس لم تكن سيئة جداً كما صوّرها البعض، لكن السائد بينهما القطيعة للوضع السياسي وبُعد المسافة بينهما.

ثالثا: علاقة الرشيد بالهند والصين:

كانت هناك صلات تجارية وفكرية بين المسلمين والشرق الأقصى منذ الخلافة الأموية، حيث فتح الأمويون هذه البلاد في خلافة الوليد بن عبدالملك سنة ٩٣هـ حيث زار بعدها تجار المسلمين بلاد الصين.

وكما سبق أن ذكرنا سابقاً أن ابن عبد ربه ذكر في كتابه العقد الفريد أن ملك الهند قد أرسل إلى هارون الرشيد بهدايا نفيسة فقد أرسل إليه سيوفاً قلعية وكلاباً سيورية وثياباً هندية، لذا أكرم الرشيد وفادتهم، كما أمر الرشيد بإعطاء رسل ملك الهند بهدايا وتحف كثيرة وأحسن استقبالهم.

تذكر التواريخ الصينية القديمة، قيام سفارات عديدة بين البلاطين العباسي والصيني، في القرنين السابع والثامن الميلادي، ويبدو أن معظم هذه الصلات كانت صلات تجارية وثقافية. هذا وقد قدم إلى بغداد عالِم هندي ومعه رسالة في الفلك اسمها (السندهند سد ذانتا) وقد تُرجمت هذه الرسالة بأمر الخليفة المنصور إلى العربية على يد محمد إبراهيم الفزاري، كما أتحف هذا العالِم الهندي العالم الإسلامي برسالة أخرى في: علوم الرياضيات وخاصة الأعداد والكسور العشرية.

عاصمة الخلافة بغداد في عهد الرشيد

وصلت بغداد في عهد الرشيد قمة مجدها وعزتها وعظمتها حتى أطلق عليها (عاصمة الرشيد) جاوز سكان بغداد في عهد الرشيد مليوني نسمة ومظاهر عظمة بغداد في عهد الرشيد تجلّت في المظاهر الآتية:

أ- العمارة: فاقت بغداد في بنائها كل حواضر العام آنذاك، فقد تفنن المهندسون في أحكام قواعدها وبنائها، وصارت قصور الجانب الشرقي من بغداد

(الرصافة) تناوح قصور الجانب الغربي، كان في الشرق في منطقة الرصافة قصور البرامكة الفخمة والتي أُنفق عليها مئات الآلاف وخاصة قصر جعفر بن يحيى البرمكي، هذا إلى جانب الأسواق والجوامع والحمامات، ويوجد في الجانب الغربي من بغداد قصور الخلافة، التي بهرت أنظار الزوار وخاصة من رجالات السفارات الذين زاروا بغداد في اتساع هذه القصور وجمالها ودقة وفخامة بنائها، واصبحت بغداد لكبرها واتساعها كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبي نهر دجلة وكانت تصل لبغداد تجارات البلدان البعيدة، تصلها براً وبحراً من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين والشام والجزيرة، ومن الأمور التي يجدر الإشارة إليها أن طرق التجارة كانت ميسرة وآمنة.

ب- **ثروة الدولة**: كان يصل إلى الخليفة في بغداد ما تبقى من خراج الأقاليم الإسلامية، قدّر بعض المؤرخين ما يصل لدار الخلافة بأربعمائة مليون درهم، تدخل كلها في بيت المال، يصرف منه الخليفة مرتبات الوزراء المساعدين له، كان الرشيد سمحاً كريماً، يُعطي من لا يخشى فقراً للشعراء والكُتّاب والقصّاد، وبهذه الثروة الكبيرة في هذه المدينة العظيمة، اشتد فيها الترف ومما قيل إن جعفر بن يحيى البرمكي قبل نكبتهم بنى قصراً، أنفق على بنائه عشرين مليون درهم، ومما شهدته بغداد من الرفاهية والعمران أنها أصبحت تبهر أعين الزوار ما يرونه فيها، ولا يوجد عندهم مثله، ورغم هذا الترف والبذخ والأبهة استمرت القيم والمحافظة على السلوك والأخلاق وهذا دليل على مدى ثقة الناس بخليفتهم ومحافظته على سلوكيات رعيته فهو خليفة الإسلام والمسلمين.

ج- **العلم والعلماء في بغداد**: أصبحت بغداد قبلة لطلاب العلم من جميع الأقطار الإسلامية فكانت بغداد المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية واللغوية فظهر فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء ورجال الأدب واللغة والنحو.

هذا وكانت المساجد الجامعة، مدارس عليا لتلقي هذه العلوم، ولا يعتبر العالِم عالماً إلا إذا رحل لبغداد وتتلمذ على يد علمائها الأفذاذ، ولمعرفة الرشيد لقيمة

هؤلاء العلماء وأثرهم فقد أكرمهم وكان يجالسهم ويتناول الطعام معهم، وكانت حياتهم حياة هنيئة وعيشهم رغداً.

ورغم اهتمام بغداد بالعلوم الدينية واللغوية فلم تُقصر في علوم الدنيا من طب وحكمة وفلك وفلسفة.

ومن الآثار العلمية الجليلة في خلافة الرشيد تأليف كتاب الخراج للعالِم الفقيه تلميذ أبي حنيفة وأنجب من خرجهم العالِم (أبو يوسف) يعقوب بن إبراهيم الأنصاري هذا وقد وصل أبو يوسف في عهد الرشيد لأعلى المناصب وهو منصب قاضي القضاة.

هذا وقد شمل كتاب الخراج لأبي يوسف ثلاثة أمور هي:

١- بيان موارد الدولة ومصارفها حسب ما جاءت به الشريعة الغراء.

٢- بيان الطريقة المُثلى لجباية أموال الدولة.

٣- بيان بعض الواجبات التي يلزم بيت المال القيام بها، مما أغفله بعض الولاة في أقاليم الدولة الشاسعة ليكون مرجعاً لهم.

مكانة العلماء والشعراء في عهد الرشيد وسماعه لمواعظ العلماء ونماذج منها:

الرشيد الذي جعله الحظ وعمله الدؤوب وإخلاصه وتفانيه من أكبر ملوك الإسلام اسماً، وأوسعهم فكراً وأعظم مُلكاً وهو القائل للسحابة في كبد السماء «امطري حيث شئت فإن خراجك سيأتيني» الرشيد الذي دخل خزانته الخاصة ٤١١ مليون دينار من الذهب كل سنة وكانت عاصمته بغداد دُرة العواصم عظمة وسمعة وازدهاراً.

ويعتبر الرشيد ﷺ من أعظم حكام الإسلام، الذين جمعوا صلاح النفس، إصلاح الدولة جمع التوفيق بين الدين والدنيا، شخصيته مولعة بتحليل النفوس، نفوس الأحياء من الأصدقاء ومن الأموات من رجال التاريخ، يُستخلص من

تحليل نفسية الرشيد أنه جمع في شخصيته بعض المتناقضات من بذخ ولهو مفرط أحياناً وبين عبادة مفرطة وقتله لبعض الأبرياء، وبطشه بأصدقاء الأمس ومن أكثر المقربين إليه كأسرة البرامكة ورغم ذلك كان كثير البكاء عند سماعه لمواعظ العلماء وحجه ماشياً من بغداد إلى رفات وحرصه على وحدة المسلمين، وتحالفه مع شارلمان وتبادله الهدايا معه ليأمن تحالفه مع أعدائه البيزنطيين والأمويين في الأندلس.

كان الرشيد مؤمناً، محباً في قرارة نفسه للتقى والصلاح، منع الناس من الخوض في قضية بطشه بأسرة البرامكة، كان كثير الصلاة والتهجد، حتى أنه ليصلي في الليلة مائة ركعة كان محباً للعلماء ومجالستهم والسماع لمواعظهم وبكائه تأثراً منها، كان بكاؤه بإخلاص في جو ديني، وكان كثيراً يشعر بحاجته إلى مثل هذه المواعظ من العلماء، لترطيب قلبه في جو المُلك الذي يعيشه وزخارف الحياة وتوفر كل أسباب اللهو والبذخ المحيط به، لكنه كثيراً ما يعود لنفسه ويطلب العلماء لجانبه كما يُطلب الطبيب للمريض.

كان العلماء معه ثلاثة أصناف:

صنف ينافق ليرضيه ويأخذ من دنياه، وهؤلاء قلة لم ينالوا منه الخير الكثير وأن عاقبتهم الخيبة والخسران في الدين والدنيا والآخرة.

والصنف الثاني يُغلظ له القول، ويشدد عليه الموعظة، ويقوم بحق الله بلا مجاملة، ولا رعاية لمقامه الدنيوي (كخليفة) ولا يتعمدون ذلك بل يرونه الشكل الطبيعي، لأنهم مع الله دائماً، قد حقروا الدنيا وكل ما فيها من جاه ومال، ولم يعد يردعهم مُلْك ولا عظمة أمير، وهؤلاء أيضاً قلة، ردّوا عطاياه وجوائزه وكلهم حازوا احترامه وإكباره لهم[1].

(١) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٨٨.

والصنف الثالث وهم الكثرة من العلماء، كانوا يقولون الحق، ولكنهم يصوغونه الصياغة المقبولة بلباقة، ويعطونه الدواء ويسايرونه ولكن فيما لا يضرهم في دينهم من أمثال القاضي أبو يوسف والليث بن سعد.

وإليك أخي القارئ نماذج من هؤلاء العلماء ومواقفهم أمام الخليفة الرشيد:

أولا: الليث بن سعد المصري:

اختصم الرشيد وزوجه زبيدة والتي كانت تلومه على لهوه وبذخه أحياناً وتخوفه النار فقال لها: أنت طالق ثلاثاً إن لم يكن من أهل الجنة، وقع الرشيد في مشكلة فاستحضر العلماء، فلم يجرؤ أحد منهم على فتياه، حتى جاءه الإمام الهمام الليث بن سعد المصري، فوقف منه موقفاً غريباً كاد يودي إلى غضب الرشيد، والرشيد إذا غضب لا يُبصر من أمامه.

سأله، هل يخاف مقام ربه؟ قال: نعم، فأتى بالمصحف وحلفه بأوثق الأيمان، بالطلاق والعتاق والخروج من الخلافة، إن لم يقل إلا الحق، فلما حلف قال: أبشر يا أمير المؤمنين إن الطلاق لم يقع وإن لك جنتين لا جنة واحدة قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦].

ثانيا: القاضي عمر بن حبيب:

لم يُعرف عن الرشيد أنه بطش بعالم ويظهر ذلك جلياً في قصة القاضي عمر بن حبيب، لما ذكر الرشيد أبا هريرة واتهمه بالكذب، ردّ عليه عمر بشدة، ودعاه الرشيد والسيف أمامه ليضرب عنقه، فقال عمر يا رب إني دافعت عن صاحب نبيك فدافع عني. وقال عمر للرشيد: إذا كان الصحابة كذابين، كان الدين كذباً، لأنه مروياً عنهم، فعاد الرشيد إلى نفسه وعفا عنه، وأجازه وكرّمه. وهذا يدل على مدى تقديره للعلماء وتكريمه لهم وخاصة من اشتهروا بالرؤيا الصائبة وسرعة البديهة.

ثالثا: قاضي القضاة الإمام (أبو يوسف):

قال القاضي أبو يوسف في مقدمة كتابه الخراج واعظاً ومذكراً لأمير المؤمنين الرشيد:

«يا أمير المؤمنين، لقد قلدّك الله أمراً عظيماً، ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب، قلّدك أمر هذه الأمة، إلى أن قال: فلا تضيعنّ ما قلدّك الله من أمر هذه الأمة، ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد، فإنك إنْ فعلت ذلك أضعت، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، وإذا نظرت إلى أمرين، أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى، وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك سواء، القريب والبعيد، واحذر فإن الحذر بالقلب، وليس باللسان إلى أن قال: واعمل للموقف الأعظم الذي تنخلع فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج، لعزه ملك قهرهم جبروته، والخلق وآخرون بين يديه، ينتظرون قضاءه، ويخافون عقوبته، وكأن ذلك قد كان، فأعدّ للمسألة جوابها، فإن ما عملت قد أُثبت فهو غداً عليك يُقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله، في مجمع الأشهاد، إلى أن قال: إنك راعٍ وإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي بها حقها منك، ويضيعك بما أضعت أمانتك، وأن صلاح الناس بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم»(١).

يا الله من يجرأ أن يقول هذا الكلام لأي حاكم في عصرنا الحاضر فيغيب في السجون والمعتقلات، وقد يقتله زبانية السلطان.

رحم الله أولئك العلماء الأنقياء الأتقياء، الذين لا يخافون في قول كلمة الحق ولو على رقابهم، وجزاهم الله عنا خير الجزاء لصدقهم وإخلاصهم وأرانا الله من أمثالهم في عصرنا الذي نعيش.

---

(١) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٩٠-٩١.

رابعا: العالم الرباني سفيان الثوري:

عن أبي عمران الجوني، قال: لما ولي هارون الرشيد الخلافة، زاره الكثير من العلماء مهنئين ومباركين، فتح بيت المال واقبل يجيزهم بالجوائز السنية من بيت مال المسلمين، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد، وكان مؤاخياً لسفيان بن سعيد ابن المنذر الثوري، قديماً، وبعد توليه الخلافة هجره سفيان ولم يزره، اشتاق هارون إلى زيارة الثوري ليخلو به ويحدثه، فلم يزره ولم يعبأ بموضعه الجديد وإلا بما صار إليه من أمر الخلافة، فصعب ذلك على الرشيد فكتب إليه كتاباً قال له فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد ابن المنذر، أما بعد:

يا أخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى قد آخى بين المؤمنين، وجعل ذلك فيه وله، واعلم أني آخيتك مؤاخاة لم أصرم بها حبلك، ولم أقطع منها ودّك، وإني منطوٍ لك على أفضل المحبة والإرادة، ولولا هذه القلادة التي قلدْنيها الله لأتيتُك ولو حبواً، لما أجدُ لك في قلبي من المحبة.

واعْلم يا أبا عبدالله أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحدٌ إلا وقد زارني وهنأني بما صرت إليه. وقد فتحت بيوت المال، وأعطيتهم من الجوائز السبنة، ما فرجت به نفسي، وقرّت به عيني، وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبدالله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته فإذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل»[1].

وبعد أن كتب هارون كتابه إلى سفيان، التفت إلى من عنده والذين يعرفون سفيان الثوري وخشونته.

---

(١) الجهاد، ميادينه وأساليبه، د. محمد نعيم ياسين، ص٢٢٢.

قال الرشيد عليّ برجل من الباب، فادخل عليه عيّاد الطالقاني، فقال له خذ كتابي هذا، فانطلق به إلى الكوفة، فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور، ثم سل عن سفيان الثوري، فإذا رأيته، فالق كتابي هذا إليه، وعِ بسمعك وقلبك جميع ما يقول، فاحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به.

أخذ عبّاد الكتاب وانطلق به حتى وصل الكوفة، فسأل عن قبيلة بني ثور، فأرشدوه إليها، ثم سأل عن سفيان، فقيل له هو في المسجد.

قال عباد: فوقعت الكلمة في قلبي، فخرجت، فلما رآني نزلت بباب المسجد قام يصلي، ولم يكن وقت صلاة، فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت، فإذا جلساؤه قعود قد نكّسوا رؤوسهم كأنهم لصوص، قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته، فسلمت، فما رفع أحدٌ إلي رأسه، وردوا السلام عليّ برؤوس الأصابع، فبقيت واقفاً فما منهم أحد يعرض عليّ الجلوس، وقد علاني من هيبتهم الرعدة، ومددت عيني إليهم فعلت: إن المصلي هو سفيان، فرميت بالكتاب إليه، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه، فرجع فسجد وسلم وأدخل يده في كمه، ولفّها بعباءته، وأخذ فقلبه بيده، ثم رماه إلى من كان خلفه، وقال يأخذه بعضكم يقرؤه، فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً مسّه ظالم بيده.

قال عبّاد: فأخذه أحد الموجودين، فحلّه كأنه خائف من فم حيّة تنهشه، ثم فضّه وقرأه وأقبل سفيان يبتسم تبسم المتعجب، فلما فرغ من قراءته قال سفيان: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فقيل له: يا أبا عبدالله، إنه الخليفة، فلو كتبت إليه في قرطاس نقي؟ فقال الثوري: اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يُجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يُصلى به، ولا يبق شيء مسّه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا، فقيل له: ما نكتب؟ فقال اكتبوا:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد، الذي سُلب حلاوة الإيمان، أما بعد: فإني

قد كتبت إليك أعرفك أني قد صُرمت حبلك، وقطعت ودّك، وقليت موضعك، فإنك قد جعلتني شاهداً عليك، ما قرارك على نفسك في كتابك، بما هجمت، هجمت به على بيت مال المسلمين، فأنفقته في غير حقه، وأنْفذته في غير حكمه، ثم لم ترض بها فعلته وأنت ناءٍ عني حتى كتبت إليّ تُشهدين على نفسك، أما أني قد شهدت عليك أنا وإخواني الدين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى. يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعْلتك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل، أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام يا أم رضي بذلك خلق من رعيتك، فشدّ يا هارون مئزرك، وأعدّ للمسألة جواباً وللبلاء جلباباً، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل، رُزئت في نفسك، إذ سُلبتَ حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً.

يا هارون قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولو ينصفون، يشربون الخمر ويضربون من يشربها ويسرفون ويزنون ويحدون الزاني، ويسرفون ويقطعون يد السارق، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس! فكيف بك يا هارون غداً، إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] أين الظلمة وأعوان الظلمة، فقدمك بين يدي الله تعالى، ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكها إلا عدلك وإنصافك والظالمون حولك، وإنك لهم سابق وأمامهم إلى النار. كأني بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنك ترىٰ حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك، زيادة على سيئاتك بلاءً على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها.

واعلم أني قد نصحتك، وما أبقيت لك في النصح غاية، فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً ﷺ في أُمته وأحسن الخلافة عليهم.

واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك، وهو صائر على غيرك وكذا الدنيا تتنقل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته، فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام.

الله أكبر، ما هذه الجرأة من عالم رباني، وضع روحه على كفته في سبيل إبلاغ رسالته لأعلى منصب في الدولة لخليفة كان يحج عاماً ويغزو عاماً، فما بالنا اليوم، رحماك اللهم.

قال عبّاد: فألقي إليّ الكتاب منشوراً غير منطوي ولا مختوم، فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة، وقد وقعت الموعظة في قلبي، فناديت يا أهل الكوفة، فأجابوني، فقلت لهم يا قوم ، من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله، فأقبلوا إليّ بالدنانير والدراهم فقلت: لا حاجة لي في المال، لكن جبة صوف خشنة، وعباءة قطوانية، قال: فأتيت بذلك ونزعت ما كان عليّ من الناس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله، حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون الرشيد حافياً راجلاً فهزأ بي من كان على باب الخليفة ثم استؤذن لي، فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة قام وقعد، ثم قام قائماً، وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول انتفع الرسول وخاب المرسل، ما لي والدنيا، ما لي والملك يزول عني سريعاً ثم ألقيت الكتاب إليه منشوراً كما دفع إلي، فأقبل هارون يقرؤه، ودموعه تنحدر من عينيه، ويقرأ ويشهق، فقال بعض جلسائه، يا أمير المؤمنين، لقد اجترأ عليك سفيان، فلو وجهت إليه، فأثقلته بالحديد، وضيقت عليه السجن – انظر حاشية السلاطين ونفاقهم – كنت تجعله عبرة لغيره، فقال هارون: اتركونا يا عبيد الدنيا المغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه، وإن

سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه، ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله»[1].

خامسا: ابن السماك (من الزهاد):

في إحدى زياراته لأمير المؤمنين الرشيد، قال له الرشيد عِظني، قال: يا أمير المؤمنين، اتق الله وحده لا شريك له، واعلم أنك واقف غداً بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما: جنة أو نار، فبكى الرشيد فأقبل حاجبه الفضل بين الربيع على ابن السماك وقال له: سبحان الله، وهل يخالج أحداً شك أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة، إن شاء الله، لقيامه بحق الله وعدله في عباده؟ فالتفت ابن السماك إلى الرشيد وقال: «يا أمير المؤمنين، إن هذا - يعني الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك».

فوائد:

بلغ من حب الرشيد للعلم والعلماء أنه رحل مع ولديه الأمين والمأمون لطلب العلم وقراءة الموطأ على يد مالك بن أنس من بغداد إلى المدينة.

هذا وجعل الرشيد لطلاب العلم رواتب، لذا لم يعرف زمان كثر فيه العلماء ككثرتهم في زمان الرشيد، حتى كان الولد يحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين ويحفظ الحديث ودواوين الشعر في الحادية عشر، ويُناظر العلماء وهو ابن خمس عشر سنة.

بلغ من محبته للعلماء أنه أعلى منزلتهم حتى أنه كان يدعوهم إلى مائدته الخاصة، ويصب الماء بنفسه للمحدث أبي معاوية الضرير وهو يغسل يديه بعد الأكل وقال له الرشيد: أتدري من يصب عليك الماء؟ قال: لا. قال: أنا، لم يتحرك

(١) الجهاد ميادينه وأساليبه، د. محمد نعيم ياسين نقلاً عن إحياء علوم الدين، المجلد الثاني، ص١٢٦٨-١٢٧١.

العالم ولم يهتز، ولم يرَ فيها فعله إلا شيئاً عادياً، وقال للخليفة بهدوء: إنما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين، واستمر في غسل يديه.

قال الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره، وزراءه من أسرة البرامكة، وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه عمه العباس بن محمد وحاجبه الفضل بن الربيع، ومغنيه إبراهيم الموصلي وزوجته زبيدة.

قال أحدهم: كانت أيام الرشيد كلها خير، كأنها من حُسنها أعراس.

الشاعر أبو العتاهية:

قال الفضل بن يحيى، استدعاني أمير المؤمنين الرشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر العطاء والشراب لجلسائه ثم استدعى الشاعر (أبو العتاهية) وقال الفضل لأبي العتاهية صفْ لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم، قال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظلّ شاهقة القصور
تسعى إليك بما اشتهـ ... ـت لدى الرواح إلى البكور
فإذا النفوس تقعقعت ... عن ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ... ما كنت إلا في غرور

بكى الرشيد بكاءً كثيراً شديداً فقال له الفضل بن يحيى البرمكي، دعاك أمير المؤمنين تسرّه فأحزنته؟

قال له الرشيد: دعه فإنه وأنا في عمى، فكره أن يزيدنا عمى.

قال الرشيد مرة لأبي العتاهية، عظني بأبيات من الشعر وأوجز، فقال:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ... ولو تمتّعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت صائبة ... لكل مُدّرع منها ومُترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

ومن شده تأثر الرشيد بـما سـمع مـن أبي العتاهيـة - وهـذا دليـل عـلى مـدى صلاحه وتقواه - فخرّ الرشيد مغشياً عليه.

خلاصة علاقة الرشيد بالعلماء والشعراء

إن بلاط الرشيد وبطانته بـستان مزدهـر بـالعلم والمعرفـة والتقـوى والجهـاد غُرست في بلاطه الفضيلة فأينعت ثماراً طيبة، لا كما تقول روايات ألـف ليلـة وليلـة الخيالية، أو ما يزعمه بعض الشعوبيين بـأن حيـاة الرشـيد مـشوبة بـاللهو والـترف والمجون، حاشا لله أن تكون هذه صفة الحاكم البكّاء عند سماعه لأي موعظة الرجل الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً وبطانته المقربة إليه هي من خيرة العلماء من أمثـال: علي بن حمزة الكسائي مؤدبه ومؤدب ابنـه الأمـين والأديـب الأصـمعي والقـاضي يعقوب بن إبراهيم (أبو يوسف) صاحب كتاب (الخراج) والقاضي محمد بن الحسن الشيباني الدمشقي والقاضي حفص بن غيّاث وإمام دار الهجرة وأهل المدينـة مالـك ابن أنس والإمام الشافعي وإمام الديار المصرية الليث بن سعد والفضل بن عيـاض العالِم العابد الزاهد، وعبدالله بن المبارك، وسـفيان بـن عيينـة محـدث الحـرم المكـي وغيرهم الكثير. وهكذا نرى أن بطانة الرشيد من العلماء والفضلاء ومجالسه عـامرة بالعلم والأدب والحكمة.

وبُحسن اختيار الرشيد لبطانته سطع نجمه في عـالم الفتوحـات وعـالم الأدب والمعرفة.

الرشيد إنسان من البشر، أخطأ وأصاب وأخطـأ وتـاب، بـصماته واضـحة في التاريخ الإسلامي، ومكانته مرموقة بين خلفاء المسلمين، بلغت الحـضارة في عهـده أوج مداها وأصبحت في عهده بغداد العاصمة حاضرة العواصم.

ومن أعداء الرشيد الذين حاولوا تشويه سيرة هذا الخليفـة الفـذ الـذي خـدم الإسلام والمسلمين منهم:

١- **الطالبيون**: الذين يعتبرونه الخصم اللدود حيث اتهموه أنه وراء موت الكاظم ويحيى رحمهما الله.

٢- **الشعوبيون**: الذين يرون أن ضربته القاصمة للبرامكة هي ضربة قاصمة لمن يدعو لعودة الإمبراطورية الفارسية.

٣- **الكنيسة الأوروبية**: وهدفها من تشويه سيرته ﷺ انتقاماً لضرباته الموجعة التي وجهها للإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية وإجبارهم صاغرين على دفع الجزية لدولة الخلافة الذي سبق ذكرهم وصور هذا الحقد الصليبي للرشيد قول الشاعر:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

٤- بعض الكُتّاب القدامى والجدد مثل الأصفهاني في كتابه الأغاني وابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد وأحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام الذين اتهموه بشربه المسكر في مجالسه في أوقات منادمته.

وهذا قول الخبثاء الذين يريدون النيل من دين الرشيد والطعن في إسلامه والصحيح ما ذكرته كتب التاريخ بأن الرشيد كان يشرب النبيذ غير المسكر والذي كان يُرخص بشربه فقهاء العراق من الأحناف.

٥- القصص الخيالية التي أُسيء من خلالها للرشيد مثل قصة ألف ليلة وليلة التي انتشرت في مجالس العامة لإلهائهم عن القضايا السياسية الخطيرة وهذه القصص أقرب إلى الكذب منها إلى الحقيقة.

كان الرشيد يعتمد في فتاويه على قاضي القضاة في عهده العالِم الفقيه أبو يوسف الذي أنكر على الرشيد سماعه للغناء أحياناً الذي اعتمد على سماعه أحياناً على فتوى إبراهيم الزهري وأفعاله ممن زيّن للرشيد حِلّ الغناء وعدم حرمته.

وسماعه للغناء من إبراهيم الموصلي قبل رحيله للأندلس والمغرب إن صحّ ذلك فهو سيئة تذوب في بحر حسناته الكثيرة مع العلم أن الموصلي كان يتمتع بخلق قويم مداوماً على الطاعات كما كان يصحب الرشيد في مواسم الحج ولا يصدر عنه ما يخالف الدين والعُرف والتقاليد العربية.

كان الرشيد ﷺ من أحسن الناس سيرة وأكثرهم حجاً وجهاداً للشرك والمشركين وأعداء الدين، قال عنه الشاعر:

فمن يطلب لقاءك أو يُرده   فبالحرمين وأقصى الثغور

وما حاز الثغور سواك خلق   من المتخلفين على الأمور

ومما قيل عنه ﷺ :

- كان رحمه الله متورعاً، شديد البكاء، شديد التأثر بالذكرى والعظات، يستجيب للنصح والمواعظ، حتى يفيض بالبكاء.
- قال له الفضيل بن عياض في كلام كثير يعظه فيه ليلة بمكة: يا صبيح الوجه، أنت مسؤول عن هؤلاء كلهم وتلا قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة:١٦٦]، فبكى الرشيد حتى جعل يشهق.
- قال عندما حضرته الوفاة: اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة يا من لا يموت ارحم من يموت.
- كان الرشيد يُلقب بجبار بني العباس، لم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على بابه من العلماء والشعراء والكُتّاب والندباء.
- كان يطوف أكثر الليالي متنكراً لتفقد شؤون الرعية.

وللرد على هؤلاء المشوهين لسيرة الخليفة الورع، المجاهد، لنا من اليقين والقناعة، أن ما يهدي به الظالمون والتائهون عن الحق عن هذا الخليفة، ليس إلا

ضرباً من الأباطيل والافتراءات المكذوبة من أصحاب الأقلام المأجورة والمغرضة، الحاقدين على الإسلام ومن يناصره بالتشويه والتشكيل، ومهما يكن من ميل الرشيد الشاب أحياناً للهو في دائرة المباحات التي أحلها الله لعباده، مجتنباً المعاصي والمنهيات أما ما يدعيه بعض المغرضين من امتلاكه للآلاف من الجواري الحسان، فهذا مجرد تخريص وادعاء باطل وظالم، وهذيان فاجر، لا يصدقه إلا مغفل أبله أو جاهل وسفيه.

لا جرم أن الظالمين المتربصين، قد افتروا على الرشيد بما ليس فيه، يبتغون من وراء ذلك كله الإساءة إلى دين الإسلام نفسه.

موقف الرشيد من ولديه الأمين والمأمون:

قال هارون الرشيد لزوجته زبيدة بحق ابنهما الأمين: «ليس ابنك يا زبيدة أهلاً للخلافة ولا يصلح للرعاية»، وقال لها: «فوالله إن ابنك لأحبّ إليّ، إلا أنها الخلافة، لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً وبها مستحقاً»، ثم دعا أولاً ابنه المأمون ثم الأمين وتكلم مع كل منهما على انفراد أمام زوجته زبيدة والتي رأت بعينها الاختلاف بين الأخوين في الإجابة عن أسئلة والدهما الرشيد.

قال المأمون لوالده الرشيد: يا أبتاه أخي أحق مني وابن سيدتي، ولا أخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر مني وأشد استطلاعاً، عوض الله لك ما فيه الرشاد والخلاص، وللعباد الخير والصلاح، ويجدر الإشارة هنا أن والدة المأمون الفارسية مراجل توفيت بعد ولادته وربته أم الأمين زبيدة.

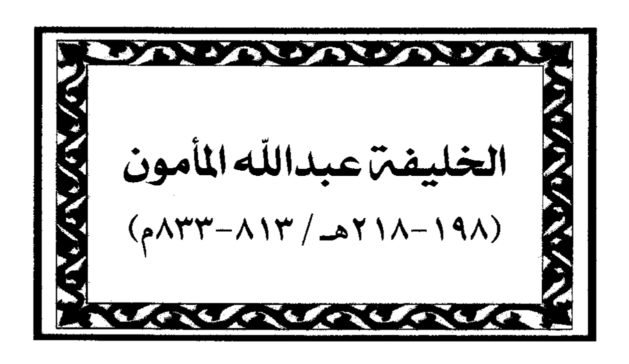
هذا وكان الرشيد كما ذكر المؤرخ الطبري في تاريخ أنه أعرس بزبيدة (تزوجها) ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور في ذي الحجة سنة ١٦٥هـ في قصره بالخلد وأنفق في زواجه الكثير من ماله الخاص.

قال الشاعر إبراهيم الموصلي في حق الخليفة الرشيد لما تولى الخلافة:

ألمْ تــرى أنّ الــشمس كانــت مريــضة | فلـــمّا وليَ هـــارون أشرق نورهـــا
فألبـــست الـــدنيا جمـــالاً بوجهـــه | فهـــارون واليهـــا ويحيـــى وزيرهـــا

وأغدق عليه الرشيد الكثير من المال.

استمرت خلافة هارون الرشيد ٢٣ سنة وشهران وأيام، توفي كما ذكرنا سـابقاً أثناء خروجه للقضاء على ثورة رافع بن الليث، توفي في سناباذ من قرى طوس وبهـا قبره سنة ١٩٣هـ.



الخليفة عبدالله المأمون

(١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م)

هو ابن الخليفة هارون الرشيد (أبو العلم والعلماء) سنتعرف عليه من حيث:

١- الميلاد والنشأة وأخلاقه.

٢- ولاية العهد.

٣- العلاقة بين الأمين والمأمون ومقتل الأمين.

٤- سياسة المأمون الداخلية من حيث:

أ- حبه للفرس والعلويين.

ب- تعيينه للفضل بن سهل وزيراً.

ج- علاقته بالقائدين طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين.

د- القضاء على ثورة أبو السرايا الشيباني وثورة الطالبيين في الكوفة واليمن.

ه- مقتل هرثمة بن أعين وأثر ذلك.

و- مبايعة إبراهيم المهدي عم المأمون بالخلافة.

ز- انتقال المأمون من مرو إلى بغداد.

ح- الوزارة في عهد المأمون.

٥- الأحوال الداخلية في عهد المأمون من حيث:

أ- العلويون وأثرهم في الدولة.

ب- إبراهيم بن المهدي والخلافة.

ج- نصر بن شبث.

د- ثورة الزط.

ه- بابك الخرمي

٦- الخراج في عهد المأمون.

٧- الجيش والقادة العِظام في عهد المأمون.

٨- العلم في عهد المأمون، علوم الصناعات.

٩- الأحوال الخارجية في عهده.

١٠- ولاية العهد ووفاة المأمون.

قال الصولي في الليلة التي وُلد فيه المأمون: وُلد ليلة السبت ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠هـ وفي هذه الليلة مات خليفة وقام خليفة وولد خليفة.

الميلاد والنشأة والسلوك:

وُلد ليلة السبت ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠هـ في اليوم الذي تولى فيه والده الرشيد الخلافة.

أُمه، أم ولد، فارسية اسمها مراجل، اشتراها الرشيد لتلد له ولد، لأن زوجته العربية زبيدة أبطأت في الحمل، وولدت مراجل للرشيد ولده المأمون ثم حملت زبيدة بعد ذلك بقليل وولدت له الأمين، فوقع بين زبيدة ومراحل التحاسد وامتد التحاسد إلى الحاشية ثم إلى سائر رجال الدولة، حيث انضم العرب بزعامة الفضل ابن الربيع إلى جانب الأمين وأمه، بينما انضم الفرس بزعامة البرامكة ثم الفضل بن سهل إلى جانب المأمون لأن أمه فارسية، انتهى الصراع بمقتل الخليفة الأمين وتولي (أخوه المأمون) للخلافة.

ولّى الرشيد ولاية العهد للمأمون بعد أخيه الأمين وعمره ١٣ سنة وضمّه لرعاية جعفر بن يحيى البرمكي وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ومنحه والده استقلالاً شبه كامل.

بعد وفاة الخليفة الرشيد لم يفِ الأمين لأخيه المأمون بولاية العهد، وأراد الأمين أن يقدم ابنه موسى عليه مخالفاً ما تم الاتفاق عليه في خلافة والدهما وتوثيق ذلك عند أستار الكعبة في موسم الحج سنة ١٨٢هـ، رفض المأمون هذا التصرف من أخيه الأمين وبدأ الصراع بينهما والذي انتهى بمقتل الأمين كما سيمر بنا ذلك لاحقاً.

ولاية المأمون للعهد:

نزل الرشيد على رغبة زوجته العربية زبيدة يساندها الفضل بن يحيى البرمكي وبعض أمراء بني العباس بجعل ولاية العهد لابنه محمد الأمين قبل أخيه الأكبر عبدالله المأمون رغم عدم رغبة الرشيد بذلك خشية وقوع الصراع بين الأخوين.

جرى حوار بين الزوجين الرشيد وزبيدة، قال الرشيد لزوجته زبيدة: «قد تعرفين ما بين ابني وابنك، ليس ابنك يا زبيدة أهلاً للخلافة، ولا يصلح للرعاية»، ردّت زبيدة قائلة: «ابني والله خير من ابنك - تعني المأمون - وأصلح لما تريد، ليس بكبير سفيه وأسخى من ابنك نفساً وأشجع منه قلباً» فقال لها هارون: «ويحك إن ابنك لأحبُّ إليّ إلا أنها الخلافة، لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً وبها مستحقاً، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم، فاقعدي حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنك»، فقعدت معه على الفراش، ثم دعا ابنه المأمون، فلما صار بباب المجلس سلّم على أبيه بالخلافة، ووقف طويلاً وقد طأطأ رأسه، وأغفى ببصره، ينتظر الإذن حتى كادت قدماه ترم، ثم أذن له بالجلوس فجلس، ثم تكلم بعد أن قبّل راحتي أبيه وقبّل رأس زبيدة ثم انثنى لقدميها ثم رجع لمجلسه فحمد الله إليها فيما منّ به عليها من رضى أبيه عنها وحُسن رأيه فيها ويسأله تعالى العون لها

على برّه وأداء المفروض عليها من حقه ويرغب أن يوزعها شكره وحمده فقال الرشيد: يا بني أريد أن أعهد إليك عهد الإمامة، وأقعدك مقعد الخلافة، فإني قد رأيتك لها أهلاً وبها مستحقاً.

استعبر عبدالله المأمون باكياً، وصاح منتحباً، يسأل الله العافية من ذلك، ويرغب إليه ألا يريه فَقْد أبيه فقال له: يا بني إني أراني بمالي، وأنت أحق، وسلّم الأمر لله، وارض به، واسأله العون عليه، فلا بد من عهدي، يكون في يومي هذا، فقال المأمون يا أبتاه: أخي أحقُ مني، وابن سيدتي، ولا أخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر مني، ثم أذن له فقام خارجاً من مجلس والده.

ثم دعا الرشيد ابنه محمد الأمين، فأقبل يجر ذيله، ويتبختر في مشيته فمشى داخلاً بنعله قد أنسي السلام، وذُهل عن الكلام نخوةً وتجبراً وتعظماً وإعجاباً، فمشى حتى صار مستوياً مع أبيه على الفراش، فقال هارون: ما تقول أيْ بني، فإني أريد أن أعهد إليك؟ فقال يا أمير المؤمنين، ومن أحق مني بذلك، وأنا أسن ولدك، وابن قرة عينك، فقال هارون: اخرج يا بني.

وبعد هذا الحوار مع ولديه كل على حدة أمام زوجه زبيدة قال لها: كيف رأيت ما بين ابني وابنك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ابني أحق بما تريد، وأولى بما لديك، فقال هارون: فإذا أقررت بالحق وأنصفت ما رأيت، فأنا أعهد إلى ابني ثم إلى ابنك بعد.

كانت حجة الفريق الواقف لجانب الأمين أقوى فأمه زبيدة والمنصور جدها ولأن الأمين هاشمي الأبوين، ولم يجتمع ذلك لغيره من خلفاء بني العباس ومما دفع هذا الجانب للوقوف جانب الأمين هو كرههم لأسرة البرامكة.

وكل ما سبق دفع أمراء بني العباس للوقوف لجانب زبيدة وابنها الأمين، كما وقف لجانبهم الشاعر محمد العُماني الذي قال له الرشيد: «أبشر يا عُماني بولاية محمد العهد» قال: «أي والله يا أمير المؤمنين، بُشرى الأرض المجدبة بالغيث، والمريض

المدنف بالبرء» لذا لما عزم الرشيد على البيعة بولاية العهد لابنه الأمين، جمع الأمراء والقواد ورجال الحاشية، وأحضر الفقهاء في مجلس عقد في ٦ شعبان ١٧٥هـ/ ٧٩١م، قام أكبر بني العباس سناً واسمه (عبدالصمد بن علي) فقال: لا يغرنكم صغر السن فإنها الشجرة المباركة، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم:٢٤] ووقتها لم يتجاوز الأمين الخامسة من عمره فأُخذت له البيعة ولقبه والده (محمد الأمين) وولاّه في الحال على بلاد الشام والعراق وجعل ولايته تحت إدارة مربيه الفضل بن يحيى البرمكي.

عبّر عن هذا الموقف الشاعر سلم الخاسر بقوله:

قدْ وفق الله الخليفة إذ بنى ... بيت الخليفة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده ... شهْداً عليه بمنظر مُبختر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى ... لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

وما ورد في طعن للأمين فهو من صنع الشعوبية الذين يكرهون العرب وسلطانهم، هذا ولم يكفِ الرشيد بالبيعة لولده الأمين من بعده، فعقد البيعة لولده عبدالله المأمون على أن تكون ولاية العهد له من بعد أخيه الأمين وذلك سنة ١٨٢هـ وأمضى ذلك بعد عودته من الحج فبعث للمأمون من الرقة إلى بغداد ومعه جعفر البرمكي فولّاه خراسان وما يتصل بها وسمّاه بالمأمون.

وفي سنة ١٨٦هـ عقد الرشيد ولاية العهد لابنه القاسم (المؤتمن) بعد أخويه الأمين والمأمون لكن الموت عاجل القاسم فلم يكن له من الأمر شيئاً.

وفي هذه السنة ١٨٦هـ حج الرشيد ومعه ولديه الأمين والمأمون وجُلّة من بني هاشم والقواد والكُتّاب والحاشية، لما وصل الرشيد لمكة صعد المنبر فخطب ثم نزل فدخل البيت ودعا بالأمين والمأمون فأملى على محمد الأمين كتاب الشرط على نفسه وكتب محمد الكتاب وأحلفه على ما فيه وأخذ عليه العهد والمواثيق وفعل مع المأمون مثله وأخذ عليه العهود والمواثيق.

شهد على هذه العهود والمواثيق عدد من آل العباس وقاضي مكة محمد بن عبدالرحمن، أمر الرشيد بتعليق هذين الكتابين (كتاب الأمين وكتاب المأمون) أيام موسم الحج على باب الكعبة وقُرئا على الناس عدة مرات ووضعا في الكعبة وورد ذلك في كتاب تاريخ اليعقوبي في المجلد الثاني (ص٤١٦ وما بعدها).

كتب أمير المؤمنين الرشيد إلى عُماله يخبرهم بما عزم عليه من أخذ البيعة لولديه الأمين والمأمون من أمر ولاية العهد في موسم الحج عند الكعبة.

رغم الأيمان المغلظة والعهود الموثقة التي أخذها الرشيد على ولديه، لم تدفع عن ولديه الأمين والمأمون ما كان يخافه ويخشاه، فقد حاول الأمين نزع ولاية العهد من أخيه المأمون لولده، مما أدى للخلاف بينهما والذي انتهى بالقتال بينهما ومقتل الأمين واستلام المأمون الخلافة بعد مقتل أخيه الأمين.

العلاقة بين الأمين والمأمون ومقتل الأمين:

اهتم الأمين بنظام البريد، فهو نظام دقيق يربط أجزاء المملكة بالخليفة ليطلعه على كل ما يحدث في دار الخلافة أولاً بأول، لذا اهتم الأمين بوضع نظام للبريد في خراسان التي كانت تحت حكم أخيه المأمون فرفض المأمون هذا الإجراء واتسع الخلاف بين الأمين والمأمون لمطامع رجال الحاشية في بلاط كلٍّ من الأمين والمأمون.

لذا نصح وزير الأمين الفضل بن الربيع باستدعاء المأمون من خراسان إلى بغداد ليكون كرهينة بين ناظري الأمين، وليكون المأمون بهذا الإجراء بعيداً عن جنده في خراسان، أوعز وزير المأمون الفارسي الفضل بن سهل أن يعتذر عن الذهاب لبغداد بحجة أن الأوضاع في خراسان تستدعي بقاءه فيها ووقتها طلب الأمين من أخيه المأمون أن يتنازل له عن بعض كور خراسان بحجة أن مال خراسان يكفيها وأن مال العراق لا يكفيه، رفض المأمون تنفيذ هذا المطلب برسالة رقيقة وحازمة ومما جاء فيها:

«فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك، وأنا مذعن بطاعتك ولا أريـد قطيعتـك، وأنا على إيثار ما تحب من صلتك، وارض بها حكم الحق في أمرك، أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام».

غضب الأمين من رفض أخيه المأمون لمطالبه، وأرسل إليه برسالة يطلـب منـه الإذعان لما طلبه أو التعرض لنارٍ لا قِبَل له بها، ردّ المأمون بأنه لا يأبه بالتهديـد فـردّ عليه بأنه لا يخشى في الحق لومة لائم.

بعد فشل المفاوضات السلمية بينهما، أصبح الاحتكام للسيف أمراً لا مفرّ منه. تطورت الأمور بين الأمـين والمـأمون في أواخـر سـنة ١٩٤هــ عنـدما أمـر الأمـين بالدعاء لولده موسى على المنابر من بعده ثم الدعاء بعد ذلـك للمـأمون ثـم لأخيـه القاسم عازماً الوفاء لأخويه لكن المحرضون وأهل الوقيعة والدسائس حملـوه عـلى تغيير نيته في أخويه وحرّضوه على خلع أخويه المأمون والقاسم، وذكـر الـبعض أنـه أعلن البيعة لابنه موسى ونقش اسمه على العملة، وبعث الأمين من سرق الكتـابين في الكعبة وحرقهما، ما أثار المأمون ودعـاه الاسـتعداد للحـرب وأظهـر إنكـاره لمـا حدث ورفضه إياه.

الحرب بين الأخوين الأمين والمأمون:

أمر الأمين في أوائل سنة ١٩٥هـ بوقف الدعاء لأخيه المـأمون وأعلـن البيعـة لابنه موسى، أمام ما حدث من تطورات أمر المأمون بتجهيز جـيش كبـير وحـشده على حدود خراسان في منطقة الري وولى المأمون على قيادة هذا الجيش قائـدين مـن أتباعه المخلصين له هما:

١- القائد طاهر بن الحسين، كان على مقدرة حربية فائقـة وأثبـت وجـوده في حصار بغداد والاستيلاء عليها.

٢- القائد هرثمة بن أعين الذي يرجع إليه الفـضل في إعـداد جـيش المـأمون الإعداد الجيد.

أما أمير المؤمنين الأمين فاختار لقيادة جيشه رجلاً من كبار رجال دولته واسمه علي بن عيسى بن ماهان الذي كان والياً على خراسان في خلافة الرشيد وكان مكروهاً من أهلها لأنه أساء معاملتهم فلم ينسَ أهل خراسان ظلمه وقسوته.

أحداث الحرب ونهايتها:

١ - تقدم قائد الأمين علي بن عيسى بن ماهان نحو الري لقتال قائد المأمون طاهر بن الحسين. خرج ابن ماهان من بغداد في منتصف جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ وكان معه زهاء أربعين ألفاً من الجند، وأخذ معه قيداً من الفضة ليُقيد به المأمون بطلب من والدة الخليفة الأمين زبيدة، خدم الأمين أخاه المأمون عندما عيّن على قيادة جيشه ابن ماهان الذي يكرهه أهل خراسان، مما أثار في قلوبهم الحمية والاستعداد لردّ هذا العدوان.

٢- لم يستعد ابن ماهان لملاقاة طاهر بن الحسين استهتاراً به ومما قاله في حق طاهر «ما هو إلا شوكة من أغصاني أو شرارة من ناري، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب والتفت لأصحابه قائلاً: والله ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف، إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان، فإن السخال لا تقوى على النطاح والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد، وإنْ أقام طاهر في موضعه يكن معرضاً لظبات السيوف وأسنّة الرماح»، هذا وبلغ من استهتاره واستخفافه بلقاء طاهر أن طلب منه صاحب مقدمته من أن يرسل العون والطلائع لاستكشاف أمر طاهر فكان رده: «ليس مثل طاهر يُستعد له بالمكايد والتحفظ وإنّ حاله إلى أحد أمرين، إما أن يتحصن بالري فيبهته أهلها فيكفونا مؤونته أو يخليها ويدبر راجعاً لو اقتربت خيولنا وعسكرنا قربه».

٣- بينما كان علي بن عيسى بن ماهان يسير مغتراً بنفسه ومن معه مستخفاً بعدوه، كان طاهر يدبر أمره مع قواده ويسير سير من يريد مواقعة عدو أكثر منه عدداً وعُدّة وستقر رأي طاهر أن يجعل مدينة الري وراء ظهره ويقاتل بعيداً عنه،

لذا عسكر طاهر على بُعد خمسة فراسخ من الري، ثـم أقبـل إليـه وقـد عبأ جنـده، وسوّى صفوفهم ومرّ بقادته قائداً قائداً يعظهم ويحثهم على الثبات.

٤- تلاحم الجيشان واقتتلا قتالاً شديداً، فعَلَتْ ميمنة علي على ميسرة طـاهر ففضتها فضاً منكراً، وميسرته على ميمنته فأزالتها عن موضعها فقال طـاهر اجعلـوا بأسكم وجدكم على كراديس القلب، صبر أصحاب طاهر صبراً صـادقاً ثـم حملـوا على أولى رايات القلب فهزموهم وأكثروا فيهم القتل، ورجعت الرايات بعضها على بعض ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه، فرجعوا على من كـان في وجوههم فهزموهم ورمى رجل من أصحاب طاهر علي بـن عيسى بـن ماهـان بسهم فقتله، ووضعوا فيهم السيوف حتى جاء الليـل وغنمـوا مـنهم غنـائم كثـيرة ونادى طاهر في أصـحاب ابـن ماهـان «مـن وضـع سـلاحه فهـو آمـن» فطرحـوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم، ثم عاد طـاهر إلى الـري وكتـب للـوزير الفـضل بـن سهل:

«أطال الله بقاءك وكبت أعـداءك، وجعـل مـن يـشنأك فـداءك، أكتـب إليـك ورأس علي بن عيسى بن ماهان في حجري وخاتمه في يدي والحمد لله رب العـالمين» سلّم الفضل بعد هذا الكتاب على المأمون بقول: (يا أمير المـؤمنين)، وأمـدّ الفـضل طاهراً بالرجال والقادة وسماه (ذو اليمينين) وصاحب حبل الدين.

فلما وصلت أخبار هزيمة جيش الأمـين ومقتـل ابـن ماهـان إلى بغـداد جهـز الأمين جيشاً ثانياً بقيادة عبدالرحمن بن خيلة الأنباري في عشرين ألفـاً ونـدب معـه فرسان الأبناء وأهل البأس والنجدة وأوصاه بالتحفظ والاحتراس فلا يغتر كما اغتر ابن ماهان، نزل القائد الأنباري في همذان وحصّن أسوارها وأبوابها وضـبط طرقهـا وجمع فيها الآلات والمير واستعد للقاء طاهر ومحاربته، توجه طـاهر نحـو الأنبـاري حتى وصل همذان فخرج إليه الأنباري بمن معه واقتتل الطرفان قتالاً شديداً، هُـزم عبدالرحمن الأنباري وتراجع إلى همذان ولبث فيهـا حتـى قـوي أصـحابه وشـفيت

جراحهم ثم خرج ثانيةً ففعل فيه طاهر ما فعل به في المرة الأولى ثم عاد الأنباري لهمذان فحاصره فيها طاهر حتى أجهد، فطلب الأمان له ولمن معه فمنحهم طاهر الأمان وبعدها طرد طاهر عُمّال الأمين من قزوين مما أربك وزير الأمين الفضل بن الربيع واستدعى الفضل أسد بن يزيد بن مزيد من قواده المعدودين وقال له: أنت فارس العرب وابن فارسها وإن أمير المؤمنين الأمين فزع إليك في لقاء طاهر بن الحسين، وطلب منه الاستعداد وإنجاز حوائجه ليبادر للقاء العدو راجياً الله أن يوليك شرف هذا الفتح ويُلم بك شعث هذه الخلافة والدولة، استجاب أسد بن يزيد لذلك وطلب لجنده رزق سنة ويخص من لا خاصة له منهم من أهل الغناء والبلاء وإبدال الزمنى والضعفاء وإحمال ألف رجل ممن معه على الخيل وأن لا يُسأل عن محاسبته عما يفتتحه من المدن والكور، قال له الفضل لقد اشتططت ولا بد من مناظرة أمير المؤمنين، ثم ركبا إليه، دخل الفضل أولاً على الأمين ثم دخل أسد فما كان بينهما إلا كلمات حتى غضب الأمين وأمر بحبس أسد واستدعى الأمين عم أسد ابن يزيد أحمد بن يزيد وكلفه بقتال طاهر بن الحسين وبلغت عدة من معه عشرين ألفاً من الرجال، كما وجّه الأمين عبدالله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهر عنها وأمرهما بالتواد والتحاب على الطاعة، نزلا قريباً من حلوان بخانقين.

٥- أقام طاهر بموقعه وخندق عليه ثم أرسل العيون إلى عسكري عدوه حتى أوقع الخلاف بينهما فقاتل بعضهم بعضاً ثم احتلا خانقين ثم تراجعا عنها دون قتال طاهر، تقدم طاهر ونزل في حلوان وظل هناك حتى جاءه أحد قادة المأمون هرثمة ابن أعين ومعه كتاب من المأمون ووزيره الفضل بن سهل يأمراه بتسليم ما حوى من الكور والمدن وأن يتوجه إلى الأهواز، سلّم طاهر هرثمة ما طلبه منه المأمون وأقام هرثمة بحلوان وحصّنها ووضع مساكه ومراصده في طرقها وجبالها، بينما توجه طاهر إلى الأهواز ليكون الهجوم على بغداد من جهتين.

٦- لما رجع الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان إلى بغداد حضّ الأبناء الذين معه على خلع الأمين ومبايعة المأمون وحبس الأمين، لكن محمد بن أبي خالد ومعه الأسد الحربي أسرا الحسين بن علي بن ماهان وفكّ قيود الأمين وإعادته للخلافة فلام الأمين الحسين بن علي على ما كان منه ثم عفا عنه لكنه حاول الهرب من بغداد فأدركه جند الخليفة وقتلوه ومن هذا الوضع نرى الاضطراب والارتباك بين الأمين وقادته وجيشه بينما جند أخيه المأمون على العكس من ذلك منظمين وهادئين وكانوا قسمان، قسم مع القائد هرثمة بن أعين تريد بغداد من المشرق وقسم مع القائد طاهر ابن الحسين تريد بغداد من جهة الأهواز والبصرة.

٧- استولى طاهر في طريقه على فارس وقتل عاملها محمد بن يزيد المهلبي وأقام في فارس بعض الوقت وعيّن عمالاً له على اليمامة والبحرين وعُمان، ثم توجه طاهر إلى مدينة واسط وقُبيل وصوله إليها هرب العُمّال عاملاً عاملاً وتركوا أعمالهم ولما اقترب طاهر من واسط هرب عاملها ثم دخلها طاهر منها توجه إلى الكوفة وكان عليها العباس بن موسى الهادي الذي بادر لخلع الأمين ومبايعة المأمون، كما بايع أمير البصرة المنصور بن المهدي المأمون في رجب ١٩٦هـ، ثم واصل طاهر سيره نحو المدائن فاستولى عليها دون قتال وفي هذه الأثناء أخذ عامل مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى البيعة للمأمون لأن أخاه الأمين نقض عهده مع المأمون فبايع أهل المدينة ومكة للمأمون وفي ٢٧ رجب سنة ١٩٦هـ نادى داود بن عيسى في البيت الحرام بخلع الأمين ومبايعة المأمون وفعل ذلك أيضاً أهل المدينة، ثم سار داود بنفسه إلى مرو وأعلم المأمون بما تم في الحجاز، سُرّ المأمون لذلك وكتب لأهل الحجاز يعدهم بالخير وأقرّ داود على ولاية الحجاز وفي طريق عودته مرّ داود على طاهر والذي أرسل معه يزيد بن جرير القسري والياً على اليمن فدعا أهل اليمن لمبايعة المأمون فأجابوه.

٨- اجتمع جيشي القائدين طاهر وهرثمة حول بغداد وحاصراها من ثلاث جهات، كما نصبوا المجانيق والعرادات وحفروا الخنادق.

أحسّ الخليفة الأمين بالضيق، ومُنعت عنه الأموال فأمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة، وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم وحملها نفقات لأصحابه.

قاست حاضرة الخلافة بغداد من الحصار وما أصابها من تدمير، وحرق، وسفك دماء، وجوع شديد وأوشكت معالمها أن تُمحى ووصف الشعراء ما قاساه أهل بغداد من المحن والأحزان ومما قيل في ذلك:

مَنْ ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألمْ تكوني زماناً قرة العين

ألمْ يكن فيك قومٌ كان مسكنهم ... وكان قربهم زيناً من الزين

صاح الغراب بهم بالبيت فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين

استودع الله قوماً ما ذكرتهم ... إلا تحدر ماء العين من عيني

وقال شاعر آخر:

يا بؤس بغداد دار مملكة ... دارت على أهلها دوائرها

أمنها الله ثم عاقبها ... لما أحاطت بها كبائرها

بالخسف والقذف والحريق وبا ... لحرب التي أصبحت تساورها

وصار رب الجيران فاسقهم ... وابتز أمر الدوب زاعرها

٩- استمرت الشدائد والمصائب على بغداد، حتى استنفذ الأمين كل وسائل الدفاع عنها فاستشار من بقي من قواده، أشار عليه بعضهم بطلب الأمان لنفسه من هرثمة بن أعين فاستجاب لذلك فأجابه هرثمة لطلبه، لكن طاهر بن الحسين اعترض وأراد أن يكون خروج الأمين إليه، لكن الأمين لم يرتح لذلك، فخرج الأمين بنفسه لهرثمة ودفع بخاتمه إلى طاهر مع البردة والقضيب، لما علم طاهر أنهم يمكرون به، اعترض طاهر ورجاله الحراقة التي ركبها الأمين وهرثمة ورموها بالسهام والحجارة فانكفأت وغرق هرثمة والأمين، تمكن أصحاب هرثمة من إنقاذه، أما الأمين فسبح في الماء حتى أدركه أصحاب طاهر فأسروه ثم أمر طاهر

بقتله، فقُتل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨هـ، وفي الصباح كتب طاهر للمأمون يخبره بما حدث وأسباب قتله للأمين، دخل طاهر بغداد فأمّن أهلها، كان دخوله يوم الجمعة فصلّى بالناس وخطبهم وحثّهم على الطاعة ولزوم الجماعة والالتزام بما يصلهم من أوامر وبعد الصلاة انصرف طاهر لمعسكره.

يعيد بعض المؤرخين الأسباب التي أدت إلى هذه النهاية المؤلمة للخليفة الهاشمي العربي الأمين منها:

تصرفات هارون الرشيد ووقوفه لجانب الأمين، تصرفات وزير الأمين الفضل بن الربيع، رغبات وتحيز زوجة الرشيد زبيدة مع ابنها الأمين، السلطات الواسعة التي أعطاها الرشيد لولديه المأمون في خراسان والقاسم في الجزيرة وأرمينيا، مما جرأ الأمين على نقض العهد لأخويه المأمون والقاسم وأخذها لابنه موسى.

هذا بالإضافة للدور الفارسي الذي وقف ضد الموقف العربي الواقف مع الأمين، فقادة المأمون ذو ميول فارسية فأم المأمون (مراجل) فارسية من خراسان وحتى يضعف الموقف العربي وترجح كفة الفرس ومن يؤيدهم فلا تزال الحركة الشعوبية تمخر في جسم الدولة العباسية رغم كونها دولة إسلامية سنية المذهب.

الأحوال الداخلية في خلافة المأمون وسياسته التي اتبعها:

اتصفت سياسة المأمون بجمعها بين المواقف المتناقضة التي يصعب التوفيق بينها، فهو يميل أحياناً إلى أخواله الفرس وأحياناً أخرى للعلويين وثالثة لأهل السنّة، وبسياسة المأمون المرنة تمكن من الجمع بين المواقف المتناقضة ليتمكن من إرضاء جميع الأحزاب والتغلب على جميع الصعاب الموجودة.

نشأ المأمون وتربى على حب أخواله من الفرس، حتى أنه لما بويع بالخلافة وهو في خراسان استمر مقيماً في خراسان في مدينة مرو بعض الوقت ولم ينتقل مباشرة إلى بغداد عاصمة الخلافة إلا بعد ست سنوات في سنة ٢٠٤هـ بعد أن استقر

الوضع فيها وكسب الأنصار، أما صاحب فكرة بقائه هذه المدة في خراسان بعد أن بويع بالخلافة هو وزيره الفارسي المعروف الفضل بن سهل.

نشأت عن بقاء المأمون بعد أن بويع بالخلافة في خراسان بعيداً عن عاصمة الخلافة بغداد أن نشأت بعض الأزمات السياسية بسبب فوضى وزيره الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل والي العراق في إدارة أمور الدولة.

بعد زواج المأمون من بوران ابنة الحسن بن سهل، أثار تحيز المأمون لأخواله وأصهاره الفرس غضب أهل العراق من بني هاشم، ووجوه العرب الذين أشاعوا بأن الفرس قد حجبوا الخليفة عنهم واستبدوا بالرأي والمشورة له لميولهم الفارسية فقامت بعض الثورات.

الثورات ضد المأمون

أولا: ثورة عربية عراقية بزعامة القائد العربي أبو السرايا الشيباني:

قامت هذه الثورة في الكوفة وسببها إصدار الوزير الفضل بن سهل أمرين على لسان الخليفة المأمون **الأول**: تولية الحسن بن سهل على العراق وعلى كل ما افتتحه القائد طاهر بن الحسين من الأهواز، البصرة والكوفة، الحجاز واليمن، وتولية طاهر على الموصل والجزيرة والشام وتكليفه بالتوجه للرقة لمحاربة نصر بن شبث فسمع وأطاع. **والأمر الثاني**: طلبه من القائد هرثمة بن أعين ترك بغداد والعودة إلى خراسان وبذلك أفرغ العراق من أسديه طاهر وهرثمة فشاع في بغداد والعراق بعد إبعاد طاهر وهرثمة عنها وتولية الحسن بن سهل عليها، أن الفضل قد حجب المأمون عن أهله ووجوه قواده وأنه يتصرف حسب هواه، نتج عن هذا التصرف غضب بني هاشم ووجوه الناس فاستخفوا بالحسن بن سهل وقامت الفتن والثورات وأولها خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في الكوفة بقيادة رجل من أتباع القائد هرثمة بن أعين

هو أبو السرايا العربي بن منصور الشيباني والذي سيطر على الكوفة فأرسل إليه الحسن بن سهل جيشاً بقيادة زهير بن المسيب، تمكن أبو السرايا من هزيمته والاستيلاء على ما كان معه من مال وسلاح ودواب وفي اليوم التالي للمعركة مات فجأة محمد بن إبراهيم أول رجب سنة ١٩٩هـ فولّى مكانه أبو السرايا غلاماً أمرداً حَدَثاً هو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسن، فأرسل إليه الحسن بن سهل جيشاً ثانياً بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المرورذي، توجه إليه أبو السرايا وانتصر عليه وقتله في ١٧ رجب سنة ١٩٩هـ وأسر أخاه هارون واستباح عسكره ولم يفلت من عسكره البالغ أربعة آلاف أحد.

بعد هذه الانتصار انتشر الطالبيون في البلاد، وضرب أبو السرايا الدراهم في الكوفة ونقش عليها الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾﴾ [الصف:٤].

لما رأى الحسن بن سهل فشل قادته وهزائمهم المتكررة أمام (أبو السرايا) رأى أنه لا يصلح للقيام بمهمة قتال أبي السرايا إلا هرثمة بن أعين الذي ترك بغداد غاضباً من الحسن بن سهل. أرسل الحسن بن سهل رسالة لهرثمة يدعوه للحضور إلى بغدد من خراسان، رفض هرثمة الحضور فأرسل له رسالة أخرى متلطفاً فحضر إلى بغداد في شعبان سنة ١٩٩هـ، واستعد هرثمة للخروج إلى الكوفة لمحاربة (أبو السرايا) استولى هرثمة على المدائن من عُمّال أبي السرايا، ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة وقتل الكثير من أصحاب أبي السرايا، استمر هرثمة في حربه لأبي السرايا، حتى اضطر (أبو السرايا) ومن معه من الطالبيين الهروب من الكوفة إلى القادسية في محرم ٢٠٠هـ ثم دخل هرثمة الكوفة وأعطى أهلها الأمان.

ترك أبو السرايا القادسية إلى السوس من بلاد فارس فلقيه هناك الحسن بن علي (المأموني) فقاتله وهزمه وجُرح أبو السرايا جراحاً بليغة ثم هرب لمنزله في رأس العين من الجزيرة عُثر عليه في الطريق، فجيء به إلى الحسن بن سهل المقيم في

النهروان فضرب عنقه وصلب جسده في بغداد وهكذا تم القضاء على ثورة أبي السرايا بعد عشرة أشهر.

وتم السيطرة على عامل أبي السرايا في البصرة زيد بن موسى بن جعفر (زيد النار) وأُخذ أسيراً، وقدم من اليمن ورقاء بن جميع فقاتل ومن أرسلهم هرثمة الطالبيين في مكة والمدينة فهزموهم فطلب محمد بن جعفر الأمان لنفسه ومن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاءوا فأجابهم لطلبهم ودخلت الجنود العباسية مكة وتفرق العلويون في البلاد.

ثانيا: ثورة إبراهيم بن موسى بن جعفر من الطالبيين في اليمن:

لما خرج والي اليمن إسحاق بن موسى بن عيسى من اليمن إلى مكة استولى إبراهيم بن موسى على اليمن وكان يقال لإبراهيم هذا (الجزّار) لكثرة من قتل من الناس في اليمن.

وجّه إبراهيم في جند كثيف بعض ولد عقيل بن أبي طالب لموسم حج سنة ٢٠٠هـ، استولى في الطريق على قافلة الحج العباسية وفيها كسوة الكعبة وطيبها، لما بلغ أمير الحج العباسي أبي إسحاق بن الرشيد لما حدث لقافلة الحج العباسية أرسل أحد قواده لإبراهيم بن موسى فلقيه في بستان ابن عامر فأسر أكثر من معه وردّ ابن إسحاق إلى الحجاج ما أُخذ منهم والعودة بكسوة الكعبة.

عاقب ابن إسحاق من أسرهم بعشرة أشواط لكل منهم ثم أخلى سبيلهم، فهلك معظمهم وهكذا انتهت الفتن العلوية بفضل كياسة ومهارة القائد هرثمة بن أعين.

ثالثا: القضاء على القائد هرثمة بن أعين ونتائج ذلك:

يعود الفضل في القضاء على الثورات والفتن العلوية للقائد هرثمة مما أوغر قلب الفضل وأخيه الحسن بن السهل على هرثمة - كيف تم ذلك؟ أراد هرثمة التوجه إلى مرو لإطلاع الخليفة المأمون عما يجري حوله وإخباره عما يتناقله الناس

من استبداد الفضل بن سهل في أمور الدولة، لكن الفضل بدهائه وخبثه وإنكاره للجميل تمكن من إفهام المأمون بأن هرثمة قد أفسد البلاد وأنه هو الذي أشار على (أبو السرايا) بفضل ما فعله فهو من جنوده، لذا استمع المأمون لأقوال الفضل فكتب لهرثمة وهو في الطريق إليه، أن يرجع ويستلم ولاية الشام والحجاز، لكن هرثمة رفض الرجوع حتى يقابل أمير المؤمنين المأمون ويوضح له حقيقة الأمور وما يقوم به الفضل بن سهل وأخيه الحسن من استبداد وإفساد وكره الناس لهم.

لما لم يلتزم هرثمة بالعودة لاستلام ولاية الشام والحجاز بدأ المأمون يتشكك من تصرفات هرثمة.

لما وصل هرثمة إلى مرو خشي هرثمة أن يُخفى خبر وصوله بتأليب من الفضل ابن سهل، لذلك أمر هرثمة بضرب الطبول حتى يسمعه المأمون، فلما سمعها سأل فقيل له إن هرثمة قد وصل وهو يبرق ويرعد.

أُدخل هرثمة على المأمون الذي أُشرب قلبه منه، لذا لم يسمع منه أي كلمة بل فوجئ عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه كما قام الفضل بن سهل بالتغليظ عليه وأُدخل السجن أياماً ثم دسوا إليه السم فقتلوه، وأشيع أنه مات، وهكذا انتهت حياة هذا القائد البطل بتدبير من دسائس الوزير الفضل بن سهل من غير جناية ارتكبها ولكنه خُبث من بطانة المأمون الذين تآمروا عليه، رغم أعماله العظيمة في تدعيم المُلك واستلام المأمون للخلافة بعد سيطرته على بغداد من الخليفة الأمين.

كان من نتائج هذه النهاية المأساوية لهرثمة، هياج الجند وثورتهم في بغداد على الحسن بن سهل حيث أخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون، وذهبا إلى منصور بن المهدي وطلبوا منه مبايعته بالخلافة وخلع المأمون، رفض طلبهم، فطلبوا منه أن يكون أميراً عليهم وأن يدعو للمأمون وقالوا له لن نرضى بالمجوسي الفارسي الحسن بن سهل ويجب طرده ليرجع إلى خراسان، قبل منصور الإمارة فتولى أمر بغداد، لكنها كانت خالية من جيش قوي يأخذ على أيدي المفسدين من أهلها.

قام فسّاق الحربية وشطّار بغداد والكرخ بإيذاء الناس أذىً شديداً وأظهروا الفسق وقاموا بقطع الطريق، وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وهاجموا القرى ونهبوا المال والمتاع دون وجود قوة تردع تصرفاتهم، قام الصلحاء لمنع حدوث هذا الإيذاء فقام رجل من ناحية طريق الأنبار خالد الدربوش الذي دعا جيرانه وأهل حارته أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي تمكن من محاربة هؤلاء الفساق وهزيمتهم، فقتل من قتل وحبس الآخرين ورفع أمرهم للسلطان كما قام بهذا الأمر بالدعوة للأمر بالمعروف النهي عن المنكر رجل آخر اسمه سهل بن سلامة الأنصاري والذي علق مصحفاً في عنقه فجاء إلى ديوانه خلق كثير والذي قام بالطواف ببغداد وأسواقها وطرقها ومنع الجباية من الناس بحكم الخفارة، لكن الدربوش وسهل لم يكونا على وفاق لكنهما منعا حدوث الفتنة الأهلية، كل ما حدث في بغداد من مآسي والمأمون في مرو لم يصل إليه شيء من أخبارها، حيث حجب عنه وزيره الفضل بن سهل كل هذه الأخبار.

سياسة المأمون نحو العلويين:

اتصف سياسة المأمون نحو العلويين بالعطف والتسامح، وهذا ما يتفق مع ميوله الفارسية وحب الفرس لآل البيت فأمه وزوجته فارسيتان وهذا عكس سياسة آبائه وأجداده نحو العلويين.

وحبّه للعلويين يتفق مع رغبة وميول الفرس الذين يعتقدون أن العلويين وحدهم أحق بالخلافة من غيرهم لصلة نسبهم الذي يربطهم بآل علي وحب الفرس لآل علي يرجع منذ ايام زواج الإمام الحسين بن علي من ابنة يزدجرد الثالث كسرى الفرس من الأسرة الساسانية وازداد حبهم لآل علي بتأثير من وزير المأمون الفارسي الفضل بن سهل.

وبلغ من حب المأمون وتعلقه بالعلويين أنه أتى سنة ٢٠١هـ بعلي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق الإمام الثامن عند الإمامية الإثنا عشرية وبايعه

بولاية العهد ولقّبه بالرضا من آل محمد وزوّجه من ابنته أم حبيب، وبلغ من حب المأمون لآل علي أن أمر جنوده بخلع شعار العباسيين السواد ولبس الثياب الخضراء شعار العلويين وكتب بأمره هذا لسائر أنحاء دولة الخلافة، هذا وقد اشتهر والد الإمام موسى الكاظم بزهده وورعه، لذا نشأ على رضا كوالده موسى الكاظم نشأة صالحة فكان ورعاً تقياً وعلى جانب كبير من العلم.

كان اتخاذ المأمون لعلي الرضا ولياً لعهده وخليفة للمسلمين من بعده أسباب دينية وأخرى سياسية، هدفه من وراء هذا العمل كسب رضا العلويين الخراسانيين له، لكن في الحقيقة لم يكن المأمون مخلصاً في توجهه هذا بتحويل الخلافة من الفرع العباسي إلى العلويين حيث إنه تراجع فيما بعد عن كل هذه الإجراءات حين دعته الضرورة لذلك.

أما أهل العراق فقد هاجوا وثاروا ورفضوا مبايعة علي الرضا بولاية العهد، وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس وقاموا بخلع المأمون ومبايعة عمه إبراهيم ابن المهدي خليفة عليهم ولقبوه (المبارك) سنة ٢٠٢هـ، هذا ولم يخبر الوزير الفضل ابن سهل الخليفة المأمون بكل ما حدث في بغداد وحتى لا يعرف المأمون بما حدث دبّر الفضل بن سهل عملية قتل القائد هرثمة بن أعين الذي كان يود إخبار المأمون بحقيقة الأمور في بغداد، الذي تجرأ على إخبار المأمون بكل ما حدث في بغداد من فتن وأحداث هو ولي عهده الذي اختاره علي الرضا، ووقتها تنبه المأمون للأخطار المحدقة به، فخرج المأمون من مرو إلى مدينة طوس حيث ضريح والده الرشيد وأخبره علي الرضا أن وزيره الفضل بن سهل كان يُخفي عنه الأخبار وفي طريق المأمون إلى طوس وعند بلدة سرخس شدّ قوم علي الفضل بن سهل وهو في الحمام وضربوه بسيوفهم حتى مات في ٢ شعبان سنة ٢٠٢هـ أما إجراء المأمون لمقتل الفضل أنه أمر بقتل من قتلوا الفضل وبعث برؤوسهم إلى أخيه الحسن بن فضل وعزاه وأخبره أنه جعله مكانه.

توجه المأمون من خراسان إلى بغداد

بعد مقتل الفضل بن سهل، ارتحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر، وأثناء وجود المأمون عند ضريح والده الرشيد في طوس توفي علي الرضا ويتهم البعض بأن الخليفة المأمون هو الذي أوعز بسمّه، لكن الأرجح أن من قام بذلك بعض بطانة المأمون ليُخفوا عن المأمون ما حدث من اضطراب العباسيين وثورتهم عليه في بغداد.

رحل المأمون من طوس إلى الري، فتحبب إلى أهلها فأسقط عنهم الكثير من الخراج. كلما اقترب المأمون من بغداد، ازداد اضطراب إبراهيم بن المهدي وقام القواد في وجهه وأرسلوا كتاباً لأحد قادة الحسن بن سهل يطلبون منه الحضور ليتسلم بغداد، حضر الحسن بن سهل فسلّمه الجنود بغداد والذي أعلن خلع إبراهيم بن المهدي والدعوة للمأمون، اختفى إبراهيم بن المهدي ليلة الأربعاء ١٧ من ذي الحجة سنة ٢٠٢هـ فكانت مدة حكم إبراهيم لبغداد سنة واحدة و١١ شهراً و١٢ يوماً.

استمر الخليفة المأمون في سيره حتى وصل النهروان فخرج لاستقباله أهل بيته والقادة ووجوه الناس، فسلّموا عليه، ثم وافاه من الرقة طاهر بن الحسين، وفي منتصف شهر صفر سنة ٢٠٤هـ دخل المأمون مدينة بغداد بلباسه الأخضر، فلبسه أهل بغداد وبنو هاشم واستمر المأمون في لباسه الأخضر ثمانية أيام ثم كلم بنو هاشم وولد بني العباس المأمون وقالوا له: يا أمير المؤمنين، تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتك وليست الخضرة.

طلب قادة المأمون من أهل خراسان وكذلك قائده طاهر بن الحسين أن يرجع للباس السواد، لما اجتمع الناس عند المأمون خلع ثيابه الخضر ودعا بلباس السواد فلبسه، كما ألبس السواد طاهر بن الحسين وباقي قادته، فلما خرجوا من عند المأمون وعليهم السواد، طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد من هذا

اليوم، ومن هذا اليوم بدأ الحكم الحقيقي للمأمون الذي ساس الأمة سياسة لين دون ضعف وقوة لا يشوبها عنف.

بعد وصول المأمون بغداد سنة ٢٠٤هـ أقبل عليه الناس مُرحبين ومبايعين، عفا المأمون عن عمه إبراهيم بن المهدي وعزل الحسن بن سهل من ولاية العراق، وبهذا تخلص المأمون من بني سهل الفرس كما تخلص والده من قبل من البرامكة واعتمد على أسرة طاهر بن الحسين فأمر بتولية طاهر على خراسان سنة ٢٠٥هـ واستمر حكم أسرة طاهر (الأسرة الطاهرية) في حكم خراسان وأبنائه من خلال الدولة الطاهرية.

الوزارة في خلافة المأمون

شهدت خلافة (أبو عبدالله المأمون) عدداً من كبار الشخصيات تسلموا الوزارة الواحد بعد الآخر وإليك أخي القارئ أشهر الأسماء التي تسلمت الوزارة من بداية خلافة المأمون إلى نهايتها وهم:

١- **الفضل بن سهل:**

من أصل فارسي، اسلم على يد المأمون سنة ١٩٠هـ وكان والده سهل قد أسلم على يد الخليفة المهدي، كان الفضل صاحب الكلمة الأولى في عهد المأمون وقد اختاره له والده الرشيد بإيعاز من الفارسي البرمكي جعفر بن يحيى، والفضل هذا هو الذي أرسل القائد طاهر بن الحسين لمحاربة علي بن عيسى بن ماهان وقد نال الفضل بعد انتصار طاهر لقب ذو الرئاستين وكتب على سيفه من جانب (رئاسة الحرب) ومن الجانب الآخر (رئاسة التدبير) وفي هذه السنة سنة ١٩٦هـ ولاّه المأمون على المشرق كله وكان راتبه ثلاثة آلاف ألف درهم.

بلغ الفضل من السطوة والصولجان حتى سيطر على شؤون المأمون حتى ضايقه، كما تضايق أهل بغداد منه ومن أخيه الحسن وكذلك بنو العباس، لذا دبّر

المأمون عليه من قتله في سرخس أثناء ذهاب المأمون لزيارة ضريح والـده في طـوس وسبق أن ذكرنا ذلك.

كان الفضل شيعياً، بلغ من تشيعه وحبه لآل علي أنه حمل المأمون عـلى مبايعـة علي الرضا العلوي بولاية العهد من بعده.

كان الفضل مولعاً بالنظر في النجوم وكان جيد الكتابة، حـسن القـول، كـريماً حتى مدحه الكثير من شعراء عصره، وكان لـه الـدور البـارز في زواج المـأمون مـن بوران ابنة أخيه الحسن بن سهل الفارسية.

٢ - أحمد بن أبي خالد:

استوزره المأمون بعد مقتل الفضل بن سهل أحمـد بـن أبي خالـد وهـو شـامي الأصل وكان مولى لبني عامر بن لؤي.

كان من خيار الوزراء، يـرى أن تخلـص قلـوب الرعيـة لإمامهـا، كـان دائـم المشورة بما يسر أنفس رعيته التي أظهـرت ولاءهـا بحـسن تـدبيره لمولاهـا خليفـة المسلمين المأمون اتصف الوزير أحمد بالشراهة في الأكل، كـان يتقـرب إليـه النـاس بالمآكل لينالوا ما عنده من المصالح، ولمعرفة الخليفة المأمون بشرهه، أجرى عليه كـل يوم لمائدته ألف درهم، كان يتصف بعبوس الوجه إلا أن فعله كان أحسن من لقائه، لذا كان من عرف نفسية أحمد وصبر على مداراته انتفع وكسب، ورغم شرهـه كـان كثير العطايا للناس ومن ماله الخاص، توفي الوزير أحمد في ذي القعدة سنة ٢١١هـ، وصلى عليه المأمون، وترحم عليه قائلاً عندما وُضع في القبر:

أخـو الجـدّ إن جـد الرجـال وشـمّروا وذو باطـل إن كـان في القـوم باطـل

٣ - الوزير أحمد بن يوسف:

كان من خيرة الكُتّاب وأجـودهم حظـاً فكلفـه المـأمون بكتابـة الكتـب التـي يريدها لوالي ديوان الرسائل عمرو بن مسعدة.

ولّى المأمون أحمد بن يوسف: ديوان السر، وبريد خراسان، وصدقات البصرة، ثم أسند إليه المأمون الوزارة بعد وفاة الوزير أحمد بن أبي خالد، كادَ لَهُ عدد من بطانة المأمون بسبب المكانة التي وصل إليها وخططوا لإقصائه عن قلب المأمون، بلغ من كيد أحدهم أن كلف الخادم الذي يقوم على رأس المأمون أن يُخبره بما يخص به المأمون أحمد بن يوسف من كرامة أو أي شيء، حيث إن المأمون كان يستدعي أحمد بن يوسف وقت السحر لقضاء الأمور معه.

وفي ذات يوم دخل أحمد على المأمون وليس عنده أحد، وكان تحت المأمون مجمرة عليها بيضة عنبر كان أمر بوضعها حين أطلّ عليه أحمد بن يوسف، وكانت النار لم تعمل منها إلا قليلاً، فأراد المأمون أن يُكرم بها وزيره أحمد ويُؤثره على غيره، أمر المأمون بأن تنقل المجمرة تحت أحمد بن يوسف، أخبر الخادم بما شاهده لصاحبه محمد بن الخليل بن هشام، فلما دخل محمد بن الخليل على المأمون، سأله عما تقول العامة وما تتحدث به، أخبره أن سقّاء يقول لآخر معه، ما رأيت كما يخبر ندماء هذا الرجل عنه (يعني المأمون) قال: انصرف من عنده أحمد بن يوسف فسمعته يقول لغلامه ما رأيت أحداً قط أبخل ولا أعجب من المأمون، دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع له نفسه أن يدعو لي بقطعة بخور حتى أخرج القتار الذي كان تحته فبخّرني به، عرف المأمون الحديث وقال في نفسه، والله ما حضر هذا اليوم أحد إلا فجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته، ألهذه الدرجة بلغ الحقد والحسد من بطانة المأمون لمن أخلص له.

٤ - **القاضي يحيى بن أكتم التميمي:**

هو من العلماء الذين لهم قدم ثابتة في الحديث والفقه والأصول، تولى قضاء البصرة وعمره عشرون سنة، وصل يحيى إلى المأمون عن طريق العالِم المتكلم ثمامة ابن أشرس الذي عرض عليه المأمون الوزارة فامتنع وأشار على المأمون باستوزار القاضي يحيى، عمل المأمون بوصية ثمامة فاستوزر يحيى وولاه مع الوزارة منصب

قاضي القضاة، كان يحيى على مذهب العامة، لذا كان الوزير يوجه وبذكاء منه الخليفة لما تراه العامة. أراد المأمون يوماً حل قضية زواج المتعة التي نهى عنها عمر ابن الخطاب، دخل يحيى على المأمون يوماً وقد تغير وجهه، فسأله المأمون عن سبب ذلك فقال: غمٌّ يا أمير المؤمنين، وهو النداء بتحليل الزنا، قال: نعم، فالمتعة زنا، قال له المأمون: من أين؟ قال: من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون:٥-٧]، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، زوجة المتعة ملك يمين، قال: لا، قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها، قال: لا، قال: فقد صار من يتجاوز هذين من العادين، وهذا قول الزهري راوياً عن عبدالله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب، قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها فسأله المأمون عن حديث الزهري أهو محفوظ فعلم أنه رواه مالك فقال المأمون: أستغفر الله وأمر فنودي بتحريم المتعة.

كان يحيى مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور، كان فصيحاً، جوابه على قدر سؤال سائله، كان ﷺ من المحدثين الذين يُروى عنهم الحديث، وقد أنكر أحمد بن حنبل ما يرميه بعض الناس من هِنات للقاضي يحيى.

رغم فقه يحيى وتقواه، لم يكن ختام أمره مع المأمون خيراً، كان من ضمن وصية المأمون لأخيه المعتصم، لا تتخذنّ من بعيد وزيراً تلقي إليه شيئاً، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكتم في معاملة الناس وخبث سيرته، حتى أبان الله ذلك منه في صحة مني فصرت إلى مفارقته قالياً له غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته، لا جزاه الله عن الإسلام خيراً.

كان سخط المأمون على يحيى بمصر سنة ٢١٥هـ وأعاده للعراق مغضوباً عليه وتوفي في خلافة المتوكل.

٥ - **أبو عبّاد ثابت بن يحيى بن يسار الرازي:**

قال في حقه الشاعر دعبل:

أولى الأمـــور بـــضيعة وفـــساد أمـــر يـــديره أبـــو عبـــاد

رغم حذقه ونباهته كان أهوج أحمقاً، شديد الحدة، سريع الغضب، فقد رمى بدواته وشتم من كان بين يديه ويفحش له القول.

٦ - **آخر وزراء المأمون هو أبو عبدالله محمد يزداد بن سويد:**

أصلهم مجوس ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء، وسويد أول من أسلم وخرج بنوه كتاباً وخاصةً وزيرنا هذا أبو عبدالله الذي برع في كل شيء، مات المأمون ومحمد هذا ما زال وزيراً.

وخلاصة القول: إنه لم يكن للوزراء في عهد المأمون الكثير من النفوذ، حيث كان المأمون ينظر في أمور الدولة بنفسه حتى لا يستفحل أمرهم كما حدث مع الفضل بن سهل في عهده ولجعفر البرمكي في عهد والده الرشيد.

الأحوال الداخلية في خلافة المأمون

أولا: العلويون وآثارهم في الدولة:

سبق أن ذكرنا، وبتأثير من الوزير الفضل بن سهل ومن الفرس، اختيار المأمون لعلي الرضا بن موسى الكاظم «التأمن من أئمة الشيعة الإمامية» لولاية العهد واتخاذه الشعار الأخضر بدل الأسود، وما نجم عن ذلك من اضطرابات في بغداد وقيام حركة (أبو السرايا) التي سبق الحديث عنها والعلويين من أجل تنصيبه ولياً للعهد، ثم كان من وفاة علي الرضا في مدينة طوس (مشهد الآن) وانتهاء فتنة أبي السرايا، وسقوط جميع حركات العلويين الذين خرجوا في ذلك الوقت في البصرة والحجاز واليمن، كما أن المأمون قد ترك الشعار الأخضر وعاد للشعار الأسود شعار أهل البيت العباسي بعد تركه لخراسان واستقراره في العاصمة بغداد.

بلغ من شدة تأثر المأمون بالعلويين أن زوّج ابنته من علي الرضا الذي بويع بولاية العهد، كما زوج ابنته الأخرى من محمد بن علي المعروف بالجواد (الإمام التاسع من أئمة الشيعة) والذي لم يعمل شيء يريب المأمون، كان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتماده في فضل أبيهم واستمرت معاملته طيبة له حتى خرج في اليمن سنة ٢٠٧هـ من آل أبي طالب عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وجّه إليهم المأمون جيشاً كبيراً بقيادة دينار بن عبدالله وكتب معه كتاباً يمنحه الأمان، قام دينار بأداء فريضة الحج وبعد موسم الحج سار دينار إلى اليمن حتى أتى عبدالرحمن، بعث إليه دينار بالأمان من المأمون فقبل ذلك وضع يده في يد دينار ثم توجه الاثنان إلى بغداد، منع المأمون الطالبيين من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد، جاء في وصية المأمون لأخيه المعتصم بأن يُعامل الطالبيين معاملة حسنة وأن يُحسن صحبتهم وأن يتجاوز عن مسيئتهم وإعطائهم حقوقهم السنوية ولما اختلّ الأمن في البلاد اليمنية وتشيع أهلها، أراد المأمون أن يختار لولاية اليمن من يأخذ على أيدي المفسدين فيها، أشار عليه وإليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبي سفيان وهو محمد بن إبراهيم الزيادي فولاه اليمن سنة ٢٠٣هـ فذهب إلى اليمن بعد حجه وبعد فتحه تهامة اختطّ مدينة زُبيد سنة ٢٠٤هـ، عظم أمر الزيادي في اليمن وأصبح كأنه ملك مستقل، لكنه يخطب لبني العباس، ويرسل إليهم الخراج والهدايا واستمر في حكمه لليمن حتى ٢٤٥هـ ثم أصبح المُلك في أبنائه ثم في مواليهم وموالي مواليهم إلى سنة ٥٥٣هـ (الدولة الزيادية) ومثلها قام في تونس دولة الأغالبة منذ عهد الرشيد وكان حاكمها في خلافة المأمون الأمير عبدالله بن إبراهيم ابن الأغلب (٢٩٦-٣٠١هـ) ثم أخيه زيادة الله الذي استمر في حكمه حتى سنة ٣٢٣هـ وفي عهده فتح الأغالبة صقلية من الروم هذا وقد اقتُطع من حكم العباسيين دولة الأدارسة في المغرب الأقصى والدولة الأموية في الأندلس.

ثانيا: إبراهيم المهدي:

سبق أن ذكرنا أن أهل بغداد بعد مبايعة المأمون لعلي الرضا بولاية العهد وتأثيرات الفضل بن سهل الفارسي عليه، لذا بايعوا عم المأمون إبراهيم المهدي بالخلافة، لكن بعد تحرك المأمون من مرو بخراسان باتجاه بغداد ومعرفة قادة إبراهيم بذلك، تركوا إبراهيم وشأنه، اختفى إبراهيم في بغداد حتى سنة ٢١٠هـ، حتى أخبر عن وجوده حارس أسود، أمر المأمون الحارس بالاحتفاظ به، ثم دخل به عليه، قال إبراهيم للمأمون فإن تُعاقب فبحقك، وإن تعفُ فبفضلك، ردّ المأمون بل أعفو يا إبراهيم فقال إبراهيم مادحاً:

يا خير من ذملت يمانيه به ... بعد الرسول لآيس أو طامع
وابر من عبد الإله على التقى ... عينا وأقوله بحق صادع
إنّ الذي قسم الخلافة حازها ... في صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها ... وحوى رداءك كل خير جامع

بعد سماع المأمون لهذه الأبيات من عمه إبراهيم قال: أقول ما قال يوسف عليه السلام لإخوانه ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩٢]. هذا وقد اطلع المأمون قبيل ذلك على مؤامرة بتدبير من إبراهيم بن محمد بن عبدالوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة بخلع المأمون وعادة عمه إبراهيم للخلافة، اطلع المأمون على هذه المؤامرة السبت ٥ صفر سنة ٢١٠هـ وحضور إبراهيم بن المهدي بين يديه في ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠هـ، انتقم المأمون من ابن عائشة بإقامته في الشمس ثلاثة أيام على باب دار المأمون، ثم ضربه بالسياط، ثم أمر بحبسه ومن معه، ثم أمر المأمون بابن عائشة فقُتل وصُلب وهو أول مصلوب في الإسلام من بني العباس وقُتل معه ثلاثة من رؤوس المتآمرين في ١٤ جمادى الآخرة سنة ٢١٠هـ.

ثالثا: حركة نصر بن شيت:

نصر عربي شهم، من بني عقيل، كان يسكن في يكسوم شمالي حلب، غضب لمقتل الخليفة الأمين، رأى أن العنصر العربي قد انحطّ شأنه حيث أصبح معظم القادة الأمراء من غير العرب من الأعاجم، أظهر خروجه على السلطان أواخر سنة ١٩٨هـ، تغلب على ما جاوره من البلاد واجتمع معه وحوله خلق كثير من الأعراب، عبر الفرات إلى الجانب الشرقي، حدثته نفسه بالتغلب على هذه المنطقة، لكن بعد انتصار القائد طاهر بن الحسين على الأمين وتملكه للعراق ثم توليه الحسن ابن سهل على كل ما افتتحه طاهر، طلب الحسن من طاهر السير إلى الرقة لمحاربة نصر وبعد توليه طاهر على الموصل والجزيرة والشام والمغرب، أرسل طاهر إلى نصر يدعوه إلى الطاعة للمأمون وترك الخلافة، فلم يستجب، تقدم نحوه طاهر ولقيه في نواحي يكسوم، اقتتلا قتالاً شديداً، كان النصر فيه لنصر ثم عاد طاهر إلى الرقة شبه مهزوم ولم يكن جاداً في حربه لنصر بعد تجريده مما فتحه في العراق وغيره فقوي أمر نصر وكثر جمعه وانضم إليه نفر من شيعة الطالبيين وطالبوه بمبايعة بعض آل علي ابن أبي طالب، وضّح لهم أن هواه مع بني العباس، وإنما حاربهم دفاعاً عن العرب لأنهم قدموا عليهم العجم، لما وصل المأمون إلى بغداد، طلب من القائد طاهر لقاء نصر، ترك طاهر الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبدالله وكلفه بمقاتلة نصر وكتب إليه كتاباً بلغ المأمون نصّه، فلما قرأه المأمون قال: ما أبقى أبو الطيب (يعني طاهر) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به وأرسل كتابه هذا للأمصار.

جدّ عبدالله بن طاهر بن الحسين في حرب نصر حيث حاصره وضيّق عليه حتى مالَ إلى الأمان. أرسل المأمون جعفر بن محمد العامري، مع رسالة إلى نصر يطلب منه ترك الحرب والجنوح للسلم فأذعن على شروط منها ألا يطأ بساطه، عاد العامري، وأبلغ المأمون مطالب نصر، أجاب المأمون: لا أُجبه والله إلى هذا أبداً ولو أفضيت إلى بيع قميصي حتى يطأ بساطي، عاد الرسول إلى نصر وأخبره بما قاله

المأمون، فصاح نصر بالخيل صيحة فجالت ثم قالت وَيْلي عليه. لكن نصر لما رأى جدْ عبدالله بن طاهر في حربه، أجابه إلى التسليم بعد طلبه الأمان، كتب إليه المأمون كتاب أمان ثم خرج إلى عبدالله بن طاهر بعد أن هدم يكسوم وخرّبها وأُرسل نصر إلى المأمون في بغداد في شهر صفر سنة ٢١٠هـ، أنزله المأمون مدينة أبي جعفر ووكل من يحفظه، وكافأ المأمون طاهر وابنه عبدالله فوّلى طاهر على خراسان وولى ابنه عبدالله من الرقة إلى مصر.

رابعا: ثورة الأقاليم:

نظراً لضعف السلطة المركزية في بغداد في عهد الأمين وأوائل عهد المأمون بسبب الفتن والحروب القائمة، انتقلت عدوى هذه الفتن إلى الأقاليم الإسلامية وساعد على تأجيجها التهاون بمصالح الناس وإرهاقهم بكثرة الضرائب ومن أبرز هذه الثورات:

أ- **ثورة الأندلسيين المهاجرين في الإسكندرية**: بمساعدة أعراب البحيرة الذين أسسوا إمارة أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية، استمرت عشر سنوات وبعد أن استتب الأمر للمأمون أرسل قائده عبدالله بن طاهر بن الحسين إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها سنة ٢١٢هـ، أرسل عبدالله إلى الأندلسيين يهددهم بالحرب إن لم يدخلوا في الطاعة، أجابوه لطلبه حقناً للدماء، تم الاتفاق على مغادرتهم الديار المصرية وعدم النزول في أرض تابعة للعباسيين، اتجهوا لجزيرة كريت واستولى أميرهم أبي حفص عمر البلوطي على كريت من البيزنطيين وأسسوا قاعدة لهم عُرفت باسم الخندق وتحولت كريت لقاعدة بحرية إسلامية ضد البيزنطيين

ب- **ثورة الأقباط سنة ٢١٦هـ**: سببها ظلم الولاة، فداحة الجزية، كثرة الأعباء على كاهل المصريين، عمّت الثورة الوجه البحري، واستمرت ثمانية أشهر، اضطر خلالها الخليفة المأمون الذي كان وقتها في الشام أن ذهب بنفسه إلى مصر

لتهدئة الأوضاع، غضب المأمون على والي مصر عيسى بن منصور وأنّبه قائلاً: «لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عُمّالك، حمّلتم الناس ما لا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد».

عزل المأمون الوالي وأخذ الثوار في بادئ الأمر باللين ووّسط بينه وبينهم أسقفاً معروفاً اسمه دنيس، لكن هذه الوساطة لم تنفع مما اضطر المأمون لاستخدام الشدة والعنف لإخماد الثورة.

ج- ثورة الزط: الزط كما قال عنهم ابن خلدون: «قوم من أخلاط الناس ويُعرفوا باسم النَّوَر وأصلهم من هنود آسيا، كانوا يسكنون شواطئ الخليج العربي، تجمعوا وسيطروا على طريق البصرة أيام الحرب بين الأخوين الأمين والمأمون».

الزط تعريب للكلمة الفارسية جت وتطلق أيضاً على الغجر والنَّوَر في إسبانيا، أرسل إليهم المأمون عدة حملات في سنتي ٢٠٥، ٢٠٦هـ، لم يتمكن من القضاء على ثورتهم وازداد خطرهم حتى فرضوا المكوس على السفن الداخلة إلى بغداد وحالوا دون وصول الأقوات للعاصمة بغداد، استمرت ثورتهم حتى قضى عليها في خلافة المعتصم القائد العربي عجيف بن عنبسة سنة ٢١٠هـ والذي نفاهم إلى مدينة عين زوربة في منطقة الثغور بآسيا الصغرى ويبلغ عددهم حوالي ٢٧ ألفاً بين رجال ونساء وأطفال.

هذا وذكر المؤرخ الطبري في حوادث سنة ٢٠٦هـ أن المأمون أسند محاربتهم إلى داود بن ماسجور بعد أن عاثوا فساداً في طريق البصرة وأخافوا السبيل بقطعهم للطريق واسم رئيس الزط محمد بن عثمان ومسؤول الحرب عنده سملّق، لما ضيق عليهم القائد عجيف طلبوا منه الأمان فأمّنهم سنة ٢١٩هـ في خلافة المعتصم وتخلص بذلك من شرورهم وآذاهم.

د- ثورة بابك الخرمي: يُنسب بابك إلى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية يدينون بما يريدون ويشتهون، أباحوا المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفِعْل ما يتلذذون به.

خُرمة قرية بفارس منها بابك الخُرمي، نشأ في قرية بلال أباد رستاق، رأى فيه جاويدان فهماً وشهامة وخُبثاً فقربه إليه، فلما مات جاويدان اجتهدت امرأته أن يكون بابك مكانه في المُلك، حيث قالت زوجة جاويدان إن زوجها قال إن روحي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام (يعني بابك) خادمي وقد رأيت أن أملكه على أصحابي، فإذا متّ فأعْلميهم ذلك وأنْ لا دين لمن خالفني فيه، وتزوجت زوجة جاويدان من بابك الذي أحبته.

قام بابك ومن معه في العبث والإفساد وإخافة السبل منذ سنة ٢٠١هـ عندما كان المأمون في مرو بخراسان، لما انتقل المأمون واستقر في بغداد عيّن قائده يحيى بن معاذ لحرب بابك وحدثت بينهما معركة متعادلة، فاختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد حيث ولاّه أرمينا وأذربيجان وكلفه بمحاربة بابك إلا أنه تراجع فوجه إليه صدقة بن علي (زريق) إلا أنه انتدب لحرب بابك أحمد بن الجنيد الإسكافي والذي تمكن بابك من أسره فوجه إليه المأمون محمد بن حميد الطوسي إلا أن بابك قتله وجمعاً كبيراً ممن معه سنة ٢١٤هـ، لذا كانت وصية المأمون لأخيه المعتصم أن يتابع حرب بابك الخرمي فاختار المعتصم لحربه قائده التركي المشهور حيدر بن كلوس الأشروسني المعروف باسم الأفشين سنة ٢٣٠هـ وكانت أول المعارك بينهما بأرشق أحد حصون الأفشين حيث خرج بابك ليقنص مالاً أرسله المعتصم مع أحد قواده، فوصل الخبر إلى الأفشين والذي خرج لبابك سراً والتقيا على مقربة من الحصن فأتى جند الأفشين على جميع رحاله، لكن بابك أفلت في نفر يسير ودخل موقان ومنها توجه إلى البذ فعاد الأفشين إلى عسكره ببرزند واستمرت الحروب بينهما وفي ربيع سنة ٢٣١هـ اقتحم المسلمون البذ واستيلائهم عليه فحاول بابك الهرب إلا أن الأفشين سدّ عليه الطرق وقبض عليه وعلى أخيه عبدالله وعاد بهما الأفشين إلى سامراء ومعه ١٧ رجلاً من أهل بيت بابك من البنات والكُتّاب وقتل المعتصم بابك وصلبه في سامراء وصلب أخيه في بغداد وبهذه الجرأة والقوة تمكن المأمون وأخيه المعتصم من بعده من القضاء على هذه الثورات فساد الخلافة في

عهد المأمون الأمن والأمان والاستقرار فتفرغ للعلم والترجمة والحضارة ونقل تراث الآخرين.

القادة العظام في عهد المأمون

أولا: طاهر بن الحسين بن ماهان:

سبق الحديث عنه من خلال قيادته للحرب ضد جيش الأمين حتى احتل بغداد. هو من مواليد بوشنج من أعمال مرو سنة ١٥٩هـ، كان جده مصعب والياً عليها وعلى هُراة، كان شجاعاً، شهماً، اشتهر من قواد الكتائب الخراسانية في حرب الأمين لصالح المأمون، وقد ذاع صيته بعد انتصاره على جيوش الأمين، لكن وزير المأمون المشهور الفضل بن سهل عزّ عليه أن ينفرد طاهر بهذه الإنجازات التي حققها والشهرة التي نالها حيث طلب الفضل من الخليفة المأمون تنحية طاهر عن العراق وإرساله لمنطقة الجزيرة لمحاربة نصر بن شبث وإبداله بأخيه الحسن بن سهل بتعيينه والياً على العراق، لكن أثناء عودة المأمون إلى العاصمة بغداد مات الوزير الفضل بن سهل بتعيينه والياً على العراق، لكن أثناء عودة المأمون إلى العاصمة بغداد مات الوزير الفضل بن سهل في الطريق إلى طوس كما سبق ذكره سابقاً، أمر المأمون طاهراً أن يلقاه في بغداد، لأنه عرف مكانه وجهده الكبير في احتلال بغداد حيث عرف مكانه وأحلّه المنزلة التي تليق به فولاّه الجزيرة والشرط وجانبي بغداد، ثم ولاّه المأمون تقديراً لجهوده خراسان حيث ساسها أحسن سياسة، واستغل بها طاهر ومن خلفه من أبنائه بتكوين الدولة الطاهرية والتي استمر حكمها في خراسان في البيت الطاهري من سنة ٢٠٥ إلى ٢٥٩هـ حيث سقطت الدولة الظاهرية على يد يعقوب بن الليث الصفّار.

ثانيا: القائد عبدالله بن طاهر:

هو ابن القائد الذي سبق الحديث عنه طاهر بن الحسين، وُلد في خلافة الرشيد سنة ١٨٢هـ، وكان عمره عندما سطع نجم والده طاهر في الحرب بين

الأمين والمأمون ١٦ عاماً فتربّى في كنف الخليفة المأمون، نشأ شهماً نبيلاً، أديباً وكان المأمون يحبه حباً جماً، فولاّه حرب نصر بن شبث كما مرّ معنا سابقاً، حيث ردّه لطاعة المأمون بعد أن حاصره وضيّق عليه وقد أرسله المأمون إلى مصر بعد حدوث اضطرابات عبيد الله بن السري أمير مصر وفتنة الجالية الأندلسية بالإسكندرية، حيث أخضع مصر لسلطة المأمون كما مرّ معنا في القضاء على ثورات الأقاليم، شكره على الجهود التي قام بها وزير المأمون أحمد بن يوسف، كما كتب إليه المأمون كتاباً كتب في أسفله:

أخي أنت ومولاي ... ومن أشكر نعماه

لك الله على ذاك ... لك الله لك الله

بعد إعادته مصر لطاعة المأمون ولاّه المأمون أرمينيا وأذربيجان لمحاربة بابك الخرمي.

الخراج في عهد المأمون:

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع الأقاليم التي خضعت للحكم العباسي والتي نقلها العلاّمة ابن خلدون في مقدمته المشهورة.

مجموع الخراج من الدراهم ٣١٩,٦٠٠٠,٠٠٠ و ٣٨١٧٠٠٠ والكثير الكثير من العروض وكل هذه المبالغ الكبيرة تصل إلى العاصمة بغداد وتكون تحت تصرف الخليفة، يدفع منها الخليفة رواتب الوزراء والعُمّال والحاشية ولتجهيز الجيوش وما يتبقى يهب منه الخليفة ما شاء لمن شاء مما زاد الحاضرة سعةً ورخاءً.

من مزايا الخليفة المأمون وأخلاقه:

لم يحفظ أحد من الخلفاء القرآن إلا عثمان بن عفان والمأمون. واتصف الخليفة المأمون بالذكاء والنباهة ونرى ذلك من الأحداث التالية:

أ- رُوي عن ابن عيينة قوله: جمع المأمون العلماء، وجلس للناس، فجاءته امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين مات أخي وخلف وراءه ستمائة ديناراً، أعطوني منها ديناراً واحداً وقالوا هذا نصيبك، قال ابن عيينة: فحسب المأمون، ثم كسر الفريضة، ثم قال لها: نعم هذا نصيبك، فقال له العلماء: كيف علمت يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الرجل خلف ابنتين، قالت: نعم، قال: فلهن الثلثان أي أربعمائة، وخلّف والدة فلها السدس مائة دينار وخلّف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون ديناراً، وبالله فلك اثنا عشر أخاً؟ قالت نعم، قال: أصاب كل واحد منهم ديناران، ديناران، وأصابك دينار[1].

ب- أخرج عن عمارة بن عقيل: قال لي ابن أبي حفصة الشاعر: أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟ فقلت: من ذا يكون أفرس منه؟ والله إنا لننشد أول البيت فيسق إلى آخر، من غير أن يكون سمعه، قال: إني أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم أره تحرك له وهو هذا:

أضحى إمام الهدى المأمون مُشتغلاً   بالدين والناسُ في الدنيا مشاغلُ

فقلت له: ما زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها في يدها سبحة، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولاً عنها ! وهو المطوق لها إلا قلت كما قال عمك في الوليد:

فلا هو في الدنيا يُضيع نصيبه   ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغله

ج- أخرج عن عبدالله بن محمد الزهري قال: قال المأمون غلبةُ الحجة أحبُّ إليّ من غلبة القدرة، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها، وغلبة الحجة لا يزيلها شيء[2].

(١) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص٢٥٣.
(٢) تاريخ السيوطي، ص٢٥٤.

د- المأمون وأبو دُلف حين ظفر به: لما ظفر المأمون بأبي دلـف وكـان يقطـع في الجبال، أمر بضرب عنقه، فقال يا أمير المؤمنين دعني اركـع ركعتـين، قـال: افعـل، فركع وحبّر أبياتاً ثم وقف بين يدي أمير المؤمنين فقال:

بـــــعْ بِيَ النـــــاس فـــــإنّي خلَـــــفٌ ممـــــن تبيـــــعُ
واتخــــذني لـــــك درعـــــاً قلـــــصت عنـــــك الـــــدروع
وارم بي كـــــل عـــــدو فأنـــــا الـــــسهم الـــــسريع

فأطلقه وولاّه تلك الناحية، فأصلحها[1].

هـ- تعذر على رجل لقاء المأمون في ظلامة، فصاح على بابـه «أنـا أحمـد النبـي المبعوث» فضجّ من سمعه، وأدخله إلى المأمون، فذكر ظلامته، فقال له المـأمون: مـا تقول فيما أنت متهم به؟ قال: ما هو؟ قال: ادعاؤك النبوة. قال: معاذ الله! إنـما قلـت أنا أحمدُ النبي المبعوث، أفأنت ممن لا يحمده يا أمير المؤمنين!! فاستطرفه المأمون وأمر بإنصافه.

و- كان للمأمون لذة في العفو لا يعادلها لذة، حتى أنه لمّا ظفر بعمه إبراهيم بن المهدي عفا عنه مع عظيم جرمه، وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمـأمون الذي أحس من نفسه بقدرة السلطان، فأذهب ذلك عنه الحفيظـة ولم يـؤثر عنـه مـا يعيبه.

ز- ومن مزاياه رحمه الله أنه كان في جدله ومناظرتـه ميـالاً إلى الإقنـاع، فكـان يناقش من خالفه، حتى يبين له الحجة. وله في ذلك مجالس مأثورة مـشهورة وعنـده في الجدل والمناقشات حجج قوية ناصعة وتتسم بسعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره في المناقشة.

(١) طرائف الخلفاء والملوك، عبد أعلى مهنا، ص٢٢٤-٢٢٥.

ح- كان المأمون مع حلمه، يعلم ما كان عليه رؤساء جنده ورجال دولته، فلم يكن المُغفل الذي ينخدع برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من شيمهم.

ط- كان رحمه الله يجلس للمظالم، ليقضي لأصحاب الحاجات حاجاتهم، وكان مع هذه الأخلاق في قضاء حوائج الناس، كان أديباً يعرف جيد الشعر ورديئه، ويثيب على ما أعجبه منه ثواباً فوق كل أمل.

حدّث عمارة بن عقيل، قال: أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له تضم مائة بيت أو أكثر، ما ابتدأت بصدر بيت إلا بادرني إلى قافيته، فقال عمارة للمأمون والله يا أمير المؤمنين ما سمعه مني أحد قط، فقال المأمون هكذا ينبغي أن يكون.

ي- جرت الأمثال في كرمه، فقد غلب في كرمه خلفاء بني العباس وحتى والده الرشيد الذي كان يعطي عطاء من لا يخاف فقراً ولا يخشى إقلالاً.

هذا وقد مات أيام خلافة المأمون مجموعة من العظماء الأعلام منهم: سفيان ابن عيينة والشافعي وعبدالرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد القطان ويونس بن بكري وإسحاق بن الفرات قاضي مصر، وأبو عمر الشيباني اللغوي، والفراء إمام العربية والمؤرخ الواقدي والشاعر أبو العتاهية والأديب الأصمعي.

وفي أيام المأمون وفي سنة ٢٠٠هـ أُحصي عدد أولاد العباس بين ذكر وأنثى بلغوا حوالي ٣٣ ألفاً.

المأمون أول من كسا الكعبة بالديباج الأبيض.

العلم والنهضة الفكرية في عهد المأمون:

امتاز العصر العباسي الأول بنهضة فكرية وعلمية واضحة المعالم وبلغت هذه النهضة أوجها في عصر الخليفة المأمون، وقد شارك المأمون بنفسه في هذه النهضة حتى قيل عن المأمون: «أعلم الخلفاء بالفقه وعلم الكلام وأنه فيلسوف الخلفاء وحكيم بني العباس». وهو القائل «لا نزهة ألذّ من النظر في عقول الرجال».

هذا ويعتبر عهد المأمون أرقى عهود العلم في العصر العباسي لأمرين:

١- اشتغال المأمون نفسه بالعلم والإمعان فيه، فقد جالس المأمون الكثير من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية (حديث، تفسير، فقه، لغة عربية).
٢- ما كان من الأمة العربية نفسها من شوقها للعلم والبحث وكثرة العلماء.

أقسام العلوم في عهد المأمون:

- أولاً: العلوم الدينية.
- ثانياً: علوم الصناعات.

العلوم الدينية:

منها ما يرجع لأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد، ومنها ما يرجع إلى أحكام الأعمال وهي: الفقه وأصوله وأدّلتها من القرآن والحديث.

نتج عن هذه العلوم اعتقادات تُخالف ما عليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث. ومن أبرز هؤلاء العلماء: واصل بن عطاء، عمرو بن عبيد، الهذيل محمد بن الهذيل العلاّف، إبراهيم بن يسار النظام، عمر بن بحر الجاحظ، ثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤساء الاعتزال وأصحاب الآراء والأقوال الذين تكلموا في أصول الدين، خالفوا فيها جمهور العلماء (أهل الحديث) ومن هذه الأصول التي حدث فيها الاختلاف:

١- **مسألة القدر وأفعال العباد**: قالوا إن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله وعليها يستحقون الثواب والعقاب، بينما يرى العامة والجمهور أن أفعال العباد مخلوقة لله وليس للعباد.

٢- **صفات الله تعالى**: نزّه المعتزلة الله تعالى عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام فقالوا: إن الله قادر بذاته بينما

يقول العامة إن الله قدير بقدرته وهي صفة قائمة بالذات وليست عين الذات ولا غيرها.

كما قالوا بأن القرآن مخلوق لله كسائر المخلوقات وأن مسألتي القدر وصفات الله أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة.

قال أهل الحديث عن المعتزلة إنهم مبتدعة فارقوا وخالفوا ما عليه سلف الأمة، أما المعتزلة فقالوا عن أهل الحديث إنهم عامة يتخذون ما يُظهرون به.

كما اختلف أهل الحديث والمعتزلة في مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول الله ﷺ : قال الجمهور إن الخلفاء الراشدين مرتبون في الاستحقاق، بينما يرى الشيعة أن علياً و أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ ويستحقها من بعده أولاده وهم مختلفون في الحكم على من سبق علياً من الخلفاء فمنهم الغُلاة ومنهم الهيّن وهما شيعتان مختلفتان: الإمامية والزيدية.

هذا ولم يكن قبل الخليفة المأمون لأصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث وإظهار الآراء بل كانوا يخشون بأس العامة، ولم تكن لهم قوة من الخلفاء الذين يراعون العامة، لكن لّما جاء المأمون للخلافة، رأى أن يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ويجعل لهم مجالس للمناظرة ليتفقوا فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة وبإمعان النظر فيما دار في المناظرة تخرج بقضايا أهمها:

قضية خلق القرآن:

تقديم:

أباح المأمون الكلام وأباح للمتناظرين حرية القول والكلام، عابت طوائف من الناس هذه الإباحة من المامون في حرية القول، لأنه عُلم من هذا التصرف منه موافقته على بعض الآراء التي تخالف رأي العامة الذين قالوا إن مذهبه في تفضيل

علي بن أبي طالب ﷺ على سائر الخلفاء واتهموه وهو بريء منه في انتقاصه لغيره من الصحابة.

كان المأمون يظن أنه في مجلس المناظرة هذا يتواصل بـه إلى إزالـة الخـلاف بـين العلماء فيما اختلفوا فيه، فالشاكّ يتبين والمعاند يكره، انتهت تجربته هذه بالفشل فلـم يعد أحد من الخلفاء إلى مثله.

يقول الطيفوري عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم اليزيدي أنـه سـمع المعتـزلي ثمامة يقول: إن المأمون عامي لتركه القول بالقدر، وإنما وافقهـم عـلى القـول بخلـق القرآن واظهر رأيه هذا سنة ٢١٢هـ ظاناً أن علماء وفقهاء الأمة يوافقوه راضين عـن رأيه، لكن النتيجة كانت عكس ما ظن وقالوا عنه إنه مبتدع وغـالى الـبعض بقـولهم بكفر من رأى بخلق القرآن.

استمر الخلاف بين الفريقين أربع سنوات في قضية أن القرآن مخلوق حتى سنة ٢١٨هـ حيث رأى المأمون أن يستعين بقوة سلطانه في ردّ الفقهاء إلى رأيـه، حتـى لا يكون معترفاً بفشله فيما شرع فيه.

كتب المأمون لعامله على بغداد إسحاق بن إبـراهيم بـصفته إمامـاً للمـسلمين يجتهد في إقامة الدين فاتهم العامة بالجهالـة بـالله، قـال لعاملـه إسـحاق: أجمـع مـن بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتابي أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشف سفهم فيما يعتقدون في خلق الله القرآن وأعلمهم أن أمير المـؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله واسـتحفظه مـن أمـور رعيتـه بمـن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه[1]. وكتب إلى إسحاق أن يـشخص إليـه سـبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور، منهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ويحيى بـن معـين وأبو خيشمة زهير بن حرب وأحمد بن إبراهيم الدورقي، فـامتحنهم واسـألهم عـن

(١) تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، محمد بك الخضري، ص٢١١-٢١٢.

خلق القرآن، أجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق، فأرسلهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم لداره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم.

وفي كتاب ثانٍ من المأمون لعامله إسحاق بن إبراهيم، حيث جمع ثلاثين رجلاً من هؤلاء العلماء ثم سألهم: هل القرآن مخلوق وبعد أن أتم امتحانهم جميعاً، أرسل بالنتيجة للمأمون، غاظ المأمون ما قالوه، فكتب في شأنهم كتاباً ثالثاً، قرّع فيه أولئك العلماء أشدّ التقريع وذكّر كلٍّ منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة في عمله أو خلقه وكأنه يعرف دخائل كلٍّ منهم معرفة الخبير، وخلاصة كتابه أنه ذكر رجلين هما: بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي، أمر عامله أن يستتيبهما فإن تابا أشهر أمرهم وإلا ضرب أعناقهما، أما باقي الرجال الثلاثين فإن لم يقولوا بخلق القرآن فيحملهم جميعاً موثوقين إلى عسكر أمير المؤمنين، ثم أحضرهم إسحاق مرة ثانية وسألهم فأجابوا جميعاً بأن القرآن مخلوق، ما عدا أربعة منهم فأمر بهم فشدوا في الحديد وفي اليوم التالي أعاد امتحانهم فأجاب أحدهم بخلق القرآن فأطلق سراحه وفي اليوم الثالث من شدهم في الحديد أعاد امتحانهم فأجابه أحد الثلاث وبقي اثنان صمما على عدم الإجابة بخلق القرآن وهما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فأرسل بهم إسحاق بن إبراهيم إلى طرسوس وضم إليها بشر بن الوليد للإقامة في طرسوس حتى يرجع أمير المؤمنين المأمون من بلاد الروم، فلما وصلوا الرقة وصلهم خبر وفاة المأمون فأعيدوا إلى بغداد.

والخلاصة: أن المأمون في إصراره على رأيه في قضية خلق القرآن هو تقييد لحرية الرأي، فمن تنازل من العلماء عن رأيه واستجاب لرأي المأمون، أنزل هذا التصرف منهم من مكانتهم وكان عيباً من عيوبهم أما الذين ثبتوا على رأيهم وصبروا على الابتلاء وهذه المحنة ولم يتساهلوا فهم الذين استحقوا الاحترام والعناية والتكريم، وكان على رأس هؤلاء العلماء الصابرين والمحتسبين لما تعرضوا له من

بلاء وتعذيب هو الإمام الصابر والمحتسب العالِم العابد أحمد بن حنبل والـذي نـال بصبره الشرف العظيم.

استمر من الخلفاء على رأي المأمون في قضية أن القرآن مخلوق الخليفة المعتـصم استجابة لوصية أخيه المأمون وكذلك الخليفة الواثق الـذي ملّهـا أخـيراً، فلـما جـاء الخليفة المتوكل أمر برفع المحنة وأن يُترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون فاستحق برأيه هذا ثناء جمهور المسلمين والذين تجاوزوا لموقفه هذا عن هفواته.

كان للمعتزلة (أهل العدل والتوحيد) في العصر العباسي الأول مدرستان هما: مدرسة البصرة ومدرسة بغداد، استفاد المعتزلة من الفلسفة اليونانية واستعانوا منها في نظرياتهم وجدلهم بعد أن صبغوها صبغة إسلامية وهم الذين حكموا عقـولهم في البحث وخلقوا ما عُرف بعلم الكلام في الإسلام وكان من مـواطن المعتزلـة مملكـة الأدارسة في فاس بالمغرب وكانت قبيلة أوربة البربرية تدين بالاعتزال.

علوم الصناعات

كما كان للمأمون جولة واضحة في مجال العلوم الدينية والفكرية كما سبق ذكره كان له أيضاً جولة مميزة في مجال العلوم الصناعية.

كانت الأمة العربية بشكل عام أمة أميّة، لا تتعلق في مجال الصناعات والعلـوم إلا قليلاً، فلما جاء الإسلام دين العلم والعمل، دين اقرأ باسـم ربـك الـذي خلـق، كانت في دور التكوين في مجال العلوم. تفرغت في عهد الخلفاء الراشدين لفتوحـات لنشر الدين وتأسيس الدولة واستمر هذا الوضع إلى صدر الدولـة الأمويـة، حيـث بدأت العناية ببعض الصناعات والتي كانت عند من سبقهم من الأمم، وقد بـرز في مجال ترجمة الكتب الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية الملقب حكيم آل مروان، وقد برز في صناعة الكيمياء واستقدم من مصر من برز في هذه الصناعة من اليونـان وترجمها للعربيـة وتبعهـا في عهـد الحجـاج تعريـب تـدوين الدولـة مـن الفارسـية واليونانية والقبطية إلى العربية.

لكن لما انتقلت الخلافة من الأمويين للعباسيين الذين اختلطوا بـالفرس أكثـر من الأمويين فقام طبيب أبو جعفـر المنـصور جـورجس بـن جبرائيـل الـذي طلبـه لمعالجته، طلب منه بترجمة الكثير من الكتب من اليونانية للعربية في الطـب لأبقـراط وجالينوس، كما ترجم ابن المقفع للمنصور كتاب كليلة ودمنـة وكتـاب إقليـدس في الهندسة.

وفي خلافة الرشيد عُثر على كنز ثمين من كتب اليونان فـأمر بترجمتهـا، وكـان لأسرة البرامكة اليد الطولى في حركة الترجمة وأغدقوا عليها الأموال.

نشاط حركة الترجمة:

بلغت حركة الترجمة أوج ازدهارهـا في عهـد المـأمون المعـروف بحكـيم بنـي العباس كان لرؤى المأمون في أرسطاطاليس وتعاليمه الأثر في نهضة حركة الترجمة.

كتب الخليفة المأمون لملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من مختار العلـوم القديمة المخزونة عندهم فأجابه بعـد الامتنـاع مبـدئياً، أرسـل المـأمون جماعـة مـن المهتمين على بلاد الروم منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق يحيى ومعهم يوحنا بـن ماسويه حيث تم ترجمة هذه الكتب القديمة إلى العربية، كما أرسل المأمون ثانيةً حُنين ابن إسحاق الذي جاء بطرائف الكتب وغرائـب المـصنفات في الفلـسفة والهندسـة الموسيقى والطب.

ومن الذين اشتهروا في الترجمة في عهد المأمون بنو شـاكر الـذين ترجمـوا جميـع العلوم الصناعية، وممن اشـتهروا في هـذا المجـال مـن العـرب في خلافتـي المـأمون والمعتصم يعقوب بن إسحاق الكندي وكان عالِماً في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم، ذكر أبو معشر في كتاب المذكرات لشاذان أن الذين اشتهروا في الترجمة في الإسـلام أربعـة: حنـين بـن إسـحاق، يعقـوب بـن إسـحاق الكندي، وثابت بن قُرة الحراني وعمر بن الفرحان الطبري.

يعتبر المأمون المؤسس الأول لبيت الحكمة في بغداد وهو معهد علمي يضم مكتبة لنسخ الكتب وداراً لترجمتها إلى العربية، بلغ من شغف وحب المأمون للثقافة الإغريقية أن العالِم الإغريقي المشهور أرسطو قد ظهر له في المنام ويؤكد له أن لا معارضة بين الدين والعقل.

سياسة الخليفة المأمون الخارجية

أولا: علاقة المأمون مع دولة الفرنجة (الإمبراطورية الرومانية المقدسة):

أراد المأمون الاستمرار على صداقة الدولة الرومانية المقدسة كما كان في عهد والده الرشيد فرغم وفاة شارلمان صديق الرشيد في العام التالي من خلافة المأمون سنة ٨١٤م، استمرت علاقة الود والتفاهم قائمة مع ابن شارلمان لويس التقي، الذي أرسل سفارة إلى البلاط العباسي أيام المأمون سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م.

ثانيا: علاقة المأمون مع الدولة البيزنطية (جيرانه):

كانت علاقة المأمون مع البيزنطيين عدائية كما كانت في عهد آبائه المنصور والمهدي والرشيد.

استغل الخليفة المأمون الفتنة ضد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني سنة ٨٢١م بزعامة توما الصقلبي، أمدّ المأمون توماس بالمال والسلاح ليعينه على فتح القسطنطينية والاستيلاء على الحكم فيها وأوعز المأمون إلى بطريرك القسطنطينية بتتويج هذا الثائر إمبراطوراً عليها ليكسبه الصبغة الشرعية، لكن إمبراطور القسطنطينية اكتشف هذه الاتصالات وتمكن من هزيمة توماس وقتله على أبواب القسطنطينية سنة ٨٢٣م.

استمرت العلاقة بين المأمون وبيزنطة سيئة وحربية كما في الأحداث التالية:

١- غزا المأمون بنفسه الروم في محرم مارس سنة ٨٣٠م، وكان تحركه من بغداد - الموصل - منبج - دابق - أنطاكية - المصيصة. واستمر تحركه حتى وصل

للثغر الإسلامي هناك طرسوس ومنها دخل إلى بلاد الروم في جمادى الأولى/ يوليو سنة ٨٣٠م حيث فتح حصن قُرة عنوة وأمر بهدمه ثم توجه لحصن سندس ووجه قائديه عجيف وجعفر الخياط إلى صاحب حصن سنان حتى خضع لهم ثم عاد المأمون إلى الشام.

٢- ورد خبر للمأمون بأن ملك الروم قتل حوالي ٦٦٠٠ رجلاً من أهل طرسوس والمصيصة فعاود الهجوم على بلاد الروم ثم صالح أهل انطيقوا ثم أهل هرقلة، ثم وجّه أخاه إسحاق والذي افتتح ثلاثين حصناً، كما وجه قائده يحيى ابن أكتم من طوانة فغنم الكثير ثم رجع لمعسكره.

٣- تحرك المأمون من كيسوم إلى دمشق ثم إلى مصر في ١٦ من ذي الحجة سنة ٢١٦هـ ثم عاد لدمشق سنة ٢١٧هـ بعد أن دخل أرض الروم للمرة الثالثة واستقر في لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها قائده عجيف، الذي خدعه أهلها وأسروه ثمانية أيام ثم أخرجوه فسار إليه توفيل في لؤلؤة وأحاط بعجيف فأرسل إليه المأمون المدد، فارتحل توفيل وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان.

٤- كتب ملك الروم إلى المأمون داعياً إلى المسالمة والمهادنة وترك الحرب وفكّ الأسرى وتأمين الطرق فردّ عليه المأمون يدعوه إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية فإن أبى فالفدية أو العودة للحرب.

٥- وصل المأمون إلى الرقة سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٣م ثم أرسل المأمون ابنه العباس إلى أرض الروم والنزول بطوانة وبنائها، بناها العباس وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصناً وبعد ذلك سار المأمون إلى بلاد الروم ودخلها من ناحية طرسوس حيث توفي المأمون بالحمى قرب طرسوس.

ثالثا: علاقة المأمون بدولة الأغالبة في إفريقيا:

استمرت كما كانت في عهد والده الرشيد بالاعتراف بحكمهم الذاتي مع التبعية للخلافة العباسية، كان يحكم دولة الأغالبة في عهد المأمون الأمير زيادة الله

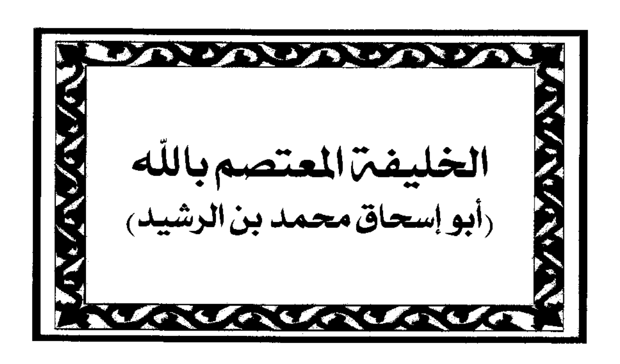
الأول سنة ٢٠١-٢٢٣هـ والذي ظل حليفاً وتابعاً للمأمون ومجاهداً ضد البيزنطيين في حوض البحر المتوسط وفي عهد زيادة الله الأول استولى الأغالبة على جزيرة صقلية البيزنطية سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٧م بقيادة القاضي أسد بن الفرات وكان جيش أسد بن الفرات قاضي القيروان يتكون من عشرة آلاف فارس معظمهم من الفرس الخراسانيين والبقية من الأفارقة والأندلسيين ووصلوا إلى صقلية في أسطول يتكون من مائة مركب.

وفاة المأمون وولاية العهد:

بينما كان المأمون في بلاد الروم في آخر غزواته لهم أصيب بالحمى شمالي طرسوس وكانت الحمى من القوة والشدة أنها لم تمهله طويلاً حيث أدركته المنية في ١٨ رجب ٢١٨هـ فحُمل إلى طرسوس حيث وري فيها الثرى وله من العمر وقتها ٤٨ سنة.

عهد المأمون أثناء مرضه بالخلافة لأخيه أبي إسحاق محمد بن الرشيد (المعتصم بالله) وأوصاه بعدة وصايا مأثورة ومما جاء فيها (واعمل بالخلافة إذا طوقها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغتر بالله ومهلته، فكأن قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية العوام العوام، فإن المُلك بهم، وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين، ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح المسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك، وخذ من أقويائهم لضعفائهم وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عني بالقدوم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت).

لكن الكثير من الجند رفضوا مبايعة المعتصم وأرادوا مبايعة العباس ابن المأمون، لكن العباس رفض درءاً للفتنة وبايع بالخلافة عمه المعتصم بالله.



من سيرته:

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد، من مواليد ١٨٠هـ وقيل ١٧٩ أو ١٧٨هـ، أمه اسمها ماردة هي أم ولد من مواليد الكوفة، وكان له حظوة وميزة عند زوجها الرشيد.

يسمى المعتصم بـ (المؤتمن) فهو ثامن خلفاء بني العباس، والثامن من ولد العباس، وثامن أولاد الرشيد وملك سنة ثمان عشرة، ملك ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة وعاش ثمانية وأربعين سنة وطالعه العقرب وهو ثامن برج وفتح ثمانية فتوح، وقتل ثمانية أعداء وخلّف ثمانية أولاد وثمانية بنات ومات لثمان بقين من ربيع الأول.

كان له محاسن، وكلمات فصيحة، وشعر لا بأس به، إذا غضب لا يُبالي من قتل.

من أعظم الخلفاء وأهيبهم، كان من أشد الناس بطشاً، وكان من القوة والشدة يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره.

كان شجاعاً وقائداً مظفراً وهو المعروف المضروب به المثل (نخوة المعتصم) عندما استنجدت به امرأة قرشية ضد الروم فصرخت وامعتصماه فلبى نداءها وحررها وهزم الروم في عمورية.

بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون في ١٩ رجب سنة ٢١٨هـ الموافق ١٠/ ٨/ ٨٣٣م، سلك ما كان عليه المأمون وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن وكتب للبلاد بذلك، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك وقتل بسببه خلقاً من العلماء كما ضرب الإمام أحمد بن حنبل سنة ٢٢٠هـ.

منقوش على خاتمه «الحمد لله الذي ليس كمثله شيء».

كان له قصر بالميدان، مدحه الشاعر إسحاق الموصلي بقصيدة ما سمع أحد بمثلها في جمالها وحسنها افتتحها بقوله:

يا دار غيّرك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك ؟

تطير المعتصم من القصيدة، كما تطير الناس وتغامزوا فما كان من المعتصم إلا أن خرّب القصر بعد ذلك ممن مات في عهده من الأعلام الحميدي شيخ البخاري وقالون المقرئ، وآدم بن أبي إياس.

من معاصريه:

في الأندلس عبدالرحمن الثاني بن الحكم رابع أمراء بني أمية في الأندلس، وفي المغرب الأقصى محمد بن إدريس من الأدارسة وعلي بن محمد بن إدريس أيضاً، وعاصره من الأغالبة في تونس زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب وابنه الأغلب بن زيادة الله وعاصره في اليمن محمد بن إبراهيم الزيادي الذي ولاّه إياها الخليفة المأمون وعاصره في خراسان الأمير عبدالله بن طاهر بن الحسين الذي ولاّه إياها المأمون أما الذي عاصره من الروم في القسطنطينية فهو الإمبراطور توفيل بن ميخائيل وعاصره في فرنسا لويس الأول الملقب باللين وبعده شارل الأصلع.

كان أثناء موت أخيه الخليفة المأمون في بلاد الروم فبويع بالخلافة فيها ثم عاد بالعسكر إلى بغداد بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وأعاد من سكن فيها إلى بلادهم وكان وصوله للعاصمة بغداد السبت مستهل رمضان سنة ٢١٨هـ.

كتب ملك الروم للمعتصم كتاب تهديد كما ذكر المؤرخ الصولي، فطلب المعتصم من كاتبه أن يكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد قرأت كتابك وسمعت خطابك والجواب ما ترى، لا ما تسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار».

أما علاقته مع أخيه المأمون، كان المأمون يميل للمعتصم فمنحه ولاية العهد ومن أسباب ذلك: شجاعة المعتصم وقوة شكيمته، متانة خلقه، قوته الجسمانية حتى إنه كان يحمل ألف رطل بسهولة بل ويمشي بها خطوات ولديه القدرة على طي عمود من الحديد وجعله طوقاً. لكن المعتصم رغم شجاعته كان محدود الثقافة، ضعيف الكتابة.

امتاز عصره باقتناء الجنود الأتراك وجلبهم من أقاليم ما وراء النهر من: سمرقند، فرغانة، أشروسنة، الشاش، خوارزم، وذلك عن طريق: الشراء، الأسر في الحروب، الهدايا من ولاة الأقاليم على شكل رقيق.

امتلأت بغداد في عهد المعتصم من هؤلاء الجند من الأتراك الذين جاوزوا بضعة آلاف، ألبسهم المعتصم أفخر الملابس، سمح لهم بركوب الخيل في شوارع بغداد، أدى هذا التصرف إلى اصطدامهم بالناس وإثارة المشاكل معهم مما أثار سخط أهل بغداد وتذمرهم، مما اضطر الخليفة المعتصم لبناء مدينة جديدة لجنده من الأتراك (أخواله) ونقلهم إليها وتسمى هذه المدينة سامراء «سُرّ من رأى» الواقعة شمالي بغداد بحوالي مائة كم واتخذ المعتصم من سامراء عاصمة له ومقراً لجيشه من الأتراك «مماليك وأحرار» ومن معالم هذه المدينة المشهورة مئذنة جامعها المسماة «الملويّة» ذات السلالم الخارجية.

ومن أسباب ميل المعتصم للعنصر التركي أن والدته ماردة تركية الأصل، وحتى يتخلص من النفوذ الفارسي والنفوذ العربي في جيشه وحكومته، لكن وللأسف فإن هذه السياسة غير مدروسة الأبعاد عادت فيما بعد على البلاد بضرر

كبير حيث أصبح للجند الأتراك وقادتهم الهيبة والصولجان والتدخل في شؤون الدولة حتى أصبح الخلفاء بعد المعتصم ألعوبة وأسرى في أيدي القادة من الأتراك إن شاءوا أبقوا الخليفة وإن شاءوا خلعوه فأصبحت هيبة الدولة في مهب الريح.

أهم الأحداث في خلافة المعتصم:

أولاً: الاعتماد على العنصر التركي في جيشه وحكومته بدلاً من الأبناء من الفرس.

ثانياً: القضاء على الثورات الداخلية التي استعصت من قبل على أخيه المأمون وأهمها:

١- ثورة الزط: قضى عليها القائد العربي عجيف بن عنسبة.

٢- ثورة بابك الخرمي الفارسي في نواحي أذربيجان: قضى عليها القائد الفارسي الأصل حيدر بن كاوس المعروف باسم الأفشين.

تخلص المعتصم من قائده الأفشين بعد اتهامه له بالارتداد عن الإسلام والرغبة بالخروج عن طاعة الخليفة والاستقلال في بلده أشروسنة والذي انتهت حياته بالسجن ومنع الطعام عنه حتى مات.

ثالثاً: معركة عمورية ضد البيزنطيين سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٣م انتقاماً من إمبراطور الروم الذي أساء للمسلمين ودمر مسقط رأس المعتصم مدينة زبطرة، انظر تفاصيل هذه المعركة في كتابنا «معارك إسلامية».

رابعاً: وفاة تاسع أئمة الشيعة الإمامية الإثنا عشرية محمد الجواد بن علي الرضا سنة ٢٢٠هـ عن عمر ٢٥ سنة وكانت زوجته أم الفضل بنت الخليفة المأمون، والتي حُملت إلى قصر عمها المعتصم وخلفه في الإمامة ابنه أبو الحسن علي الهادي وكان عمره وقتها سبع سنين.

خامساً: خروج محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين على المعتصم وهو من الزيدية وكان يقيم في الكوفة، ذهب إلى الطالقان من خراسان

يدعو إلى الرضا من آل محمد فاجتمع عليه أناس كثيرون، اهتم بأمره أمير خراسان من قِبَل المعتصم عبدالله بن طاهر وقامت بينهما معارك هُزم فيها محمد وأصحابه ثم هرب إلى كورخراسان حيث قُبض عليه وأرسله طاهر إلى المعتصم فحبسه في سامراء سنة ٢١٩هـ، وفي ليلة عيد الفطر هرب ولم تعرف أخباره بعدها وزعم الزيديون أنه لم يمتْ وأنه سيخرج من سردابه في سامراء ليملأ الأرض عدلاً ويعتبره الشيعة الإمامية بأنه مهدي هذه الأمة.

سادساً: قضاء المعتصم من بعده على الكثير من القادة الأتراك الذين كان بيدهم مستقبل الخلافة العباسية ومن أشهرهم:

١- الأفشين حيدر بن كاوس.

٢- إيتاخ الذي كان المعتصم قد ولاّه إحدى الفِرَق الثلاث التي دخلت بلاد الروم إلى عمورية والذي قُتل لأول عهد الخليفة المتوكل سنة ٢٣٥هـ.

٣- أشناس: غلام تركي اشتراه المعتصم ورقّاه لشجاعته وكان في معركة عمورية على مقدمة الجيش وألبسه الخليفة الواثق سنة ٢٢٨هـ وشاحين بالجوهر وظل على عظمته حتى توفي سنة ٢٣٠هـ[١].

سابعاً: اتفاق العباس بن المأمون مع بعض القادة الأتراك على اغتيال عمه المعتصم وتنصيبه مكانه، لما علم المعتصم بهذه المؤامرة قبض على هؤلاء القادة وقتلهم وحبس العباس حتى مات في السجن.

الخلاصة:

يتحمل المعتصم وحده وأكثر من غيره ما أصاب العباسيين وحلّ بهم من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم، وما حلّ بأمة العرب من غلبة هذا العنصر

---

(١) التفاصيل في كتاب معارك إسلامية، عدنان صالح، مؤسسة الفرسان، ص١٦٢، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

الغريب عنها، ورغم شجاعة المعتصم وقوة شكيمته وحبه للشجعان من قادته الأتراك واعتزازه بهم إلا أنه لم يكن بعيد النظر لعواقب هذه التصرفات من هؤلاء القادة سواءً كانت لهم أحساب يحترمونها أم ليست لهم أحساب وسوءاً كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا يهمهم؟ وهذا خطأ كبير يحط من قدر الدولة ويُنزل من عظمتها[1].

هذا وقد اتصف هؤلاء الجنود الغرباء بالغطرسة وعدم احترامهم لحرمة البيوت والأفراد فاضطرب الأمن وكثرت الفتن وحركات التمرد، مما كلف الدولة الكثير وعدم الاستقرار وأنهم كانوا مسامير في عرشها ساهموا في ضعفها ثم سقوطها.

أشهر وزراء الخليفة المعتصم

أولا: الفضل بن مروان بن ماسرخس:

نصراني من أهل البرذان، كان يعمل كاتباً عند المعتصم قبل توليه الخلافة، لما وصل للفضل خير موت المأمون أمر الناس بالبيعة للمعتصم، بعد عودة المعتصم إلى بغداد لاستلام الخلافة عرف للفضل نشاطه واجتهاده في أخذ البيعة للمعتصم سلم إليه المعتصم أمر الخلافة فأصبحت أمور الدولة بيده، لما شعر المعتصم باستبداد الفضل بالأمور، ثقل عليه ذلك خاصة بعد تدخل الفضل في الأمور المالية، شكا للمعتصم صاحبه الذي يسامره ويضحكه إبراهيم الهقني شكا له استبداد وزيره الفضل بن مروان وأنه لا ينفذ أوامر الخليفة فقال إبراهيم للمعتصم أنك أمرت لي بكذا وكذا منذ شهرين، فما أعطيت منذ ذلك حبّه، ومنها بدأ المعتصم التضييق على الفضل، فجعل عليه زماماً في نفقات الخاصة هو أحمد بن عمار الخرساني وزماماً في الخراج وجميع الأعمال وهو نصر بن منصور، وبعدها ازداد غضب المعتصم على الفضل

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، محمد بك الخضري، الدولة العباسية، الطبعة العاشرة.

وأهل بيته وأمرهم برفع ما جرى على أيديهم (أي تقديم الحساب عما وصل إليهم من المال وعما صرفوه) ولما اطلع المعتصم على ذلك أمر بحبس الفضل وأن يُحمل لمنزله في بغداد ثم نفيه إلى قرية في طريق الموصل اسمها لسن حيث توفي سنة ٢٥٠هـ.

ثانيا: أحمد بن عمار الخراساني:

خلف الفضل لكنه لم يستمر طويلاً لأنه لم يكن فيه القدرة الكتابية ولأنه لم يعرف أمام المعتصم «الضعيف الكتابة» معنى الكلأ فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير عامي فعزله واسند الوزارة إلى محمد بن عبدالملك الزيات.

ثالثا: محمد بن عبدالملك الزيات:

عرف المعتصم قدرته وفضله بعد أن سأله عن الكلأ فأجاب إجابة مفصلة.

كان جدّ الزيات قروياً من الدسكرة، يجلب الزيت من موضعه إلى بغداد، نشأ محمد هذا في بغداد فتعلم وتأدب فيها حتى نال من ذلك حظاً وافراً، بدأ حياته في بغداد الكتابة بالديوان وبعد مشكلة الوزير أحمد بن عمار أمام المعتصم بعدم معرفته لمعنى الكلأ، استوزر المعتصم ابن الزيات والذي كان من العلم والدراية أنه قام بأمر الوزراة خير قيام. اسمر في وزارته حتى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء من بعده.

كان الوزير ابن الزيات شاعراً ظريفاً، قال راثياً ابناً له:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... يعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أُمّه ... يبيتان تحت الليل ينتحبان
وبات وحيداً في الفراش تُجيبه ... بلابل قلب دائم الخفقان

هذا ومدح ابن الزيات الشاعر البحتري بقصيدة مطلعها مادحاً له:

بعد هذا العتاب والتنفيذ ... ليس ذم الوفاء بالمحمود
وبديعٌ كأنه الزهر الضا ... حك في رونق الربيع الجديد

عــرف العـــالمون فــضلك بـــالعلو م وقــــــال الجهّـــــال بالتقليـــــد

هذا وكان الوزير ابن الزيات شديداً وصارماً في معاملة عُمّالـه ، يـصادرهم في خيانتهم في الأعمال.

رابعا: أحمد بن أبي داود الإيادي:

لم يكن وزيراً للمعتصم، لكنه كان من المعتصم كيحيى بن أكـتم مـن المـأمون، لذا كان لمكانته العالية كأنه من الوزراء.

أصل أهل بيته من إحدى قرى قنسرين، كـان أبـوه تـاجراً، أحمـد بـن مواليـد البصرة سنة ١٦٠هـ تعلم فيها الفقه والكلام، وهو من أصحاب واصـل بـن عطـاء كبير المعتزلة، كان يميل للاعتزال، كان يحضر في بغداد مجلس القاضي يحيى بن أكتم، اختاره يحيى من فقهاء مجلس المأمون، أحبه المأمون كثيراً وأوصى أخاه المعتصم بـأن لا يفارقه أحمد بن داود وأن يستشيره في كل أمـره فهـو موضـع ثقـة. ولاّه المعتـصم قاضي القضاة وكان المعتصم لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه، قـال آزون بـن إسماعيل: «ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي داود، كـان ابـن أبي داود يُكلم المعتصم في كل ما يريد». كان ابن أبي داود ممن يحبون الخير للناس، وعُرف بالمروءة، ومنها إنقاذه لأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي من القتل بـسيف الأفـشين، عندما قال له إني رسول أمير المؤمنين إليك بألا تقتله ثم أخبر المعتـصم بـما قـام بـه، فأطلقه ووصله، وعنّف الأفشين على ما كان عزم عليه. كان بن أبي داود من القـدرة والحنكة على تعديل مزاج المعتصم، فكان إذا أسرع الغضب للمعتصم، هدأ ابـن أبي داود من حدّته وأراه وجه الأناة والتريث والعفو، فلا يسعْه إلا أن يسير في سبيلها.

كان لابن أبي داود عصبية للعرب، مما حفظ لهم شيئاً من مقامهم ومكانتهم في عهد المعتصم الذي جعل القوة كلها في يد غلمانه من الأتراك.

وكان ابن أبي داود شاعراً أديباً فصيحاً وبليغاً، ذكره دعبل في طبقات الـشعراء ومن مأثور قوله:

ثلاثة ينبغي أن يُبجّلوا وتُعرف أقدارهم: العلماء، ولاة العدل، الإخوان. فمن استخفّ بالعلماء أهلك دينه، ومن استخفّ بالولاة أهلك دنياه، ومن استخفّ بالإخوان أهلك مروءته.

مدحه الشاعر المعروف (أبو تمام).

وفاة المعتصم وولاية العهد:

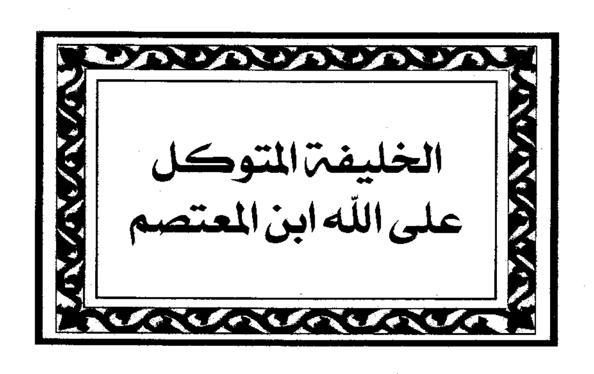
احتجم المعتصم في أول يوم من المحرم سنة ٢٢٧هـ، مرض بعدها وتوفي يوم الخميس لثمان ليالٍ مضت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ، رثاه وزيره الزيات قائلاً:

قد قُلت إذْ غيبوك واصطففت ... عليك أيد بالتراب والطين

اذهبْ فنعم الحفيظ كنت على الدنيا ... ونعم الظهير للدين

لا جَبَرَ اللهُ أمةً فقدت ... مثلك إلاّ بمثل هارون

ولى المعتصم عهده لابنه هارون أبو جعفر الواثق بالله ابن المعتصم.



الاسم والنسب:

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم، أمه أم ولد خوارزمية الأصل اسمها شجاع والمتوكل من مواليد شوال ٢٠٦هـ.

لم يكن الخليفة الواثق شقيق المتوكل قد عهد لأحد من بعده بالخلافة، لذا اجتمع كبراء الدولة لاختيار خليفة للمسلمين وهم: أحمد بن أبي داود القاضي، الوزير محمد بن عبدالملك الزيات، عمر بن خرج وأحمد بن خالد الكاتبان وقائدين من الأتراك هما إيتاخ ووصيف.

أشار الوزير الزيات باختيار محمد بن الواثق فاعترض على هذا الاختيار القائد وصيف قائلاً: أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز الصلاة معه. فأشار القاضي أحمد بن أبي داود باختيار جعفر المتوكل بن المعتصم شقيق الواثق خليفة فاتفق رأيهم عليه فبايعه بن أبي داود وعممه الذي قبله بين عينيه قائلاً السلام عليك يا أمير المؤمنين ولُقِّب بالمتوكل على الله، بايعه الحاضرون ثم العامة وتم ذلك في اليوم الذي توفي فيه الواثق ٢٤ من ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ الموافق ١٠/ ٨/ ٨٤٧م واستمر في الخلافة ١٤ سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام حيث قُتل ليلة الخميس ١٤ شوال سنة ٢٤٧هـ الموافق ١١/ ١٢/ ٨٦١م وهو ابن ٤١ سنة.

من معاصري الخليفة المتوكل:

في الأندلس: عبدالرحمن بن الحكم ثم ابنه محمد.

في بلاد المغرب: من الأدارسة محمد بن علي بن إدريس الثاني.

في إفريقيا: من الأغالبة: محمد بن الأغلب بن إبراهيم ثم ابنه أحمد.

في اليمن: من الزيدية حمد بن عبدالله بن زياد ثم ابنه إبراهيم.

في خراسان: من آل الطاهر محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر بن الحسين.

من ملوك بيزنطة: ميخائيل الثالث الملقب (السكير) وفي فرنسا شارل الأصلع.

أهم الأحداث في خلافة المتوكل:

أولاً: خروج محمد بن البعيث عن الطاعة: أشاع هذا الرجل في بلاد أذربيجان بأن الخليفة المتوكل قد مات، التف حوله جماعة من الأقاليم بلغ تعدادهم ٢٢٠٠ رجلاً، وكان في هذا الوقت والياً على أذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة الذي قصّر في متابعة ما حدث فاستبدله الخليفة برجل آخر هو حمدويه بن علي بن الفضل السعدي، تقدم السعدي في عشرة آلاف نحو ابن البعيث لكنه لم يُفلح فوجه إليه المتوكل عدة حملات انتهت بحصاره ثم قتله ومن معه بواسطة بغا الشرابي الذي ضرب مدينة مرند بالمنجنيق ثم أسر الشرابي ابن البعيث ومن معه من رجاله مائتين من ربيعة وعاد الشرابي ومن معه من أسراه إلى سامراء بالعراق فأمر الموكل بحبسهم جميعاً، أما ابن البعيث فأمر الخليفة بضرب عنقه فطلب العفو من الخليفة لكنه توفي بعد شهر من حبسه ثم أطلق المتوكل بنوه الثلاث.

ثانياً: الاضطرابات في أرمينيا: كان والياً على أرمينيا وأذربيجان القائد بغا الشرابي ومن بعده ابنه فارس الذي ولّى نيابة عنه أبا سعيد بن يوسف المروزي الذي

مات فجأة سنة ٢٣١هـ فخلفه ابنه يوسف الذي تمكن من ضبط الأمور فيها حتى خرج عليه رجل من بطارقة أرمينيا اسمه بقراط بن أشوط الذي طلب الإمارة لنفسه، لكن يوسف أسره وقيّده وأرسل به إلى باب الخليفة فهاج البطارقة على يوسف وحاصره في مدينة طزون فخرج لقتالهم فقتلوه وأصحابه فلما علم المتوكل بالأمر أرسل إليهم بغا الشرابي الذي فتك بالأرمن وقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً وسبى الكثير وأنزل العصاة من معاقلهم وأخذ معه الكثير من بطارقة أذربيجان وأران.

ثالثاً: خروج رجل من نيسابور ادعى النبوة (محمود بن الفرج النيسابوري) الملقب (ذو القرنين): أُحضر للمتوكل مع جماعته، أمر المتوكل بصفعه صفعات مبرحة فمات في سنته سنة ٢٣٥هـ.

رابعاً: ثورة أهل حمص على أميرهم محمد بن عبد ربه: حاولوا قتله بمساعدة نصارى حمص، لذا كتب إليه المتوكل بقتالهم وطلب من والي دمشق مساعدته فتم تأديب أهل حمص ومن معهم من النصارى.

خامساً: قتال الروم: أغار الروم سنة ٢٣٨هـ على مصر من جهة دمياط وعاثوا بها فساداً وأحرقوا جامعها وسبوا الكثير من نساء المسلمين وأهل الذمة.

في سنة ٢٤١هـ كان الفداء الرابع بين المسلمين والروم حيث فُدي من المسلمين في سبعة أيام ٢١٠٠ رجلاً وامرأة حسب رواية المؤرخ المقريزي.

في سنة ٢٤٢هـ دخل الروم في جهة سميساط فنهبوا القرى وأسروا الكثير ثم عادوا لبلادهم فأمر المتوكل بغزوهم شتاءً وفي سنة ٢٤٤هـ أرسل المتوكل من دمشق بغا لغزو الروم فغزا الصائفة وافتتح صملة وفي سنة ٢٤٥هـ أغار الورم على سميساط فقتلوا وسبوا نحو خمسمائة وفي سنة ٢٤٦هـ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم تم فداء ٢٣٦٧ فرداً.

سادساً: عداؤه مع العلويين: أمر المتوكل سنة ٢٣٦هـ بهدم قبر الحسن بن علي وما حوله من المنازل في كربلاء ولشدة كره المتوكل للشيعة وأعمالهم كره علي بن أبي طالب وأهل بيته، أشار خاصة المتوكل عليه بإبعاد العلويين عنه والإساءة إليهم فأحضر منهم إلى سامراء من المدينة المنورة أمامهم في عهده الحسن بن الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق فأقام في سامراء عشرين سنة وتوفي فيها.

سابعاً: أمراً المتوكل سنة ٢٣٧هـ بإنزال جثة أحمد بن نصر الخزاعي الذي قُتل وصلب في عهد الخليفة الواثق وتم الجمع بين رأسه وجسده ثم تسليمه لأوليائه، فرح الناس لذلك فرحاً شديداً ومشى في جنازته خلق كثير فكان هذا اليوم مشهوداً وبعدها أمر الموكل في جميع مملكته الناس بعدم الكلام في مسألة الكلام (المعتزلة) والكف عن القول بخلق القرآن وأمر الناس ألا يشتغلوا بغير الكتاب والسنّة، وأظهر للناس تكريمه للعالِم الإمام أحمد بن حنبل فارتفعت مكانة السنّة في عهد المتوكل وكان الخليفة المتوكل لا يولي أحداً إلا بعد مشورة الإمام أحمد بن حنبل وفي سنة ٢٤١هـ توفي أمام أهل السنّة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل بالحمى عن ٧٧ سنة، كان رحمه الله إماماً زاهداً ورعاً مدبراً عن حطام الدنيا، مقبلاً على طلب العلم وكان ﷺ لا يُصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل ولا بنيه ولا يكلمهم لأنهم أخذوا جائزة السلطان وكان كما مر معنا قد عُذِّب وأوذي ضرباً وتنكيلاً من أجل رفضه لمسألة خلق القرآن في عهود المأمون والمعتصم والواثق محتسباً صابراً وهو راوي الحديث عن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ: «أي الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» أوذي ﷺ إيذاءً شديداً في جسده، إذ أمر الخليفة بضربه بالسياط وهو مقيد الرجلين واليدين بالأغلال فضلاً عن سجنه الليالي الطوال وهو صابر ومحتسب على هذا البلاء حفاظاً على دينه.

الجيش في عهد المتوكل:

ظل الجيش من الأتراك كما كان في عهدي المعتصم والواثق، بل ازداد نفوذهم في عهد الخليفة المتوكل الذي أحس بتوغل واستبداد الأتراك بأمور الخلافة وإداراتها وجيشها، أحب المتوكل أن يضعف من شوكتهم والتقليل من نفوذهم، فبدأ بالقائد إيتاخ الذي كان يسيطر على الجيش المغاربة، الأتراك، الموالي والبريد، الحجابة ودار الخلافة، رأي المتوكل أنه لا يمكنه الإيقاع به وهو في سامراء بين قومه وجنده، لما أرسل إيتاخ للمتوكل يستأذنه بالحج، أذن له وجعله أميراً على كل بلد يدخله وخلع عليه وركب معه جميع القواد، خرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان غير غلمانه وحشمه الكثير، لما وصل إيتاخ إلى أطراف بغداد، قال له عامل المتوكل على شرطة بغداد إسحاق بن إبراهيم أن أمير المؤمنين يريد أن تدخل بغداد ليلقاك بنو هاشم ووجوه الناس وأن تقعد لهم في دار خزيمة بن حازم فتأمر لهم بجوائز، لما اقترب إيتاخ من دار خزيمة حجز عنه أمير الشرطة إسحاق بن إبراهيم غلمانه فدخل الدار وحده فكان فيه سجنه ثم نُقل لمنزل إسحاق فأدخل زاوية منه حيث قُيِّد وأثقل بالحديد في عنقه ورجليه، كما حبس ولديه منصور ومظفر وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد، ولسوء وشدة ما عومل به القائد إيتاخ مات سنة ٢٣٥هـ أبقى ولديه في الحبس طيلة حياة المتوكل حتى أطلق سراحهما الخليفة المستعين من بعده.

نظراً لشدة كراهة المتوكل للغلمان ورؤسائهم، كره العاصمة سامراء وأراد نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق سنة ٢٤٣هـ فذهب إليها ونقل إليها دواوين الملك مما أثار الأتراك عليه ورغم إرضائه لهم إلا أنهم حملوه إلى العودة إلى سامراء حتى لا يستعين عليهم بسلطان العرب في بلاد الشام وفي سنة ٢٤٥هـ أمر المتوكل ببناء الماجوزة وسماها الجعفري أنفق عليها كما قيل ألفي ألف ديناراً وسماها وأصحابه المتوكلية قرب سامراء وبنى فيها قصره اللؤلؤة الذي لم يُر مثله في علوه وأمر بحفر نهر قربه لكنه قُتل قبل أن يتم إنجازه حيث أُهمل وتم تخريب المتوكلية بعد قتله وكان من مخطط المتوكل قتل القائدين وصيف وبغا وغيرهما من قادة الأتراك ووجوههم

لكنهم وبالتآمر مع ولده المنتصر أن يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم فساهموا في التآمر على قتله كما سيمر معنا لاحقاً.

من صفات الخليفة المتوكل:

١- لم يكن محباً للنظر والحداثة بل كان ميالاً للتقليد فأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث وإظهار السنّة ومكانتها.

٢- لم يوصف المتوكل في عطائه بالبذل والجود، فكان وسطاً لا ممسكاً ولا بخيلاً، وظهر في مجلسه على غير عادة سلفه من الخلفاء (اللعب والمضاحك والهزل).

٣- كان ينفر من استعمال أهل الذمة في الدواوين ويكره أن يظهروا في الطريق بمظهر المسلمين، لذا أصدر أمره سنة ٢٣٥هـ أن يلبس هؤلاء زياً خاصاً بهم هي: (الطيالسة العسلية والزنانير) وأن تكون لهم سروجاً خاصة بهم لركوبهم، كما نهى عن الاستعانة بهم في الدواوين وأعمال السلطان كما نهى أن يتعلم أبناؤهم في كتاتيب المسلمين وألا يعلمهم مسلم وكتب بذلك لعُمّاله في أقاليم الدولة بواسطة كاتبه إبراهيم بن العباس الصولي في شوال سنة ٢٣٥هـ.

٤- اتصفت فترة خلافة المتوكل - كما قال المؤرخ المسعودي - برفاهية العيش وأن أيامها سراء لا ضراء وكان السبيل آمناً والأسعار رخيصة.

٥- تتعادل عند المحدثين سيئاته وحسناته وأن أهم حسناته إبطاله القول بخلق القرآن واهتمامه بالسنّة وأهل الجماعة وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل.

٦- تكريمه للعلم والعلماء والاهتمام بالكتاب والسنّة وتكريمه للعالِم الجليل أحمد ابن حنبل.

ولاية العهد:

عقد المتوكل ولاية العهد لأولاده الثلاثة من بعده وهم: محمد المنتصر، ومحمد المعتز وإبراهيم المؤيد وذلك في ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣٥هـ.

كما قسّم البلاد بين أولاده فجعل:

١- للمنتصر إفريقيا والمغرب كله من عريش مصر والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وربيعة والموصل والخابور وتكريت وكور دجلة والحرمين واليمن وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وكور الأهوار وماء الكوفة وماء البصرة وأصبهان وقزوين وأمور الجبل ودور الضرب.

٢- وجعل للمعتز كور خراسان وما يضاف إليه وطبرستان والري وأرمينيا وأذربيجان وكور فارس كما ضم إليه سنة ٢٤٠هـ خُزن بيوت المال في جميع الآفاق.

٣- أما ابنه الثالث المؤيد فجعل له جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وفلسطين وكتب المتوكل بين أبنائه كتاباً يشبه كتاب الرشيد لولديه الأمين والمأمون.

٤- هذا وجعل المتوكل لولديه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال في أعمالها إذا آلت الخلافة للمنتصر.

مقتل الخليفة المتوكل:

كان مقتله على يد ولده وولي عهده المستنصر بواسطة قائد حرس المتوكل باغر التركي ومن أسباب ذلك البغض والحقد بين الإخوة وميل المتوكل لابنه المعتز أكثر من المستنصر حيث كلفه والده أن يخطب الجمعة بالناس فأداها أحسن الأداء مما أثار الحقد والحسد عند أخيه المستنصر الذي أحضره والده المتوكل وأهانه وأمر بضربه على رأسه وقرر عزله عن ولاية العهد من بعد أخيه المعتز مما جعله يشتاط غضباً وحقداً على أبيه، وفي يوم عيد الفطر خطب المتوكل بالناس وكان وقتها ضعيفاً ومعتلاً فذهب بعد الخطبة إلى خيمة نُصبت له، واستدعى إليه للخيمة ندماءه وسمّاره وأهل مجلسه، ودخل وقتها عليه ابنه المستنصر ومعه بعض الأمراء والقادة والمتوكل على السماط (ثوب بدون بطانة) فابتدروه بالسيوف برئاسة قائد الحرس

باغر التركي وكان من المتآمرين على الخليفة القائدين وصيف وبغا لمعرفتهم بنية المتوكل التخلص منهما كما تخلص من القائد إيتاخ وتولى كبر ذلك بغا الصغير المعروف بالشرابي الذي أعدّ جماعة القتلة.

دخل باغر التركي ومعه عشرة من الأجناد على المتوكل وسيوفهم مسلولة فضربه احدهم بالسيف ضربة وثنّى بأخرى وقتلوا مع الخليفة المتوكل وزيره الفتح ابن خاقان سنة ٢٤٨هـ وكان ذلك يوم الأربعاء لأربع خلون من شهر شوال سنة ٢٤٨هـ قال الشاعر البحتري:

أكان ولي العهد أضمر غدره فمن عجب أنّ ولي العهد غادره

فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

اختار القادة مدبري المؤامرة ابن المتوكل للخلافة المستنصر.



اسمه ونسبه ومن عاصره من الحكام:

اسمه أحمد المعتمد على الله بن الخليفة المتوكل بن الخليفة المعتصم. أمه أم ولد كوفية اسمها فتيان. الخليفة المعتمد من مواليد سنة ٢٢١هـ، بويع بالخلافة من غير عهد سابق بعد خلع المهتدي في يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ٢٥٦هـ/ ١٩ يونيو سنة ٨٧٠م، استمر حكمه ٢٣ سنة وثلاثة أيام، فكانت وفاته ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩هـ في ١٢/ ١٠/ ٨٩٢م.

ومن معاصريه:

١- في الأندلس محمد بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٢٧٣هـ وابنه من بعده المنذر بن محمد ثم ابنه عبدالله بن محمد.

٢- في إفريقيا وصقلية من الأغالبة محمد بن أحمد بن الأغلب المتوفى سنة ٢٦١هـ ثم أخوه إبراهيم المتوفى سنة ٢٨٩هـ.

٣- في اليمن من آل زياد: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم حكم من ٢٤٥-٢٨٩هـ وفي اليمن من آل الحوالي بصنعاء محمد بن يعفر ٢٥٩-٢٧٩هـ.

٤- في خراسان من آل طاهر: محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر آخر أمراء الدولة الطاهرية في خراسان ٢٤٨-٢٥٩هـ.

٥- في طبرستان: الحسن بن زيد (٢٥٠-٢٧٠هـ) ثم أخوه محمد بن زيد.

٦- عاصره في بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلبي (٨٦٧-٨٨٦م) وخلفه لارن السادس الملقب بالفيلسوف.

٧- عاصره في فرنسا الملك شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠-٨٧٧م) وخلفه لوزير الثاني الملقب بالتمتام.

وللعلم لم يستقل عن مركز الخلافة في بغداد إلا أمراء بني أمية في الأندلس بينما باقي الحكام في الولايات الإسلامية كانوا على ولاء للخليفة ويدعو له في خطبة الجمعة.

تولى الخليفة المعتمد الخلافة بعد خلع المهتدي وقتله سنة ٢٥٦هـ بمساعدة القادة الأتراك. وحتى يتخلص المعتمد من نفوذ الأتراك ترك سامراء وعاد لبغداد وكانت فترة حكمه الـ٢٣ سنة فترة انتعاش وقوة للخلافة والخليفة.

ومن الأحداث العلمية في عهده وفاة الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ عن عمر ٦٢ سنة، كما توفي بعده الإمام مسلم عن ٥٧ سنة.

الوضع الداخلي في عهده

أولا: القادة الأتراك:

كان من سياستهم أن يتولى أمر قيادة الجيش أحد إخوة الخليفة وألا يرأسهم أحد منهم بسبب الخلافة والمنافسة بينهم، لذا ولّى الخليفة المعتمد أخاه (أبو أحمد طلحة بن المتوكل) (الموفق) أَمْرَ الجيش والولايات سنة ٢٥٧هـ وأصبحت كلمة أبو أحمد هي العليا على القادة الأتراك وأصبح كأنه هو السلطان الفعلي لا الخليفة،

ولكون كلمة (أبو أحمد) هي العليا على الأتراك وقادتهم، لذا تحسنت الأحوال العامة للناس، بينما ساءت أحوال الخليفة المعتمد، لأن أخاه لم يترك له شيء من التصرف حتى يقال إنه احتاج يوماً ثلاثمائة ديناراً فلم يجدها فقال:

أليس من العجائب أنّ مثلي ... يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه
إليه تُحمل الأموال طرا ... ويمنع بعض ما يُجبى إليه

ثانيا: الوزراء في عهد المعتمد:

كان أخوه أبو أحمد الموفق هو الذي يعين الوزراء حيث لم يكن للخليفة إلا الخطبة والسكة والاسم عليها والباقي في يد أخيه وأهم الوزراء:

أ- **الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان:** كان خبيراً بأحوال الرعايا والأعمال، ضابطاً للأموال واستمر في منصبه الوزاري حتى توفي سنة ٢٦٣هـ بعد سقوطه عن دابته في الميدان، صلى عليه أبو أحمد بن المتوكل ومشى في جنازته.

ب- **الحسن بن مخلد:** قبل توليه الوزارة كان كاتباً لأبي أحمد الموفق، اجتمعت له وزارة المعتمد وكتابه الموفق، لكنه لم يستمر في الوزارة إلا ١٦ يوماً حيث هرب إلى بغداد بعد مضايقة أحد القادة الأتراك له، هرب فاراً بنفسه من عنجهية بعض قادة الجيش من الأتراك.

ج- **سليمان بن وهب:** كان وزيراً من قبل للخليفة المخلوع المهتدي، ترك سليمان بغداد سنة ٢٦٤هـ متوجهاً إلى سامراء حيث كان يقيم الخليفة المعتمد، لكن الخليفة المعتمد غضب عليه وحبسه وقيّده ونهب داره ودار ابنيه وهب وإبراهيم وأعاد لوزارة الحسن بن مخلد، لما علم شقيق الخليفة أبو أحد الموفق بذلك غادر بغداد إلى سامراء ومعه عبدالله بن سليمان، لما اقترب الموفق من سامراء تحول المعتمد إلى الجانب الغربي وعسكر به، بينما نزل أبو أحمد الموفق ومن معه جزيرة المؤيد، بعد

مراسلات بين الأخوين ركب المعتمد حراقة في دجلة حيث حضر إليه أخاه الموفق فخلع عليه المعتمد ومن معه من القادة، ثم أطلق الموفق سليمان بن وهب من حبسه فهرب الوزير الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح واستولى الموفق على أموالهما، لكن وللأسف لم يدم رضا الموفق على سليمان طويلاً، غضب عليه سنة ٢٦٥هـ وأمر بحبسه وابنه عبدالله في دار أبي أحمد الموفق وستولى على ضياعهما وأموالهما ومات سليمان في حبسه سنة ٢٧٢هـ.

د- **أبو الصقر إسماعيل بن بلبل**: عربي من شيبان، مدحه الشاعر ابن الرومي بقصيدة نونية مطلعها:

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان	فيهنّ نوعان من تفاح ورمّان
قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم	كلا لعمري ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن له شرفاً	كما علا برسول الله عدنان

لكن أبا الصقر اشتبه بكلام ابن الرومي أهو مدح أم ذم وادعى بأنه ذم لا مدح وأن ابن الرومي قد هجاه، فما كان من ابن الرومي إلا أن سلّ عليه لسانه وهجاه بفحش القول ومما قاله:

مهلاً أبا الصقر فكم طائرٍ	خرّ صريعاً بعد تحليق

لكن أبا الصقر كان كريماً ومطعاماً، وبلغ في الوزارة مبلغاً عظيماً، حيث جُمع له السيف والقلم، كما نظر في أمر العساكر، حتى سمي بالوزير الشكور، لكن في سنة ٢٧٨هـ قُبض عليه ونهبت منازله، خلع بعد ذلك على عبيد الله بن سليمان بن وهب بالوزارة فكان من كبار الوزراء ومشايخ الكُتّاب. وممن تولى الوزارة أيضاً وخدم في كتابة الموفق، صاعد بن مخلد وسمي بذي الوزارتين سنة ٢٧٠هـ وهذا دليل على اضطراب الأمور وقوة نفوذ الموفق، قبض عليه الموفق سنة ٢٧٢هـ وعلى ابنيه وأخيه.

ثالثا: العلويون:

توفي في عهد المعتمد إمام الشيعة الإمامية الاثنا عشرية الحادي عشر أبو محمد الحسن العسكري الذي يرجع في نسبه إلى الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن محمد زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

توفي الإمام العسكري في سامراء سنة ٢٦٠هـ ودُفن بجوار والده علي الهادي، اختلف الشيعة بعد وفاته كثيراً عمن يخلفه، يرى جمهورهم أن الإمام من بعده هو ابنه محمد العسكري الإمام ١٢ ويعتقد الشيعة أنه دخل سرداباً في دار أبيه بسامراء وأمه تنظر إليه لكنه لم يخرج إليها ويعتقد الشيعة أنه سيظهر فيها بعد ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن مُلئت جوراً ويسميه الشيعة بالإمام المنتظر والقائم والمهدي وينتظرون خروجه من السرداب، ويعتقد القسم الآخر من الشيعة بأن الحسن العسكري هو آخر الأئمة وأنه لم يُخلف ويقول آخرون بتولي أخيه من بعده جعفر بن علي ومن بعده ابنه موسى وقال آخرون ابنه إسماعيل الذين يقال لهم الشيعة الإسماعيلية وخلاصة القول إن الاثنا عشرية ذهبوا لفرع موسى الكاظم بينما ذهب الإسماعيلية لفرع إسماعيل. كان للشيعة الاثنا عشرية تعاليم دينية يسترون الكثير منها عن الناس فسموا بالباطنية.

نشأ عن المذهب الشيعي قوتان كبيرتان، تعملان ضد الدولة العباسية الأولى منهما قوة معتدلة ومركزها قرية السلمية قرب حمص وهي أصل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها كما كانت الحميمة من قبل مجمع أسرار الدولة العباسية.

أما القوة الثانية هي قوة ذات فوضى وتخريب وكان مركزها أول ظهورها في العراق وهي القرامطة، بدأ بوادر شرها وأعمالها التخريبية في أواخر عهد الخليفة المعتمد على يد رجل ظهر بسواد الكوفة قدم إليها من نواحي خوزستان وظهر بمظهر الزهد والتقشف وكثرة الصلاة وأظهر للناس بأنه يدعو إلى إمام من أهل البيت ولزهده وتقشفه ازداد نبلاً في أعين الناس، وعند مرضه حملوه إلى رجل في قرية يلقبه أهلها بكرمية لحمرة عينيه وأقام عنده حتى برأ من مرضه وأصبح كرمية

يدعو الناس إلى مذهبه فاجتمع حوله الكثير ويأخذ من كل من يدخل مذهب ديناراً يزعم أنه للإمام واتخذ من أهل القرية ١٢ نقيباً فشغل الناس عن أعمالهم بما رسمه لهم من الصلوات الكثيرة التي أخبرهم بأنها مفروضة عليهم.

وعلم بأمر هذا الرجل الزاهد رجل من أهل المنطقة يدعى الهيصم له ضياع فأحضره وحبسه تمكنت إحدى جواري الهيصم من رقيه فأخذت مفتاح الحجرة التي حُبس فيها الرجل الزاهد من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح، لما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل الزاهد فلم يجده فشاعت هذه الحادثة مما زاد من افتتان الناس به وقالوا إنه رفع ثم ظهر في ناحية أخرى، أشيع بين الناس أنه لا يمكن لأحد أن ينال منه بسوء فعَظُمَ أمره في أعينهم، ورُغم ما وصل إليه خاف على نفسه فخرج إلى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذي آواه وعالجه (كرمية) وخفف الاسم فيما بعد إلى قرمط.

انتشر مذهب القرامطة في سواد الكوفة والخليفة المعتمد لاهٍ عنه وعن أعماله حتى كان منهم ما كان من الكوارث والفتن التي حلت بالأمة الإسلامية، حيث أخافوا السبل وقطعوا طرق الحج وأخذوا الأتوات والأموال من الناس.

رابعا: فتنة الزنج (الزط) ومقاتلتهم:

عاث الزنج في البصرة سنة ٢٥٧هـ خراباً وفساداً وقتلاً، حيث قتلوا خلقاً كثيراً من أهلها وأشاعوا بين أهلها الرعب والأراجيف.

تمكن قائد جيش المسلمين في البصرة من هزيمة الزنج وأخذ من أيديهم جمعاً غفيراً من النساء والذرية كما استرد منهم الكثير من المال الذي نهبوه من سكانها، لكن الزنج أعادوا الكرّة على جيش المسلمين وقتلوا منهم الكثير ثم التقوا ثانية بجيش المسلمين بقيادة منصور بن جعفر، تمكن الزنج من هزيمته ودخلوا البصرة وأعملوا القتل في أهلها فهرب واليها ومن معه، أحرق الزنج جامع البصرة والكثير من دورها، ونادى في الناس أحد أصحاب زعيم الزنج إبراهيم بن المهلبي، من أراد

الأمان فليحضر إليّ، اجتمع عنده خلق كثير من أهل البصرة ظانين أن يمنحهم الأمان، لكنه غدر بهم وأمر بقتلهم وأبادهم جميعاً إلا من استطاع الهرب منهم، ثم أشعلوا النار في كل مكان وصلوا إليه فأحرقوا المسجد الجامع وقتلوا عدداً من الأعيان والأدباء والفضلاء والمحدثين والعلماء. بعد هذه الجرائم والوحشية التي عملها الزنج في البصرة، أرسل إليهم الخليفة المعتمد جيشاً كبيراً وألقوا في طريقهم القبض على سعد بن أحمد الباهلي الذي اشتهر بقطع الطريق وإخافة المسلمين وأرسلوا به إل الخليفة سنة ٢٥٨هـ فأمر بضربه فضرب سبعمائة سوط ثم مات. وفي هذه السنة (٢٥٨هـ) قُتل الكثير من أصحاب صاحب الزنج بسامراء وتعرض أيضاً أهل بغداد وواسط وسامراء لوباء شديد حصد الكثير منهم.

وفي سنة ٢٥٩هـ أرسل الخليفة المعتمد لحرب الزنج قائده موسى بن بغا ومعه كمعين له عبدالرحمن بن مفلح بعد أن خربوا البلاد وقتلوا العباد وأثاروا في الأرض الفساد، غلبهم المسلمون بعون من الله وأسروا منهم خلقاً كثيراً وقتلهم الناس قبل أن يصلوا إلى الخليفة.

وفي سنة ٢٦١هـ تمكن الزنج من الانتصار على جيش الخليفة بقيادة أبي الساح، لكن الزنج دخلوا الأهواز وعاثوا فيها فساداً وقتلاً.

في صفر سنة ٢٧٠هـ قُتل صاحب الزنج بعد ما عملوه من فساد وتخريب استمر ١٤ سنة وأربعة أشهر وستة أيام وتخلص المسلمون من هذا الشر المستطير بعون الله وقدرته.

خامسا: الاضطرابات في المشرق:

كانت المناطق التالية ومنذ خلافة المأمون تخضع لسيطرة الدولة الطاهرية وهي خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر، وما حولها من بلاد الري وطبرستان وجرجان وكرمان، وكانت هذه المناطق ترتبط بحبل الخلافة العباسية، لكن بعد سيطرة الأتراك على أمور الدولة واستبدادهم وتلاعبهم بالخلفاء، أضعف من

سيطرة الخلفاء في بغداد وسامراء على أمراء المناطق البعيدة في المشرق وخاصة بعد أن نازع الدولة الطاهرية التابعة للعباسيين ثلاث قوى تحيط بآل طاهر هي:

١- القوة الزيدية بطبرستان وجرجان.

٢- القوة الصفارية بسجستان والتي أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو اللذين حاربا الخوارج وانتصروا عليهم وتغلبوا على سجستان وهراة وبوشينج وانتصروا على الترك وخاصة ملوك الملتان والسند ومكران فأذعنوا لهم، لم يرغب يعقوب بن الليث بالاستقلال عن الدولة العباسية بل يريد أن يكون أميراً على هذه المناطق بطلب من الخليفة في بغداد وليحل محل آل طاهر الذين انتصر عليهم في شيراز في عهد لخليفة المعتز وفي عهد الخليفة المعتمد سيطر يعقوب بن الليث على مجموعة من الكور وتمكن من دخول نيسابور وحبس محمد بن الطاهر وآل بيته لتنتهي بذلك الدولة الطاهرية. لكن الخليفة المعتمد وأخيه أبي أحمد الموفق لم يقرا يعقوب على ما فعله إلا أن الخليفة مؤخراً اضطر أن يولي يعقوب بن الليث على خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس وعلى الشرطة بمدينة السلام بدلاً من آل طاهر، لكن يعقوب لم يقتنع بها أعطاه إياه الخليفة بل طمع وتجرأ أن يرسل للخليفة قائلاً: «أنه لا يرضيه ما كتب به إليه دون أن يصير إلى باب السلطان» ويظهر من قوله هذا أنه يريد الاستيلاء على بغداد وبلاد العراق، فماذا عمل الخليفة المعتمد، رحل الخليفة من سامراء إلى بغداد ومنها اتجه إلى عسكر يعقوب الذي وصل وقتها إلى واسط، تقابل الجيشان في معركة قوية كان النصر فيها أولاً لجند يعقوب بن الليث إلا أن جند يعقوب أصابهم كره القتال بسبب محاربتهم الخليفة وجهاً لوجه فانفصلوا عن جيش يعقوب فهُزم يعقوب بعد ذلك وتحرر محمد بن طاهر من أسره وحضر عند الخليفة فخلع عليه مرتبته، وقُرئ على الناس كتاب يُذكر فيه مثالب يعقوب والذي لم يُرضه ما أعطاه له الخليفة وقدومه لحرب الخليفة يوم ١١ رجب سنة ٢٦٢هـ، بعدها رجع الخليفة المعتمد إلى سامراء. وقدم محمد بن

طاهر بغداد وردّ إليه الخليفة عمله وعاد يعقوب لبلاد فارس وحارب رجاله صاحب الزنج، في سنة ٢٦٥هـ توفي يعقوب بن الليث في الأهواز بعد حكم استمر ١٨ سنة، بايع جنده بعده أخاه عمرو وكان عمرو خيراً من يعقوب في التدبير والسياسة فأقره الخليفة المعتمد على ولاية ما كان عليه أخوه يعقوب، ثم تغير عليه الخليفة بعد ما شعر بمطامعه وأعلن سنة ٢٧٢هـ لعنه أمام حجاج خراسان وأخبرهم أنه ولّى مكانه على خراسان محمد بن الطاهر وأعلن الخليفة على المنابر لعن عمرو بن الليث ثم رضي عنه واسترضاه بالمال وولاه ما كان بين الساسانيين من بلاد ما وراء النهر وكانت هذه الولاية خاتمة عزه.

٣- القوة الثالثة هي القوة السامانية التي حكمت ١٢٨ سنة وستة أشهر من سنة ٢٦١هـ إلى سنة ٣٨٩هـ في بلاد ما وراء النهر ولم يكن للدولة العباسية فيها إلا الاسم والدعوة للخليفة.

والأسرة السامانية أسرة فارسية نبيلة كانت تدين بالديانة الزردشتية (المجوسية) ثم أسلم جدهم سامان أحد أشراف مدينة بلخ، أصدر الخليفة المعتمد أمره بتوليه نصر بن أحمد الساماني ولاية جميع بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١هـ فكانت بداية الدولة السامانية التي اتخذت من مدينة بُخارى عاصمة لها والذي انتصر على الصفاريين وضم أراضيهم لملكه.

جاهدوا الأتراك الوثنيين في أواسط آسيا ونشروا الإسلام بينهم فصارت تركستان سنداً للإسلام بعد أن كانت خطراً عليه.

كانوا على علاقة طيبة وطاعة للخلافة العباسية حتى أن نوح بن منصور الساماني تزوج من ابنة عضد الدولة البويهي.

امتاز عصر الدولة السامانية بنهضة علمية وأدبية رائعة جعلت من بخارى العاصمة مركزاً من أهم المراكز العلمية الإسلامية والذين ترجموا الكتب العربية للفارسية وعملوا على إحياء اللغة الفارسية وظهر في عهدهم من العلماء أبي بكر

الرازي والفيلسوف الطبيب ابن سينا، كما امتاز العصر الساماني بنهضة صناعية وخاصة الصناعة الخزفية الجميلة وخاصة في مدينة طشقند وصناعة الورق وامتازت بها سمرقند وصناعة السجاد والمنسوجات الحريرية[1].

وامتازت الدولة السامانية باعتمادها على المماليك الأتراك في جيوشها رغم أصلها الفارسي واتبع السامانيون نظاماً تربوياً في تربية مماليكهم الأتراك.

سادسا: الحوادث الخارجية:

كانت حدود الدولة الإسلامية على الجانب الرومي في عهد المعتمد محل اضطراب دائم، ولكون الدفاع الإسلامي عنها ضعيفاً، كانت تتعرض لغارات الرومان كثيراً وتمكن الرومان سنة ٢٦٣هـ من الاستيلاء على حصن لؤلؤة. بعد أن ولّى الخليفة المعتمد أحمد بن طولون طرسوس، كلفه بحفظ هذا الثغر من هجمات الروم، ثم خضعت بلاد الشام والثغور لسيطرة ابن طولون ليتسع ملكه حتى كانت حدود مملكته تصل إلى نهر الفرات، ولما حدث الخلاف بين الخليفة المعتمد وأخيه أبو أحمد الموفق، استنجد الخليفة المعتمد بأحمد بن طولون، فعرض ابن طولون على الخليفة المعتمد الحضور لمصر وأن تصبح مقراً للخلافة العباسية، إلا أن الموفق حال دون تحقيق ذلك.

تعهد ابن طولون حماية الثغور الشامية من هجمات الروم بجنوده من مصر والشام وتمكن من الإيقاع بهم سنة ٢٧٠هـ وهزيمتهم هزيمة منكرة.

وفاة الخليفة المعتمد:

يقال إنه في ذات ليلة أكثر من الشراب ثم أتبعه بأكلة دسمة أتت على حياته لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ٢٧٩هـ وكان قد اختار لولاية العهد الرجل الذي كانت بيده أمور الخلافة الفعلية وهو أخوه أبو أحمد الموفق.

---

(١) في التاريخ العباسي والأندلسي، د. أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، ١٩٧٢، ص١٥٤.



اسمه ونسبه ومن عاصره من الحكام:

هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق بن جعفر المتوكل بن المعتصم.

يعتبر من خيرة خلفاء بني العباس في العهد الثاني بعد العصر الذهبي، بويع بالخلافة صبيحة موت الخليفة المعتمد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ٢٧٩هـ الموافق ١٥/ ١٠/ ٨٩٢م وتوفي لثمان ليالٍ بقيت من ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ بعد حكم استمر تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام وكان ابنه المكتفي ولياً لعهده قبل توليه للخلافة. كان شأن الخلافة ذاوياً وخاوياً ومضطرباً، فلما تسلم المعتضد الخلافة، عزّ وتقوى مركز الخلافة على يدي هذا الخليفة الشاب المؤزر الشهم المقدام.

والدته أم ولد اسمها ضرار ولشهامته وجرأته وصلابة عوده أطلق عليه اسم السفاح الثاني، لأنه هو الذي جدّد ملك بني العباس بعد أن بدأ يتهاوى.

ومن معاصريه:

١- في الأندلس عبدالله بن محمد المتوفى سنة ٣٠٠هـ.

٢- في المغرب دولة الأدارسة والتي كانت في حالة ضعف وذبول.

٣- عاصره في إفريقيا وصقلية من الأغالبة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب المتوفى سنة ٢٨٩هـ.

٤- عاصره في مصر من حكام الدولة الطولونية خمارويه بن أحمد بن طولون الذي حرص على اكتساب رضا الخليفة العباسي المعتضد حتى عرض عليه ابنته قطر الندى لابنه المكتفي، لكن الخليفة المعتضد طلبها لنفسه فوافق والدها والذي جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى أن الكثير من المؤرخين أفردوا الصفحات الطوال في وصف هذا الجهاز الذي كلّف ميزانية الدولة الطولونية الكثير، وتم زواج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه والتي تسمى أسماء. في سنة ٢٨١هـ، هذا وقد بنى خمارويه القصور والاستراحات على جانبي الطريق من القطائع بمصر إلى حاضرة الخلافة العباسية في بغداد، كي تتمتع ابنته قطر الندى أثناء رحلة الزواج بكل وسائل الراحة والاستقرار.

٥- عاصره في صنعاء باليمن من آل يعفر عبدالقادر بن أحمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٧٩هـ وخلفه إبراهيم بن محمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٨٥هـ ثم ابنه أسعد بن إبراهيم.

٦- عاصره في طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوي المقتول سنة ٢٨٧هـ وفي خراسان وسجستان عمرو بن الليث الصفار الذي أُسر سنة ٢٨٧هـ.

٧- عاصره في بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى سنة ٨٩٨م ومن بعده شارل الثالث الملقب بالساذج المتوفى سنة ٩٢٣م.

من صفات الخليفة المعتضد:

تميز الخليفة المعتضد بمجموعة من الصفات التي أعطته القوة والجرأة من أهمها:

١- الجرأة وقوة القلب، كان للخلافة في عهده من الهيبة والمكانة أكثر مما كان في عهد والده وأخيه.

٢- مع شجاعته كان قليل الرحمة سفاكاً للدماء، شديد التمثيل بمن يقتله حتى سمي بالسفاح الثاني في بني العباس.

٣- قام بإصلاحات منها: رد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام، كما اهتم بأحد روافد نهر دجلة (كري دحبل).

٤- عمل التقويم المعتضدي بما يتفق والسنة الشمسية ووقت جني ثمار الغلات لأن وقتها واحد، كانوا يفتتحون الخراج في يوم النيروز، لكن المعتضد أخره من شهر نيسان إلى شهر حزيران فأصبح النيروز لا يتقدم ولا يتأخر عن زمنه واعتبر المعتضد أن كل ٣٢ سنة شمسية يقابلها ٣٣ سنة قمرية هلالية.

٥- الانتقال بعاصمته من سامراء إلى بغداد وكان بسامراء قبور ستة من خلفاء بني العباس وقبور إمامين من أئمة الشيعة (علي بن محمد والحسن بن علي العسكريان) وبها سرداب الإمام المهدي المنتظر عند الشيعة وأنه سيخرج منه في آخر الزمان.

٦- امتاز بحرصه على أموال المسلمين ومن شدة حرصه على الأموال اتهموه بالبخل.

٧- المعتضد أول من بنى داراً للخلافة وأول من سكنها من الخلفاء وقبل أن يسكنها كانت تُعرف بالقصر الحسيني نسبةً إلى صاحبها الحسن بن سهل والتي انتقلت لابنته بوران زوجة المأمون (التي أصلحتها وفرشتها وأرسلت بمفاتيحها للخليفة المعتضد ونزل فيها). وظلت دار الخلافة هذه على حالها حتى دمرها التتار سنة ٦٥٦هـ.

من الأحداث في عهده وأشهر وزرائه:

من أشهر ما حدث في عهده وفاة إمام الحديث الإمام الترمذي (محمد بن عيسى بن سورة الضحاك) صاحب مصنف الجامع في الحديث وحدث آخر هو قتله سنة ٢٨٦هـ رجلاً من أمراء الزنج اسمه سلمة الذي لجأ إليه بعد إعطائه الأمان.

استلم الوزارة في عهده وزيرين هما:

١- عبيد الله بن سليمان بن وهب واستمر في وزارته حتى مات سنة ٢٨٨هـ.

٢- الوزير أبو الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان ومات الخليفة المعتضد وهو لا يزال وزيراً له.

الاضطرابات والفتن في خلافة المعتضد

أولا: اضطرابات الجزيرة:

نظراً لسيطرة القادة الأتراك على شؤون الدولة العباسية رأى العرب الاستقلال بأمر أنفسهم في ديار بكر ربيعة وديار مضر بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المرتزقة، خرج من العرب نفر يدعون الناس إلى خلع طاعة العباسيين ومن أكثر هؤلاء خروجاً بنو شيبان في أرض الجزيرة وهم من ربيعة. وكان خروج بني شيبان في أول خلافة المعتضد والذي نهب أموالهم وقتل منهم الكثير كما غرق أيضاً الكثير منهم في نهر الزاب، توجه إليهم المعتضد في الموصل حتى سأله بنو شيبان العفو وأعطوه الرهائن فأجابهم لطلبهم ثم عاد المعتضد لبغداد.

وفي سنة ٢٨١هـ خرج المعتضد إلى قلعة ماردين والتي استولى عليها من يدي حمدان بن حمدون جد الأسرة الحمدانية، صاح المعتضد في ابن حمدان يطلب منه فتح باب القلعة ففتحها فأمر المعتضد بنقل ما فيها، ثم هدمها وأرسل في طلب حمدان وظفر به بعد عودته لبغداد، هذا واستقل في الجزيرة أيضاً خارجي اسمه هارون الشادي الذي هزم الكثير من جند السلطان، انتدب الخليفة المعتضد لحربه الحسين ابن حمدان والذي اشترط ثلاث حاجات للقيام بالمهمة هي: إطلاق سراح والده حمدان وحاجتان يذكرهما بعد مجيئه فأجابه المعتضد لطلبه فخرج الحسين بن حمدان لحرب هارون وهزمه وقبض عليه وأخذه أسيراً وأحضره للمعتضد فخلع عليه وطوقه وخلع على إخوته وأمر بإطلاق سراح والده كما وسّع عليه وأحسن إليه وكان هذا بداية ظهور الأسرة الحمدانية.

ثانيا: القرامطة:

سبق الحديث عن كيفية نشأة حركة القرامطة الشريرة في الكوفة الذين كثر أتباعهم، وهي فرقة شريرة ومن أشد الناس إفساداً وخراباً زادوا في فسادهم عما قام به الزنج. وهم من إحدى صور الإسماعيلية، ظهروا في سواد الكوفة وبنواحي البحرين والبصرة وحيث ظهر في البحرين رجل من جنابة من سواحل فارس اسمه أبو سعيد حسن الجنابي التفّ حوله الأعراب في نواحي البحرين والبصرة، وقويت شوكتهم، قام الجنابي بقتل من حوله من أهل القرى ودخل هجر والقطيف وما حولها وعاثوا بها فاسداً وتخريباً فقتلوا الكثير وزرعوا الخوف والرعب بين الناس، ولما استشرى أمر الجنابي وأراد مهاجمة البصرة فكتب واليها إلى الخليفة المعتضد، يخبره بالأمر، أمر المعتضد ببناء سور حول البصرة وتم ذلك سنة ٢٨٧هـ، ولما حاول الجنابي مهاجمة البصرة، أرسل إليه المعتضد جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة العباس بن عمرو الغنوي لكن الجنابي هزمهم وقتل معظم الجيش وأسر قائده العباس، ثم أطلق سراحه وقال له ارجع إلى صاحبك وأخبره بما رأيت وأحدث هذا الوضع قلقاً واضطراباً في البصرة، حتى همّ أهلها بسبب الخوف بالهرب من البصرة درءاً لوحشية القرامطة وهمجيتهم، لكن والي وأمير البصرة أحمد الواثقي منعهم من الخروج.

لما علم المعتضد بانتشار مذهب القرامطة وزيادة عدد أتباعهم بسواد الكوفة، أرسل إليهم المعتضد جيشاً بقيادة شبل غلام أحمد بن محمد الطائي والذي هزمهم وأسر أحد رؤسائهم المعروف بـ (أبو الفوارس) وأحضره للمعتضد الذي حاوره ثم أمر بقتله.

في سنة ٢٨٩هـ عاث القرامطة فساداً وخراباً في سواد لكوفة ثم توجهوا إلى دمشق فقاتلهم نائبها من قِبَل هارون بن خمارويه الطولوني حاكم مصر لكنهم هزموه فبعث إليهم الخليفة جيشاً لقتالهم فهزموه وتمكنوا في مسيرهم حتى بلغوا

الرصافة وأحرقوا جامعها ونهبوا وخربوا واستمروا في تقدمهم حتى وصلوا دمشق فقاتلهم أهلها لكن القرامطة هزموهم وقتلوا من أهلها الكثير.

استمر الخليفة المعتضد في إرسال جيوشه إلى من بسواد الكوفة منهم تحت إمرة الداعية القرمطي قرمط زكرويه بن مهرويه الذي تمكن من استمالة قبيلة كلب بن وبرة حتى بايعوه سنة ٢٩١هـ ولقبوه بالشيخ وأصبح له مائة ألف تابع وسُمي الفاطميون الذين قتلوا قائد المعتضد شبل غلام. وخلاصة القول إن القرامطة ظهروا في خلافة المعتضد في ثلاثة أماكن هي البحرين، العراق والشام وكانوا شعلة محرقة آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق إلى بيت المقدس كما سرقوا الحجر الأسود من الكعبة لبضعة سنين. وفي هذا الوقت كان نشاط دعاة الفاطميين باليمن والشمال الإفريقي ثم كونوا فيما بعد الدولة الفاطمية التي تصدت للدولة العباسية وسلبتها الكثير من أملاكها في الشام ومصر وشمال إفريقيا.

ثالثا: الاضطرابات في المشرق:

اتسع سلطان وسيطرة عمرو بن الليث في بداية خلافة المعتضد فدخل نيسابور سنة ٢٨١هـ ثم خرج منها ليخلفه رافع بن هرثمة الذي أعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوي وليس لعمرو بن الليث، عاد عمرو إلى نيسابور وحاصر هرثمة فهرب إلى طوس ليحتل عمرو نيسابور وأرسل عمرو قوة لمتابعة هرثمة وانتصرت عليه لينهزم إلى خوارزم فتابعه جند عمرو وقتلوه. وأرسل عمرو بن الليث كتاباً للخليفة المعتضد مع رأس رافع بن هرثمة فخلع المعتضد على عمرو ومنحه الولاية على الري مع الهدايا، وبعد أن استتب الأمر لعمرو بن الليث أرسل للخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ما وراء النهر وعزل واليها إسماعيل بن أحمد الساماني فوافقه الخليفة فردّ عمرو بإرسال هدية للخليفة عبارة عن أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاّة و١٥٠ دابة وكسوة وطيب وبزاة.

لكن إسماعيل الساماني رفض تسليم الولاية لعمرو بن الليث قائلاً له بأن يقنع بما في يديه وأن يترك إسماعيل مقيماً بهذا الثغر فرفض عمرو وكانت المصيبة عليه

حيث التقى الاثنان عند بلخ، تمكن إسماعيل من إغلاق النواحي على عمرو فأصبح عمرو كالمحاصر وندم عمرو على ما فعله وطلب المحاجزة فأبى إسماعيل عليه ذلك فهُزم عمرو وولى هارباً حتى دخل أجمة فوحلَتْ دابته فوقعت ومضى من معه وجاءه أصحاب إسماعيل وأسروه فخيّره إسماعيل بين أن يقيم عنده أو أن يرسله للخليفة المعتضد فاختار أن يُرسل للمعتضد الذي قام بحبسه لتنهي أيام عزه وجبروته بسبب أطماعه وأخيراً أمر المعتضد بقتل عمرو بن الليث فقُتل أول خلافة المكتفي.

لما علم محمد بن زيد بما حدث مع عمرو بن الليث خطط مستغلاً انشغال إسماعيل السلماني بما عنده فيما وراء النهر فاحتل خراسان بعد خروجه من طبرستان فلما وصل إلى جرجان طلب منه إسماعيل العودة لطبرستان وتركْ جرجان فرفض فأرسل إليه إسماعيل جيشاً لقيه على باب جرجان فانهزم عسكر محمد بن زيد وأصيب محمد وأُسر ابنه زيد ثم مات محمد من جراحه ودُفن على أبواب جرجان وحُمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد الساماني وبذلك زالت على يد السامانيين دولتي عمرو بن الليث الصفار ومحمد بن زيد، كافأ الخليفة المعتضد إسماعيل بإرسال الخلع إليه، بدنة وتاجاً وسيفاً من ذهب وعليها الجواهر، كما أرسل إليه بهدايا وثلاثة آلاف ألف ديناراً لتفريقها على جيوش خراسان، ثم وجه إلى سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث لتصبح القوة في المشرق للأسرة السامانية والتي خضع لها بلاد ما وراء النهر وخراسان إلى الري وسجستان وأصبح للسامانيين النفوذ والسلطان.

رابعا: الوضع في المغرب:

كانت علاقة المعتضد مع خمارويه بن أحمد بن طولون حسنة، والذي كان يتقرب للخليفة بالهدايا الكثيرة وازدادت العلاقة حُسناً بزواج الخليفة من ابنة خمارويه قطر الندى، التي احتفل والدها بجهاز ابنته احتفالاً ضخماً فجهزها بدكة (سرير) مكونة من أربعة قطع من ذهب وعليها أيضاً قبة من الذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر، لا يُعرف لها قيمة، وبنى خمارويه على طول الطريق بين مصر وبغداد قصوراً ترتاح فيها ابنته، وأرسل معه أخاه شيبان بن

أحمد بن طولون، فكانت في سيرها من مصر إلى بغداد كأنها في قصر أبيها، تتنقل من مجلس إلى مجلس حتى وصلت بغداد أول المحرم سنة ٢٨٢هـ، كان وقتها الخليفة المعتضد في الموصل، أدخلت قطر الندى للحرم حتى وصل الخليفة فنُقلت إليه رابع ربيع الثاني ونودي في جانبي بغداد ألا يعبر أحد في دجلة يوم الأحد وهو يوم الزفاف، حتى وصلت إلى دار المعتضد.

في سنة ٢٨٣هـ قُتل حاكم مصر الطولوني ووالد قطر الندى خمارويه (ذُبح ذبحاً) على يد أحد جواريه وهو في طريقه للشام وخلفه ابنه أبو العساكر وكان صبياً أرعناً ولم يكن من المقدرة ما يسوس بها ملك والده، قتله الجند وولوا مكانه أخاه هارون، ضعفت سلطة الطولونيون وزادت سلطة المعتضد وأخذ من هارون قنسرين والعواصم، واقتصر حكم هارون على مصر والشام وفُرض عليه أن يرسل لدار الخلافة في بغداد ٤٥٠,٠٠٠ ديناراً وزاد نفوذ الخليفة المعتضد في مصر والشام.

وفاة الخليفة المعتضد:

كانت وفاة الخليفة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمانٍ بقين من شهر ربيع الآخر لسنة ٢٨٩هـ، في قصره المعروف باسم الحسيني بمدينة السلام بغداد وقيل في سبب وفاته عدة روايات منها:

١- بسم إسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه حيث سرى السم في جسده.

٢- تحلل جسمه في مسيره في طلب وصيف الخادم.

٣- سم إحدى جواريه له في منديل دسته ثم أعطته له ليتنشف به.

أوصى أن يُدفن في دار محمد بن عبدالله بن طاهر في الجانب الغربي من الدار المعروفة بدار الرخام وفي اليوم نفسه الذي توفي فيه بويع بالخلافة لابن المكتفي بالله وأخذ له البيعة القاسم بن عبيد الله لأن المكتفي كان وقتها بالرقة وكان عمره نيف وعشرون سنة وكان عمر المعتضد يوم وفاته ٤٧ سنة[1].

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، الجزء الرابع، ص٢٧٣-٢٧٤، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، الطبعة الثالثة، ١٩٥٨.

الخاتمة

استعرضنا فيما سبق تاريخ الدولة العباسية في عصرها الذهبي في قرنها الأول وبداية القرن الثاني حيث بدأ تدخل العنصر الفارسي ثم العنصر التركي وتدخل القادة الأتراك في تعيين وخلع الخلفاء.

شهدت الدولة العباسية في قرنها الذهبي الأول خلفاء عِظام خدموا الإسلام والمسلمين وحافظوا على بيضة الدولة الإسلامية من الفتور والانهيار فتصدوا لأعداء الدولة والقضاء على الفتن والثورات الداخلية فبقيت دولة الخلافة متماسكة البنيان قوية الدعائم ذات جيش قوي واقتصاد متنام وصناعة متطورة كما شهدت نهضة علمية واضحة المعالم وظهور علماء أفذاذ في شتى المجالات ونشطت حركة الترجمة وكان بيت الحكمة في عهد الخليفة الشاب المأمون والاهتمام بالفلسفة اليونانية وترجمة كتب فلاسفة اليونان، كما ظهرت وتنامت فرقة المعتزلة ومشكلة وقضية (خلق القرآن).

ومن الخلفاء العِظام في عصر الدولة العباسية الأول الخليفة المقدام هارون الرشيد الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً وظهر قاهر البيزنطيين الذي استجاب لصرخة امرأة هاشمية اعتدى عليها جبابرة البيزنطية فوصلت صرختها واستغاثتها لأفواه المعتصم صرخت وامعتصماه، فهب لنجدتها وتحريرها فقاد الجيش بنفسه وهزم إمبراطور البيزنطيين في معركة عمورية ودمر مسقط رأس إمبراطورها، وتغنى الشعراء بهذا النصر المؤزر من أمثال الشاعر (أبو تمام) في قصيدته المشهورة والقائل فيها (يوم عمورية):

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

بأمثال هؤلاء الخلفاء العِظام من أمثال الرشيد والمأمون والمعتصم كانت الدولة الإسلامية في مجد عزها هابها الأعداء وحسبوا لها ألف حساب فقد ردّ هارون الرشيد على رسالة ملك الروم (نقفور) وعلى ظهر رسالته احتقاراً له ولعزة الإسلام والمسلمين (الجواب ما تراه، لا ما تسمعه) وكانت بغداد عاصمة العواصم مزدهرة بالعلم والعلماء هابها القريب والبعيد وحسبوا لها ألف حساب ودفعوا لها الجزية عن يد وهم صاغرون.

إذا عاد المسلمون لدينهم وتمسكوا بقرآنهم وسنّة نبيهم وأعادوا بناء دولتهم عاد للمسلمين عزهم وكرامتهم.

المـراجـع

١- تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانيـة، ٢٠٠٥م/ ١٤٢٦هـ.

٢- في التاريخ العباسي والأندلسي، د. أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.

٣- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، الشيخ محمد بك الخضرين الطبعـة العـاشرة، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

٤- لوحات مضيئة في الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليـل، د. نـزار أباظـة، دار الفكـر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٥- حماة الإسلام، مصطفى نجيب، دار المدائن للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٦- هارون الرشيد، الخليفة المظلوم، محمد الزين والشيخ أحمـد القـان، دارابـن قتيبـة، الطبعـة الأولى، رمضان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٧- الوجيز في تاريخ الإسلام والمسلمين، الأستاذ الدكتور أمير عبدالعزيز، مكتبـة دنـديس ودار ابـن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٣م.

٨- رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، المكتبة الأموية، الطبعة الثانية، ١٣٧٧هـ.

٩- الجهاد ميادينه وأساليبه، د. محمد نعيم ياسين، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٧٨م/ ١٣٩٨هـ.

١٠- معارك إسلامية، عدنان صالح، مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.

١١- طرائف الخلفاء والملوك، عبد أعلى مهنا، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، لبنـان، ٢٠٠٧م، الطبعـة الأولى.

١٢- مروج الذهب معادن الجوهر، المسعودي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الجزء الثالث، الجـزء الرابع.

فهرس